



الجمهورية العربية السورية
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
قسم العقيدة

مباحث في فلسفة العقيدة

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه

إعداد

محمد بن أحمد الرحمن أبو يوسف الشافعي

إشراف

الدكتور أحمد بن محمد العيسى

١٤١١ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور
أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهدي الله فلا مضل له ، ومن يضل الله فلا هادي له ،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى
الله عليه وسلم ، أما بعد :

فإذا طلبت العلم فاعلم أنه .°. حمل فأبصر أى شيء تحمل
وإذا علمت بأنه متفاضل .°. فاشغل فؤادك بالذى هو أفضل (١)

ولاريب أن أفضل العلوم وأكملها ، العلم الذى خلق الله الخلق من أجله ، وأرسل
رسله وأنزل كتبه لتقريره ، ويبعث الخلق لمحاسبتهم فيه ، وخلق الجنة والنار
للمجازاة عليه ، العلم الذى أمر الله به نبيه فى قوله : " فاعلم أنه لا إله
إلا الله " - محمد ١٩ - ، وأمره أن يخبر قومه عنه بقوله : " قل إننى هدانى
ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملأ إبراهيم حنيفاً وماكان من المشركين " -
الأنعام ١٦١- ، فهذا العلم هو الصراط المستقيم ، علم العقيدة ، الذى ينعقد فى
القلب وتمدقه الجوارح ، والعناية به فقها وعملاً هو مراد الله من خلقه ، ومورد
هذه العقيدة هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فمن تمسك بهما
فتفقه فيهما ورد إليهما كل شأنه فهو من أهل هذه الآية : " ومن يعتصم بالله
فقد هدى إلى صراط مستقيم " - آل عمران ١٠١ - ومن هجرهما وتبدل غيرهما
بهما فهو من أهل هذه الآية : " ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء
السبيل " - البقرة ١٠٨ - ، قال تعالى : " وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم ،
وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون " - المؤمنون ٧٣ - ٧٤ - .

ولقد شاء الله سبحانه أن نكب عن هذا الصراط المستقيم خلق ، " من يشأ
الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم " - الأنعام ٣٩ - .

وقد كان تنكب الناكبين عن الصراط إلى سبل متفرقة على شمول متعددة
بحسب تعدد أسباب جنوحهم التى يجمعها أنها حيود عن الحق فى مباحث العقيدة
ومسائلها .

أما الباب الثاني : فهو فى تفاضل الخلق ، وفيه خمسة فصول :

الفصل الأول : فى تفاضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وفيه أربعة مباحث تحتها مسائل :

المبحث الأول : مسائل تمهيدية فى التعريف بالنبي والرسول والفرق بينهما وصفة الاعتقاد الواجب على العبد فى الأنبياء .

المبحث الثانى : فى أدلة التفاضل بين الأنبياء ووجوه جملة .
المبحث الثالث : فى المفاضلة بينهم على التفصيل .
المبحث الرابع : فى توجيه النهى الوارد عن تفضيل بعض الأنبياء على بعض .

الفصل الثانى : فى المفاضلة بين الأنبياء وبقية البشر ، وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : فى منزلة الأنبياء فى البشر قبل نبواتهم .
المبحث الثانى : فى حقيقة النبوة .
المبحث الثالث : فى كون الأنبياء أفضل البشر .
المبحث الرابع : عرض المقالات الباطلة فى هذا الباب .

الفصل الثالث : فى فضل الصحابة والمفاضلة بينهم ، وفيه أربعة مباحث تحتها مطالب :

المبحث الأول : فى تعريف الصحبة ، وبيان فضلها وتفاضلها .
المبحث الثانى : فى بيان فضل الصحابة وتفضيلهم على الأمة .
المبحث الثالث : فى التفاضل بين الصحابة .
المبحث الرابع : فى الآراء الشاذة والمقالات الباطلة فى هذا الباب .

الفصل الرابع : فى التفاضل بين المؤمنين ومباحث متفرقة فى المفاضلة ، ومهدت له بتمهيد فى بيان مقياس التفاضل فى الشرع ، ثم جعلته قسمين :

القسم الأول : فى التفاضل بين المؤمنين ، وفيه سبعة مباحث :
المبحث الأول : فى بيان أن الأصل فى تفاضل المؤمنين تفاضل الإيمان .

المبحث الثانى : فى الأدلة على تفاضل المؤمنين .
المبحث الثالث : فى بيان ما يقع فيه تفاضل المؤمنين .

- المبحث الرابع : فى جماع أوجه تفاضل المؤمنين .
المبحث الخامس : فى تفاضل قرون أمة محمد صلى الله عليه وسلم .
المبحث السادس : فى تفضيل أمة محمد صلى الله عليه وسلم على
سائر الأمم .

المبحث السابع : فى ما وقع من الباطل فى هذا الباب .

أما القسم الثانى : فهو فى مباحث متفرقة فى المفاضلة ، وفيه خمسة
مباحث :

- المبحث الأول : فى جواز إمامة المفضول .
المبحث الثانى : فى تفاضل الملائكة .
المبحث الثالث : فى المفاضلة بين الملائكة والبشر .
المبحث الرابع : فى تفاضل العبيد .
المبحث الخامس : فى تفاضل الأمكنة والأزمنة .

الفصل الخامس : فى تفاضل المؤمنين فى الآخرة ، وفيه خمسة مباحث :

- المبحث الأول : فى التفاضل فى البرزخ .
المبحث الثانى : فى التفاضل فى المحشر .
المبحث الثالث : فى التفاضل فى الحساب .
المبحث الرابع : فى التفاضل فى المرور على الصراط وورود
الحوض .
المبحث الخامس : فى التفاضل فى درجات الجنة .

وأما الهاتمة فقد عرضت فيها ثمرة البحث ومحصلته . ووضعت فهرسا لموضوع
الرسالة فى آخرها .

وقد بذلت وسعى فى الوصول بالبحث إلى أقرب منزلة من الكمال وقد اجتهدت
لتركيز المادة العلمية فى البحث على الوجه الذى يحتمله موضوعه من غير إخلال أو حشو ،
فأردته مختصرا شاملا ، واجتهدت أن يكون أسلوبه علميا جادا منظما سهلا
الماخذ سريع الفهم قوى الدلالة صحيح العلم . فإن وفقت فمن الله وحده ، وإن
أخفقت فمنى ومن الشيطان بتقدير الله وقضائه .

وقد اعتمدت فى توثيق مضمون الرسالة منهاجا يقوم على الآتى :-

١- تخريج الآيات الواردة فيه بذكر اسم السورة ورقم الآية إلى جوارها في نفس المتن.

٢- تخريج الأحاديث الواردة في المتن بذكر الكتب التي خرجتها ، فإن كان الحديث في صحيح البخاري ومسلم أوفى أحدهما اكتفيت بعزوه إليهما أو إلى أحدهما دون غيرهما وإن خرج ، وإن كان في غير الصحيحين عزوته إلى الكتب التي خرجته مما وقفت عليه منها مع ذكر أقوال بعض أهل العلم في درجته باختصار ، وجعلت العزو في الهامش .

٣- ما نقلته في المتن بنصه عن أحد كتب العلم فإنني أحيله في الهامش إلى مصدره بذكر رقم الصفحة ورقم الجزء ، إن كان أجزاء ، ولقد اختصرت بعض أسماء الكتب بذكر اسمها المشهور المتداول ونسبت إلى ذلك في فهرس المراجع ، ومثال ذلك : كتاب : " جامع البيان في تفسير القرآن " للطبري ، اكتفيت بتسميته " تفسير الطبري " .

٤- ما ورد في المتن بمعناه دون لفظه عن أحد كتب العلم فإنني أحيله في الهامش إلى مصدره مصدرا للإحالة بكلمة " انظر " .

٥- ترجمت بعض الأعلام ، وتركت ترجمة المشاهير المتداول ذكرهم بين طلاب العلم .

٦- وضعت فهرسا لبيان طبعات المراجع التي أحلت إليها في الهوامش ورتبته على حروف المعجم ، وفي هذه المراجع مصادر أصيلة للرسالة هي مواردها ومصادر ليست إلا للتوثيق فقط وهي كتب الرافضة وأهل وحدة الوجود وبقيّة المبتدعة وثقت بالإحالة إليها ما ذكرته من مذاهب هؤلاء وأقوالهم .

وبعد: فإنني أضع بين يدي القارئ والناقد جهد المقل ، ولا أدعى أنني بلغت في هذا البحث كل ما أريد ولكنني بذلت فيه وخرجت منه بما كتبه الله وقضاه ، ولقد قضى سبحانه ألا عصمة لكتاب غير كتابه ، فالكلام الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إنما هو كلام الله فحسب ، والجميل من المرء أن يغفر قليل خطأ أخيه في كثير صوابه ، وإنني لأجد فائدتي في نقدي ، وأحسن الله لمن أهدى إلي عيوبى .

وأسأل الله عز وجل أن يشكر للشيخ الدكتور صالح العبود ما أفدته منه وقد أشرف على هذه الرسالة في أوائلها ، وأن يشكر للشيخ الدكتور أحمد العمري

المشرف على الرسالة ماأهدانيه من توجيهاته ،وأن يشكر سبحانه لكل أخ أفدت
منه في البحث بشيء وإن قتل ،وأن يشكر لمناقش هذه الرسالة ماأهدانيه -
ابتغاء مرضاة الله - من ملاحظات على مافي الرسالة معا ينال من العلم إخلاصا
أو تعيبا .

وأشكر الله وأحمده أولا وآخرأ على توفيقه وفضله ،وأستغفره من
من خطأي وتقصيري ، وله سبحانه الفضل والمنة من قبل ومن بعد لاشريك له ،
وله الحمد كثيرا دائما .

وصلى الله وسلم على محمد وآله وصحبه .

التحفيـد

"تمهيد"

المسألة الأولى : معنى المفاضلة واشتقاقها في اللغة :

المفاضلة على وزن مفاعلة ، ومعلوم أن هذا البناء فيه التشريك بين جهتين، وفيه معنى المغالبة ، فيدل على غلبة أحدهما ، فالمفاضلة هي المقارنة بين شيئين أو جهتين وتغليب أحدهما على الآخر في الفضل ، إذا فالمفاضلة إثبات الفضل لشيء على آخر ، وتقديمه بذلك عليه ، ولذا يقال : فاضلته ففضلته ، إذا غلبته في الفضل ، كما في الصحاح^(١) ، وفي اللسان : " الفضال والتفاضل : التمازى في الفضل ، وفضله : مزاه ، والتفاضل بين القوم : أن يكون بعضهم أفضل من بعض ، ورجل فاضل : ذو فضل ، ورجل مفضول : قد فضله غيره ، ويقال : فضل فلان على غيره إذا غلب في الفضل عليهم^(٢) ، والمفاضلة مصدر قياسي من " فاضل " .

والأصل الذي اشتق منه اسم المفاضلة هو الفعل : فضل ، يقال : فضل الشيء يفضل كدخل يدخل أو فضل يفضل كحذر يحذر وفيه لغة ثالثة مركبة منها : فضل كحذر يفضل

(١) الصحاح ١٧٩١/٥

(٢) لسان العرب ١١/٥٢٤

(١)
كيدخل وهي نادرة شاذة لانظير لها.

(١)
لكن جاء في تاج العروس: "والذى فى كتاب الفرق لابن سـيـد
أن هذه اللغات الثلاث إنما هى فى الفضل الذى يـراد به
الزيادة. فأما الفضل الذى هو بمعنى الشرف فليس إلا لغة
واحدة وهى فضل يفضل كتعد يقعد". (٢)

(٢)
وفى التاج أيضا: "قال الصيمرى فى كتاب التبصرة له: فضل
يفضل كنصر ينصر، من الفضل الذى هو السؤدد، وفضل يفضل
بكسرهما فى الماضى وضمهما فى المضارع من الفضلة وهى بقية الشئ". (٣)

(١) انظر الصحاح ١٧٩١/٥، ومعجم مقاييس اللغة ٥٠٨/٤، ولسان
العرب ٥٢٥/١١، والقاموس المحيط ٣١/٤، وبصائر ذوى التمييز ١٩٦/٤،
وتاج العروس ٦١/٨.

(٢) تاج العروس ٦١/٨.

(٣) الصحاح ١٧٩١/٥.

(١) لعنه ابن السيد البطليوس أبو محمد عبد الله بن محمد، نحوى
عالم باللغة له التمانيف فيها منها "المثلث" وهو أوسع
وأضبط وأفضل من مثلث قطرب، وشرح سقط الزند للمعدى أحسن
من شرح المصنف، ولد سنة ٤٤٤ هـ، وتوفى سنة ٥٢١ هـ.
انظر وفيات الأعيان ٩٦/٣، البداية والنهاية ١٩٨/١٢.

(ب) لم أعرفه.

(أ) وقد ذكر الجوهري قول سيبويه (ب) في لغة كسر الماضي وضم المضارع فقال : "قال سيبويه : هذا عند أصحابنا إنما يجيء على لغتين " يعنى أنه ليس لغة مستقلة وردت ، قال سيبويه : " وكذلك نعم ينعم ، ومت تموت ، وكدت تكود " وكذا يرى (ج) (أ) الفراء أنها مركبة من لغتين . وعليه تكون لغة كسر الماضي وضم المضارع نادرة شاذة لانظير لها كما قطع به ابن فارس والجوهري فلا تكون أصلاً مستقلاً .

(١) انظر الأضداد ص (١٢) .

(أ) هو اسماعيل بن حماد كان من أعاجيب الزمان ذكاء وعلماء وهو إمام في اللغة والأدب ، قال الذهبي فيه : " أحد من يضرب به المثل في ضبط اللغة " مات قريباً من الأربعمئة . انظر سير أعلام النبلاء ٨٠/١٧ ، ولسان الميزان ٤٠٠/١ ، ومعجم الأدباء ١٥١/٦ .

(ب) سيبويه هو عمرو بن عثمان بن قنبر ، إمام النحاة ، كان في ابتداء أمره يصحب أهل الحديث والفقهاء وكان يستملئ على حماد بن سلمة فلحن يوماً فرد عليه قوله فأنف من ذلك فلزم الخليل بن أحمد حتى برع في النحو ، توفي سنة ١٨٠ هـ وقيل غير ذلك . انظر تاريخ بغداد ١٩٥/١٢ ، والبداية والنهاية ١٧٦/١٠ .

(ج) هو يحيى بن زياد الديلمي ، إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب ، كان يقال له : أمير المؤمنين في النحو ، توفي سنة ٢٠٧ هـ انظر تاريخ بغداد ١٤٩/١٤ وتهذيب التهذيب ٢١٢/١١ .

والفاء والضاد واللام أصل واحد يدل على الزيادة حيث
(١)
تصرف ، ومنه الفضل والفضلة وهي البقية الزائدة من الشيء
وكذا منه الفضل والفضيلة وهي الزيادة في الرفعة والشرف ، ولذا
(٢)
قال الجوهري : " الفضل والفضلة : خلاف النقص والنقيصة " قال
(١)
أبو هلال العسكري : " الفضل : الزيادة " .
(٣)
قال الراغب : " الفضل : الزيادة على الاقتصار " قال : " وذلك ضربان :
محمود كفضل العلم والحلم ، ومذموم كفضل الغضب على ما يجب أن يكون
عليه " ٤

(١) انظر معجم مقاييس اللغة ٥٠٨/٤

(٢) الصحاح ١٧٩١/٥

(٣) الفروق في اللغة ١٨٩

(أ) هو الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، وصف بالعلم والفقه معاً
والغالب عليه الأدب والشعر توفي بعد سنة ٣٩٥ هـ انظر معجم الأدباء
٢٥٨/٨ ، والأعلام ١٩٦/٢ ، ومعجم المؤلفين ٢٤٠/٣

(ب) هو الحسين بن محمد ، المعروف بالراغب الأصفهاني ، أديب من الحكماء
العلماء واشتهر حتى كان يقترن بالغزالي وقد كان في عصره إذ توفي
سنة ٥٠٢ هـ

انظر الأعلام ٢٥٥/٢ ، ومعجم المؤلفين ٥٩/٤

قال : " والفضل في المحمود أكثر استعمالاً والفضول في المذموم " .^(١)

والفضيلة هي الدرجة الرفيعة في الفضل قال أبو هلال العسكري :^(٢)

" الفاضل هو الزائد على غيره في خصلة من خصال

الخير " قال : " يقال : فضل الشيء في نفسه ، إذا زاد ، وفضله

غيره إذا زاد عليه ، وفضله بالتشديد إذا أخبر بزيادته

على غيره " قال الجوهري : " فضله على غيره تفضيلاً لا أي^(٣)

حكم له بذلك أو صيره كذلك " . وفي تاج العروس : " فضله^(٤)

على غيره تفضيلاً : مزاء ، أي أثبت له ميزة أي خلة تميزه

على غيره " .^(٥)

والأفضل هو الأعلى درجة في الفضل والأوفر حظاً منه ، يقول

ابن حزم : " لو جاز أن يكون الأفضل أنقى درجة لبطل الفضل ولم

(١) المفردات ٣٨١ ، وانظر بصائر ذوي التمييز ١٩٦/٤ .

(٢) القاموس ٣١/٤ ، وبصائر ذوي التمييز ١٩٦/٤ .

(٣) الفروق في اللغة ١٨٩ .

(٤) الصحاح ١٢٩١/٥ .

(٥) تاج العروس ٦١/٨ .

(١)

يكن له معنى ولا رغب فيه راغب " . يقول العز بن عبد

(١)

(٢)

السلام : " لا معنى للتفضيل إلا التخصيص بالمناقب والمراتب " .

وعلى ما تقدم يعلم أن المفاضلة تدور على أركان أربعة هي :-

الفاضل ، والمفضل ، وسبب الفضل ووجهه ، والمفضل الحاكم بالفضل .

ثم أنت ترى مُدْرِكاً أن جماع الأمر في التفاضل والمفاضلة إنما

هو في مورد الفضل وسببه ووجهه فهو قطب رحي الأمر ، وهو

عند أهل اللغة كما رأيت خصال الخير جملة أو شرف النسب أو سيادة

القوم وتكون بأحدهما .

(١) المحلى ٤٤/١

(٢) بداية السؤل ص ٣٥ .

(١) هو عبدالعزيز بن عبدالسلام السلمى ، الملقب بسلطان العلماء ،

تولى التدريس والخطابة في دمشق ، ثم القضاء والخطابة

في مصر ، توفي سنة ٦٦٠ هـ .

انظر : طبقات الشافعية ٨٠/٥

ومفتاح السعادة ٢٠٩/١ و ٧٠٢ .

المسألة الثانية : الألفاظ المفاضلة :

الأصل في الألفاظ الدالة على المفاضلة ويحكم بها في التفضيل لفظ (أفضل) ثم ما يدل دلالة مما كان بمعناه دون وزنه أو كان بمعناه ووزنه ، أما ما كان بمعناه دون وزنه فنحو لفظ (خير) إذا قصد به التفضيل نحو قوله سبحانه : " ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم " - البقرة ٢٢١ - وقوله تعالى : " قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها " - البقرة ٢٦٣ - وأما ما كان بوزنه ومعناه فكل لفظ قصد به التفضيل وهو على وزن أفعل ، نحو لفظ (أهدى) في قوله سبحانه : " قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم " - الزخرف ٢٤ - .

والفارق بين لفظ (أفضل) وغيره مما كان بوزنه ومعناه - فيما يبدو - أن كلمة (أفضل) تدل على الحكم بالفضل إجمالاً من غير تحديد وجهه وسببه ، أما غيرها فيدل على الفضل في صفة الفعل المصاغ منه خاصة ، نحو : أجمل يدل على الفضل في الجمال خاصة ، فيكون فيه تحديد وجه الفضل .

واللفظ الدال على المفاضلة قد يلفظ مفردا كأحسن في قوله تعالى: " وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها " - النساء ٨٦ - ، وقد يلفظ مجموعا كحسان في قوله تعالى " فيهن خيران حسان " - الرحمن ٧٠ - وكأحسن في قوله - صلى الله عليه وسلم - " إن من أحبكم إلي وأقربكم مني منزلا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا " (١) ورواه أحمد بلفظ " محاسنكم " (٢) وقد يلفظ مونثا كالحسنى في قوله سبحانه " والله الأسماء الحسنى فادعوه بها " - الأعراف ١٨٠ - وورد تشنية هذا اللفظ في قوله سبحانه: " قل هل تترصون بنا إلا إحدى الحسنيين " - التوبة ٥٢ - كل ذلك في أحكام وقواعد لغوية مبسطة في كتب النحو. (٣)

وقد عقد النحاة في بيان قواعد اللفظة بابا سموه (أفعل التفضيل) ، وجعلوا هذا الاسم مصطلحا لكل اسم دل على زيادة سواء كانت زيادة في فضل كأفضل وأجمل ، أم زيادة في نقص كاقبح وأسوأ ، واشتروا أن استعمال العرب دال على أن أفعل التفضيل لا يماغ من فعله إلا بشروط ، ذكرها منها:

(١) أخرجه الترمذي ٣٢٥/٤

والطبراني في المعجم الصغير ٣٠٦

(٢) المسند ١٩٣/٤

(٣) انظر أوضح المسالك ٢٩٤/٢ - ٣٠٢ ، وشرح ابن عقيل ١٧٨/٣ - ١٨٢ وغيرهما .

أن يكون الفعل متصرفاً، وأن يكون معناه قابلاً للتفاضل
(١)، فلا يصاغ من الجامد ولامن الذي لايتفاوت البتة.

هذا ، ويورد أفعل التفضيل دالا على الفضل دون التفضيل،حيث
لايقصد به التفضيل،كقولك الله أكبر وأعلى وأجل، فإنه ليس
للتفضيل، إذ لم يكابر الله أحداً حتى يكون الله أكبر منه ،ولما
قال أبوسفياها يوم أحد " أعجل هبل " قال - صلى الله عليه
وسلم " قولوا : الله أعلى وأجل " (٢) وهبل لم يكن
قط عالياً ولاجيلاً . ومنه قول لوط عليه السلام فيما حكاها الله
عنه " هؤلاء بناتى هن أطهر لكم " هود ٧٨ . فإنه عليه
السلام لم يقصد التفضيل لأنه ليس فى إتيان الرجال طهارة
حتى يكون نكاح النساء أطهر منه . (٣)

والتفضيل بين شيئين إنما يكون فيما يشتركان فيه فيفضل
أوفرهما حظاً منه على الآخر.

(١) انظر أوضح المسالك ٢/٢٩٣ ثم ص ٢٨١ ، وكذا شرح ابن عقيـل

٣/ص ١٧٤ ثم ص ١٥٤ .

(٢) انظر صحيح البخارى مع الفتح ٦/١٦٣ .

(٣) انظر تفسير القرطبي ٩/٧٦ .

المسألة الثالثة : وجوه التفضيل وأسبابه :

التفضيل بين شيئين يبنى على معرفة الفضيلة ماهى ؟
ومن أولى بها منهما ؟ ، وذلك هو وجه التفضيل وسببه ، فماهى
وجه التفضيل ؟

يقول ابن حزم : " . الفضل ينقسم إلى قسمين لاثالث لهما : فضل
اختصاص من الله عز وجل بلاعمل ، وفضل مجازاة من الله تعالى
بعمل ، فأما فضل الاختصاص دون عمل فإنه يشترك فيه
جميع المخلوقين من الحيوان الناطق والحيوان غير الناطق
والجمادات والأعراض " ثم مثل لذلك بأمثلة منها : فضل
الملائكة فى ابتداء خلقهم على سائر الخلق وفضل
ناقة صالح على سائر النوق وفضل الحبر الأسود
على سائر الحجارة وفضل المساجد على سائر البقاع وفضل
شهر رمضان على سائر الشهور ، ثم قال : " فأما فضل
المجازاة بالعمل فلا يكون البتة إلا للحنى الناطق من الملائكة
والإنس والجن فقط " قال : " وهذا هو القسم الذى
تتنازع الناس فيه فى هذا الباب الذى نتكلم فيه الآن من أحق به " ^(١)

(١) يعنى : باب : " الكلام فى وجوه الفضل والمفاضلة بين الصحابة " .

قال : " فوجب أن ننظر أيضا في أقسام هذا القسم التي بها يستحق الفضل فيه والتقدم فنحصرها ونذكرها بحول الله وقوته ثم ننظر حينئذ من هو أحق به وأسد بالنسوق فيه فيكون بلا شك أفضل ممن هو أقل حظا فيها بلا شك وبالله تعالى التوفيق ، فنقول وبالله تعالى المستعان : إن العامل يفضل العامل في عمله بسبعة أوجه لثامن لها وهي : المائية وهي عين العمل وذاته ، والكمية وهي العرض في العمل ، والكيفية والكم ، والزمان ، والمكان ، والإضافة^(١) ثم شرع في بيان هذه السبعة فذكر أن المائية أن يؤدي أحدهما الفروض كلها والآخر يفيح بعضها أو أن يؤديها كلها إلا أن نوافل أحدهما أفضل من نوافل الآخر ، وأما الكمية وهي العرض : فإن يقدم أحدهما بعمله الله ويمزج الآخر من قصده شيئا آخر فيفضله الأول بعرضه في عمله ، وأما الكيفية فإن يوفى أحدهما عمله كله بسننه وفرائضه لا ينقص منها والآخر ربما نقص من السنن وإن لم يعطل الفرائض ، فيفضله الأول بكيفية العمل ، أما الكم فإن يستويا في الأداء الغرض ويزيد أحدهما

(١) الفصل ١١٢/٤ - ١١٥ .

بالنوافل فيفضله بكثرة عدد نوافله ، وأما الزمان
 فالعمل في صدر الإسلام يفضل العامل بعد قوة
 الإسلام كما قال تعالى " لا يستوى منكم من أنفق من قبل
 الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من
 بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى " - الحديد ١٠ - ، وأما المكان
 فكفضل الصلاة في المسجد الحرام على الصلاة في غيره ، وأما
 الإضافة فكركمة من نبي أو ركعة مع نبي أفضل من ركعة
 من غيره أو مع غيره ، ويقول الراغب في المفردات : " والفضل
 إذا استعمل لزيادة أحد الشيئين على الآخر فعلى ثلاثة أضرب :
 فضل من حيث الجنس كفضل جنس الحيوان على جنس النبات ،
 وفضل من حيث النوع كفضل الإنسان على غيره من الحيوان
 وعلى هذا النحو قوله : (ولقد كرّمنا بني آدم) إلى قوله
 (تفضيلاً) - الإسراء ٧٠ - ، وفضل من حيث الذات كفضل رجل
 على آخر ، فالأولان جوهريان لاسبيل للناقص فيهما أن يزيل
 نقصه وأن يستفيد الفضل ، كالفرس والحصان لا يمكنهما أن
 يكتسبا الفضيلة التي خص بها الإنسان ، والفضل الثالث قد
 يكون عرضياً فيوجد السبيل على اكتسابه ومن هذا النوع
 التفضيل المذكور في قوله : (والله فضل بعضكم على بعض في الرزق) - النحل ٧١ -
 (١)

(١)

وسرد القرافي في الفروق وجوه التفضيل

حتى بلغ عشرين قاعدة مثل لكل منها ثم قال بعد ذلك :

(١)

" وأسباب الفضل كثيرة لا أقدر على إحصائها خشية الإسهاب "

وحاصل القول في هذه المسألة - والله أعلم - أن وجوه

التفاضل وأسبابه كثيرة لا حصر لها ، ذلك لأن وجوه الفضل التي

بها يكون التفاضل كثيرة لا حصر لها ، ولذلك يخطئ من

يحصر أسباب التفضيل في أمور محدودة لا تخرج عنها كما

هو مذهب الفلاسفة ومن تابعهم من المتكلمين حين حصروا أسباب

التفاضل في أربعة مواطن : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة

(٢)

والعدالة .

ولعلنا إن سلطنا طريق التقسيم والتأسيس أن نأتى

على جماع هذه الأسباب وأصولها التي تجمعها فلا يخرج

شيء منها عن أن يرجع إلى أحدها ، والتفاضل يقع في

أشياء فتفاضل فيما بينها ، ويقع بأشياء فيتفاضل بها ،

(١) الفروق ٢١١/٢ - ٢٣٢ .

(٢) انظر قانون التأويل ٤٨٢ ومقدمة محققه ص ٢٧٤ - ٢٨٣ .

(١) هو أحمد ابن إدريس بن عبد الرحمن ، أبو العباس ، شهاب الدين الصنهاجى ،

والقرافى نسبة إلى مقبرة بمصر ، من علماء المالكية ، مصرى المولد

والنشأة والوفاة ، له تصانيف فى الفقه والأصول والنحو وغيرهم

ت ٦٨٤ هـ - انظر ترجمته فى : كشف الظنون ١١٥٣/١١ ، هدية العارفين ١/٩٩ .

فهاتان مسألتان : مايقع فيه التفاضل ،ومايقع به التفاضل .

أما مايقع فيه التفاضل : فإنه يقع فيما فيه حياة ونفس
ملا حياة فيه ، فالأول كالتفاضل بين البشر و — بين
الملائكة،
والثاني كالتفاضل بين الأمكنة
والأزمنة .

(١)
ثم هو يقع في الذوات وفي الأعراض ، في الذوات كفضل
ذات آدم على غيره فيما فيه حياة - ، وفضل العرش على
غيره - فيما لا حياة فيه - ، وأما الأعراض فيقع التفاضل في
الصفات كفضل الحلم على الغضب - في الإنسان - وفيما يقع في
الأمكنة والأزمنة من الأعمال كالمسجد أفضل من غيره .

وأما مايقع به التفاضل فإنه يقع بما لا سبيل إلى
اكتسابه ، وبما يكتسب ، أما الأول فكفضل ذات آدم عليه السلام
فإنه فضل بما لا يكتسب ، فذاته قد خلقها الله بيده ونفخ فيها
من روحه كما في حديث احتجاج آدم وموسى المتفق عليه من
أبى هريرة رضي الله عنه ، وفيه قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : " قال موسى : أنت آدم خلقتك الله بيده
ونفخ فيك من روحه " (٢) وكذا في حديث الشفاعة الطويل المتفق

(١) العرض : هو ما يحتاج في وجوده إلى محل يقوم فيه كاللون المحتاج في
وجوده إلى جسم يحلّه ، انظر التعريفات للرجاني ص ١٤٨ .
(٢) صحيح البخاري مع الفتح ٥٠٥/١١ ، ٤٧٧/١٣ ، وصحيح مسلم ٢٠٤٣/٤

عليه عن أنس رضي الله عنه - وفيه أن الناس يأتون
 آدم فيقولون " أنت آدم أبو الخلق ، خلقك الله بيده . ونفخ فيك
 من روحه " (١) وكذلك خلقه الله على صورته كما في الحديث
 المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول
 الله - صلى الله عليه وسلم - " خلق الله عز وجل آدم على
 صورته " وفي حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
 " فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن " (٢) وهذه الفضائل ليست
 مما يكتسب ، وكفضل العرش على غيره فإن الله استوى عليه
 كما ورد ذلك في سبع مواضع من القرآن وهو تحمله الملائكة
 وتحف به كما قال سبحانه : " الذين يحملون العرش ومن حوله
 يسبحون بحمد ربهم " - غافر ٧ - .

وأما التفاضل بما يكتسب فهذا خاص بمن يكسب من الأحياء
 دون مالا حياة فيه ، أو فيه حياة ولا كسب له كالملائكة
 ومثال ما يكتسب الفنى فإنه فضل يكتسبه العبد كما قال سبحانه
 في الآية المتقدم ذكرها قريبا " والله فضل بعضكم على بعض

-
- (١) صحيح البخارى مع الفتح ٣٧١/٦ ، وصحيح مسلم ١/١٨٠ .
 (٢) صحيح البخارى مع الفتح ٤/١١ ، وصحيح مسلم ٤/٢١٨٣ وانظر ٢٠١٧ .
 (٣) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة ٢٦٨/١ ، والدارقطنى فى
 الصفات ٣٦ ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ٣٧١ .
 (٤) فى الأعراض ٥٤ ، ويونس ٣ ، والرعد ٢ ، وطه ٥ ، والفرقان ٥٩ ، والسجدة
 ٤ ، والحديد ٤ .

فى الرزق .

والجميع عطاء الله وبه يسده . ولذلك أسند التفضيل فى الرزق
إليه سبحانه مع أن العبد إنما يبلغه بالسعى والتكسب ، وقال
سبحانه : " قل إن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء " آل عمران
- ٧٣ - ، وقال : " وإن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر
الناس لا يشكرون " - غافر ٦١ - .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَقَدْ أَخَذَ الْخَالِدُ - جَمِلَ وَجَلَدُ -
وَقَدْ أَخَذَ الْخَالِدُ - جَمِلَ وَجَلَدُ -

الفصل الأول

في بيان الخصال والصفات

الباب الأول :

الفصل الأول : فضل الخالق سبحانه :

فضل الخالق سبحانه أمر لا يدرك ولا يحاط به ، قال سبحانه :
" يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما " - طه ١١٠ -
وهو سبحانه كما أخبر عن نفسه وكما أخبر عنه رسوله صلى
الله عليه وسلم - ، لانحصى ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه ،
الخالق المالك (يدبر أمر الممالك ويأمر وينهى ويخلق
ويرزق ويميت ويحيى ويقضى وينفذ ويعز ويذل ويقلب
الليل والنهار ويداول الأيام بين الناس ويقلب الدول ، فيذهب
ويأتى بأخرى ، والرسول من الملائكة عليهم الصلاة والسلام بين
صاعد إليه بالأمر ونازل من عنده به ، وأوامره ومراسيمه
متعاقبة على تعاقب الأوقات ، نافذة بحسب إرادته
ومشيئته فما شاء كان كما شاء فى الوقت الذى يشاء من غير
زيادة ولانقصان ولاتقدم ولاتأخر وأمره وسلطانه نافذ فى
السموات وأقطارها وفى الأرض وما عليها وما تحتها وفى البحار
والجو وفى سائر أجزاء العالم وذراته يقلبها ويمصرها ويحدث
فيها ما يشاء ، وقد أحاط بكل شئ علما وأحصى كل شئ
عددا ووسع كل شئ رحمة وحكمة ، ووسع سمعه الأصوات
فلا تختلف عليه ولا تشبه عليه ، بل يسمع ضجيجها باختلاف

لغاتهما على تفنن حاجتهما فلا يشغله سمع عن سمع ،
ولاتغلطه كثرة المسائل ،ولا يتبرم بالحاح الملحّين ذوى
الحاجات ،وأحاط بصره بجميع المرثيات فيرى دبيب النملسة
السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ،فالغيب عنده
شهادة ،والسر عنده علانية ،يعلم السر وأخفى من السر
،فالسر ما انطوى عليه ضمير العبد وخطر بقلبه ولم
تتحرك به شفتاه ،وأخفى منه ما لم يخطر بقلبه بعد ،
فيعلم أنه سيخطر بقلبه كذا وكذا فى وقت كذا وكذا
له الخلق والأمر ،وله الملك وله الحمد ،وله الدنيــــــــــــــــا
والآخرة ،ولة النعمة ،وله الفغل ،وله الثناء الحسن ،
،وله الملك كله ،وله الحمد كله ،وبيده الخير
كله ،وإليه يرجع الأمر كله ،شملت قدرته كل شىء ووسعت
رحمته كل شىء ،ووسعت نعمته إلى كل حى (يسأله من
فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن) - الرحمن ٢٩ -
يفغر ذنبا ويفرج همما ويكشف كربا ويجبر كسيرا ويفنى
فقيرا ويعلم جاهلا ويهدى ضالا ويرشد حيرانا ،ويغيث
لهفانا ،ويفك غانيانا ويشبع جائعا ،ويكسو عاريانا ،
ويشفى مريضا ،ويعانق مبتلى ،ويقبّل تائبنا ،ويجزى محسنا

وينصر مظلوما ،ويقسم جبارا ،ويقبل عشرة
،ويستر عورة ،ويؤمن روعة ،ويرفع أقواما ،ويضع
آخرين ،لاينام ولاينبغى له أن ينام ،يخفف القسط ويرفعه
،يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ،وعمل النهار قبل
الليل ،حجابـه النور لوكشفه لأحرقت سحبات وجهه
ما انتهى إليه بصره من خلقه ،يمينه ملأى ،لاتغيـفها
نفقة سحاء الليل والنهار ، أرايتم ما أنفق من ذلـق
الخلق فإنه لم يغض ما فى يمينه ، قلوب العباد ونواصيهم
بيده ،وأزمة الأمور معقودة بقضائه وقدره ، الأرض جميعا
قبضته يوم القيامة ،والسـموات مطويات بيمينه ، يقبـض
سمواته كلها بيده الكريمة والأرض باليد الأخرى ثم
يهزهن ثم يقول : أنا الملك ،أنا الملك ،أنا الذى بدأت
الدنيا ولم تكن شيئا ،وأنا الذى أميتها كما بدأتها ،
لايتعظمه ذنب أن يغفره ولا حاجة يسألها أن يعطيها ،لو أن
أهل سمواته وأهل أرضه وأول خلقه وآخرهم وإنسهم وجنهم
كانوا على اتقى قلب رجل منهم ما زاد ذلك فى ملكه شيئا
،ولو أن أول خلقه وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أفجر
قلب رجل منهم ما نقص ذلك من ملكه شيئا ،ولو أن أهل سمواته

وأهل أرضه وإنسهم وجنهم وحيهم وميتهم ورطبهم
ويابسهم قاموا في صعيد واحد فسألوه فأعطى كلا منهم
مأسأله ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة ، ولو أن أشجار
الأرض كلها - من حين وجدت إلى أن تنقضى الدنيا - أقلام
والبحر وراءه سبعة أبحر تمده من بعده مداد ، فكتب
بتلك الأقلام وذلك المداد لفنيت الأقلام ونفد المداد ولم
تنفد كلمات الخالق تبارك وتعالى ، وكيف تغنى كلماته جل جلاله
وهي لا بداية لها ولا نهاية ، والمخلوق له بداية ونهاية فهو
أحق بالفناء والنفاد ؟ وكيف يُغنى المخلوق غير المخلوق؟
هو الأول الذى ليس قبله شيء ، والآخر الذى ليس بعده شيء
والظاهر الذى ليس فوقه شيء ، والباطن الذى ليس دونه شيء
تبارك وتعالى ، أحق من ذكر ، وأحق من عبد ، وأحق من حمد
وأولى من شكر وأنصر من ابتغى وأراف من ملك وأجود من سأل
، وأعفى من قدر ، وأكرم من قصد وأعدل من انتقم ، حكمه
بعد علمه ، وعفوه بعد قدرته ، ومغفرته عن عزته ، ومنعه
عن حكيمته وموالاته عن إحسانه ورحمته ،

مال لعباده عليه حق واجب ، ولا ولاسى لديه فاضح
إن عذبوا فبعدله ، وأنعموا ، فبفضله وهو الكريم الواسع

هو الملك الذى لاشريك له ، والفرد فلا ند له ، والغنى
فلا ظهير له ، والصمد فلا ولد له ، ولصاحبة له ، والعلى
فلا شبه له ، ولا سمي له ، كل شئ هالك إلا وجهه ، وكل ملك
رائل إلا ملكه ، وكل ظل قاص إلا ظله ، وكل فضل منقطع
إلا فضله ، لن يطاع إلا بإذنه ورحمته ، ولن يعصى
إلا بعلمه وحكمته يطاع فيشكر ويعصى فيتجاوز ويغفر ، كل نعمة
منه عدل ، وكل نعمة منه فضل ، أقرب شهيد وأدنى حفيظ ، حال
دون النفوس وأخذ بالنوامى وسجل الآثار وكتب الأجل ، فالقلوب
له مفضية والسر عنده علانية ، والغيب عنده شهادة ، عطاؤه كلام
وعذابه كلام "إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن
(١)
فيكون" (يس ٨٢-) ووراء هذا ما لا يخطر ببال ولا تناله عبارة
لفضله سبحانه لأبدية له ولانهاية لانحصى ثناء عليه
هو كما أثنى على نفسه ، أهل الثناء والمجد ولو أن مافى
الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما أتت
على بيان فضله سبحانه ولن تأتى ، وكيف يكون لها أن تأتى
عليه ومامن فضيلة فى الوجود لشئ من المخلوقات إلا وهو
سبحانه وأهبتها .

(١) مابين القوسين بنصه من الوابل الصيب لابن القيم ص ١٢٤ - ١٢٨ .

فهذا وجه من أوجه لاحصر لها دالة على فضله
 سبحانه على خلقه وهو أن كل فضيلة لشئ من
 المخلوقات الله واهبها وهو المتفضل بها على خلقه
 فهو مالك الفضل وواهبه ، قال سبحانه " قل إن الفضل
 بيد الله يؤتيه من يشاء " - آل عمران ٧٣ - وقال سبحانه :
 " ويوت كل ذي فضل فضله " - هود ٣ - .

ومن أوجه فضله سبحانه على خلقه أن فضل الله
 عز وجل كامل تام لانقص فيه ولا عيب فله صفات الكمالات
 أما فضائل خلقه فهي غير منفكة عن أضعافها ، فعلمهم بعد
 جهل ومشوب بالجهل ، وقدرتهم بعد ضعف ومشوبة بالضعف
 وملكهم بعد فقر وصائر الى زوال ، وحياتهم بعد عدم
 (١)
 والى موت ، يقول ابن القيم : " ومن تأمل خلق الأعداد في هذا
 العالم ومقاومة بعضها لبعض ودفع بعضها ببعض وتسلط بعضها
 على بعض ، تبين له كمال قدرة الرب تعالى وحكمته وإتقانه
 ما صنع وتفرد بالربوبية والوحدانية والقهر وأن كل ماسوا
 فله ما يفاده ويمانه كما أنه الغني بذاته وكل ماسوا
 محتاج بذاته " . (٢)

(١) انظر عجائب القرآن ص ١١٢ - ١١٣ .

(٢) زاد المعاد ١٥/٤ .

والله عز وجل لا يشاركه في فضله شيء (ليس كمثله شيء
وهو السميع البصير) - الشورى ١١ - فليس ثمة شيء يفاضل
الله فيكون الله أفضل منه ، بل له سبحانه الفضل المطلق
وهو كما وصف نفسه ذو الفضل العظيم ، وفضله سبحانه فضل
ذات وفضل أسماء وفضل صفات ، فذاته أفضل الذوات وأجلها
وأكملها وأعلاها ، وأسماءه أفضل الأسماء وأجلها وأكملها
وأعلاها ولذلك كانت أسمائه حسنى كما قال سبحانه : " والله
الأسماء الحسنى فادعوه بها " - الأعراف ١٨٠ - وقال : " الله
لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى " - طه ٨ - ، ومعنى الحسنى ،
(١)
المفضلة على الحسنة الدالة على أحسن الأسماء وأكملها
وأتمها المستوفية لصفات الكمال لا يلحقها عيب ولا نقص ، قال
ابن القيم : " أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات الكمال "
قال : " فهي أسماء وهي أوصاف ، وبذلك كانت حسنى ، إذ لو
كانت ألفاظا لا معانى فيها لم تكن حسنى ولا كانت دالة على
(٢)
مدح ولا كمال . "

ويقول رحمه الله : " وصفاته (سبحانه وتعالى) كلها صفات
كمال محض فهو موصوف من الصفات بأكملها وله من الكمال أكمله .

(١) الفتاوى ١٤١/٦ وانظر أحكام القرآن لابن العربي ٨٠١/٢ - ٨٠٢

(٢) مدارج السالكين ٢٨/١ .

وهكذا أسماء الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها
فليس في الأسماء أحسن منها ولا يقوم غيرها مقامها ولا يؤدي
معناها ، وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيراً بمرادف
مخض بل هو على سبيل التقريب والتفهيم ، إذا عرفت هذا فله
من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمل وأتمه معنى
وأبعده وأنزهه عن شائبة عيب أو نقص . فله من صفة
الادراكات العليم الخبير دون العاقل الفقيه والسميع البصير
دون السامع والباصر والناظر ، ومن صفات الإحسان البر الرحيم
الودود دون الرفيق والشفوق ونحوهما ، وكذلك العلي العظيم
دون الرفيع الشريف ، وكذلك الكريم دون السخي ، والخالق الباري
المصور دون الفاعل المانع المشكل ، والغفور العفو دون المفووح
الساتر ، وكذلك سائر أسمائه تعالى يجري على نفسه منها
أكملها وأحسنها وما لا يقوم غيره مقامه ، فتأمل ذلك فأسماؤه
أحسن الأسماء كما أن صفاته أكمل الصفات فلا تعدل عما
سمى به نفسه إلى غيره كما لا تتجاوز ما وصف به نفسه
(١)
ووصف به رسوله إلى ما وصف به المبطلون والمعتلون .

وصفاته سبحانه أعلى الصفات وأتمها وأجلها وأكملها

(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) ، " لا تدركه الأبصار وهو

(١) بدائع الفوائد ١/١٦٨ .

يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير " - الأنعام ١٠٣ - "يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما " - طه ١١٠ - ، "قل هو الله أحد ، الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد " ، وفضله سبحانه على خلقه لا يدرك ولا يحاط به ، ولا يعلمه حق علمه إلا هو سبحانه ليس أعلم بالله من الله " أنتم أعلم أم الله " - البقرة ١٤٠ - .

ولما كانت صفاته سبحانه أفضل الصفات لا يشابهه فيها شيء ولا يشابه بها شيء ، كانت مجهولة الكيف لا يعلم كيفياتها وحقائقها إلا هو سبحانه ، لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب ، كيف تعلم كيفيات صفاته وهو سبحانه غيب لا يرى في الدنيا ، ثم حتى إذا رآه المؤمنون في الآخرة لا يدركونه ولا تحيط أبصارهم بكيفيات صفاته " لا تدركه الأبصار " فله الصفات العلى على الصفة اللائقة بجلاله وعظمته وألوهيته التى لا يدركها خلقه ، ومما لم يقع فيه جدل ولم يختلف فيه شخصان ولم يجانبه مذهب ولا ملّة أن الخالق له أتم الصفات وأكملها وأعلاها ، قال ابن تيمية رحمه الله فى كلامه : " بل ولا زعم أحد من الناس أن العالم له صانعان متكافئان فى الصفات

والأفعال ، بل ولا أثبت أحد من بنى آدم ، إلهًا مساويًا لله
في جميع الصفات ، بل عامة المشركين بالله مقرون بأنه ليس
شريكة مثله ، بل عامتهم يقرون أن الشريك مملوك له سواء
كان ملكًا أو نبيا أو كوكبا أو صنما " إلى أن قال : " وقد ذكر
أرباب المقالات ما جمعوا من مقالات الأولين والآخرين في الملل
والنحل والآراء والديانات ، فلم ينقلوا عن أحد إثبات شريك
مشارك له في خلق جميع المخلوقات ، ولا مماثل له في جميع
الصفات بل من أعظم ما نقلوا في ذلك قول الثنوية الذين
يقولون بالأصلين " النور " و " الظلمة " ، وأن النور خلق الخير
والظلمة خلقت الشر ، ثم ذكروا لهم في الظلمة قولين : أحدهما :
أنها محدثة فتكون من جملة المخلوقات له .

والثاني : أنها قديمة لكنها لم تفعل إلا الشر ، فكانت ناقصة
في ذاتها وصفاتها ومفعولاتها عن النور " (١) ولما كان ذلك
متقدرا في معلوم الخلق مركوزا في فطرهم احتجت به الرسائل
- صلوات الله وسلامه عليهم - على إمامهم في تسفيه جنوحهم إلى
أن يساووا مع الله في العبادة من لا يساويه في الصفات
وعلى الزامهم بأنه مادام ليس لله ند في صفاته فيجب

(١) الرسالة التدمرية ١١٥ - ١١٦ .

ألا يتخذوا له ندا في العبادة) ومن ذلك ما حكاه
 الله في كتابه من قول إبراهيم لأبيه : " إذ قال لأبيه
 يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا " - مريم
 ٤٢ - فبيّن أن العباد لمفات الكمال ناقص لا يمكن أن يكون
 معبودا وبيّن أن العلم بذلك فطري . والله سبحانه لا يساويه
 شيء حاشاه ، ولا يشابهه شيء ولا يشبهه هوشيا تعالى وتبارك
 ، فلو أن شيئا أشبه سبحانه لكان مثله إلهها ولتعددت
 الآلهة وقد قال عز وجل : " لو كان فيهما آلهة إلا الله
 لفسدنا " - الأنبياء ٢٢ - ، ولو أنه سبحانه أشبه شيئا لكان
 مثله محدثا مخلوقا واحتاج إلى خالق - سبحانه وتعالى -
 وللزم التسلسل ، ولقد بين سبحانه أحديته ونفسي المثل عنه
 بأبلغ ما يكون البيان وأوفاه وأتمه وذلك في سورة الإخلاص
 التي هي نسب الرحمن وقد ورد في سبب نزولها أن المشركين قالوا
 للنبي - صلى الله عليه وسلم - انسب لنا ربك ، فأنزل الله " قل
 هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل ١٠/١٥٥ .

(١)

له كفوا أحد " ، ومامن شيئين متشابهين فى الوجود
إلا وكان سبب تشابههما راجع الى أحد ثلاثة أمور لا يخرج
السبب فى تشابههما أن يكون واحدا منها لا غير : ،

الأول : أن يكون أحدهما أصلا للآخر ولذا أشبه الأب ابنه .

الثانى : أن يكون أحدهما فرعا عن الآخر ولذا أشبه الابن أباه .

الثالث : أن يكونا متناظرين ولذا تشابه سائر الخلق .

ومن لم يجمعه مع غيره سبب من هذه الأسباب كان أحداً لا يشبهه
شئ ولا يشبهه شيئاً وذلك هو الله عز وجل فقوله سبحانه
" لم يلد " نفى للسبب الأول فليس هو سبحانه أصلاً لشئ حتى
يشبهه ، وقوله " ولم يولد " نفى للسبب الثانى فليس هو
سبحانه فرعاً عن شئ حتى يشبهه ، وقوله " ولم يكن له
كفوا أحد " نفى للسبب الثالث فليس هو سبحانه نظيراً لشئ
حتى يشبهه . (٢) ولذا كان الأحد سبحانه ، قل هو الله أحد " .

(١) الحديث فى المسند ١٣٤/٥ ، وسنن الترمذى - مع التحفة - ٢٩٩/٩ ،
ومستدرک الحاكم ٥٤٠/٢ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه
، وأقره الذهبى ، والبيهقى فى الأسماء والمفاتيح ٥٠ وانظر
تفسير ابن كثير ٣٦٦/٤ ، ومجمع الزوائد ١٤٦/٧ ، والدر المنثور ٤٠٩/٦ -

ومن لا كفو له لا يفاضله شيء فضلا عن أن يفضله، ولذا
كان كل ماورد في بيان فضل الله بأفعل التفضيل دالا على
الفضل المطلق لا المفاضلة، ولذا لما قال أبو سفيان يوم أحد: "اعل
هبل" قال - صلى الله عليه وسلم - قولوا : الله أعلى وأجل"
(١)
ولم يكن هبل قط عاليا أو جليلا ونقول (الله أكبر) ولم يكابر
الله أحد حتى يكون الله أكبر منه ، ومن ذلك قوله سبحانه :
" أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة " السجدة
١٥ - وقوله : " قل أى شيء أكبر شهادة قل الله - الأنعام
١٩ - ومن ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم - " الله أشد فرحا
بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أفلته فـ" أرضي
(٢)
فلاة " وقوله - صلى الله عليه وسلم - " الله أرحم
(٣)
بعباده من هذه بولدها " في المرأة التي سأل أصحابه عنها
" أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟ " (

-
- (١) الحديث في صحيح البخارى مع الفتح ١٦٣/٦ وقد تقدم .
(٢) الحديث في صحيح البخارى - مع الفتح - ١٠٢/١١ ، وصحيح مسلم ٤/٢١٠٥ .
(٣) الحديث في صحيح البخارى - مع الفتح - ٤٢٦/١٠ ، وصحيح مسلم ٤/٢١٠٩

قالوا : لا . والله . ، وقوله - صلى الله عليه وسلم - : " ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، يدعون له الولد ثم يعافيههم ويرزقهم " ^(١) وقوله - صلى الله عليه وسلم - : " لا أحد أغبر من الله ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا شيء أحب إليه المدح من الله ولذلك مدح نفسه " ^(٢) وقوله - صلى الله عليه وسلم - : " ليس أحد أحب إليه العذر من الله " ^(٣) ونحو ذلك كثير ، ويوضح ذلك غاية الإيضاح قوله سبحانه : " فتبارك الله أحسن الخالقين " - المؤمنون ١٤ - مع قوله : " هل من خالق غير الله " - فاطر ٣ - ، كل هذا في بيان فضله سبحانه لا من باب المفاضلة ، إذ لم يفاضل الله أحد حتى يفضله سبحانه ، وإنما يتوصل لبيان فضله سبحانه بما يكون أومى للسامع وأمكن ، وأسهل وأبين ، ولذا لما كانت حاجة الخلق إلى معرفة ربهم وعظيم فضله أعظم الحاجات وضرورة الخلق

(١) الحديث في صحيح البخارى - مع الفتح - ٥١١/١٠ ، و ٣٦٠/١٣ ، وصحيح مسلم ٢١٦٠/٤

(٢) الحديث في صحيح البخارى - مع الفتح - ٢٩٦/٨ ، وصحيح مسلم ٢١١٤/٤

(٣) الحديث في صحيح البخارى - مع الفتح - ٣٩٩/١٣ ، وصحيح مسلم ٢١١٤/٤

الى ذلك فوق كل ضرورة كانت العناية ببيانها أيسر الطرق وأهداها وأبينها ولذلك كان اشتمال القرآن بكل والكتب الإلهية كلها على ذكر أسماء الله وصفاتها وبيان فضله سبحانه أكثر من اشتمالها على ما عداه، لشرف متعلقها وعظمته وشدة الحاجة إليها، فكانت الطرق إلى تحصيل معرفة ذلك أكثر وأسهل وأبين، وهذا من كمال حكمة الرب سبحانه وتعالى نعمته وإحسانه أنه كلما كانت حاجة العباد إلى الشيء أقوى وأتم كان بذله لهم أكثر وطرق وصولهم إليه أكثر وأسهل، وأنت ترى أنه لما كانت حاجة الخلق في الحياة إلى الهواء أكثر من حاجتهم إلى الماء والقوت كان بذله لهم أكثر وأيسر من الماء والقوت (١) ومن أجل ذلك عبر سبحانه وتعالى عن أسمائه وصفاته بالأسماء المعلومة معانيها في الشاهد لأن الإخبار عن الغائب لا يفهم إن لم يعبر عنه بالأسماء المعلومة معانيها في الشاهد، ويعلم بها ما في الغائب بواسطة العلم بما في الشاهد مع العلم بالفارق المميز، وأن ما أخبر الله به من الغيب أعظم مما يعلم في الشاهد (٢).

(١) انظر الصواعق المرسله ٣٦٥/١ - ٣٦٦، أو مختصر الصواعق المرسله

٠٦١/١

(٢) الرسالة التدمرية ص ٦١.

ولما كان اتفاق الشيثين في اسم عام لا يقتضي تماثلهما في مسمى ذلك الاسم عند إضافته وتخصيصه وتقييده ولا في غيره فلا يعنى مثلا اتفاق لبن الجنة ولبن الدنيا في اسم اللبن تماثلهما في المسمى عند إضافة هذا الاسم إليهما وتخصيصه بكل واحد منهما ، إذ مامن شيئين إلا وبينهما قدر مشترك وقد رميز ولا يلزم من اتفاقهما في القدر المشترك تماثلهما في القدر المميز إذ اتفاقهما إنما هو في القدر المشترك فقط والقدر المشترك إنما يكون عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة والتخصيص فإذا وقعت الإضافة والتخصيص ظهر التميز لما كان ذلك كذلك سمى الله نفسه بأسماء وسمى صفاته بأسماء توافق أسماء بعض المخلوقين في الإطلاق فسمى نفسه حيا فقال : (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) - البقرة ٢٥٥ - وسمى بعض عباده حيا ، فقال (يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي) - الروم ١٩ - وليس الحي كالحي ، وسمى نفسه سبحانه عليما فقال : (إن الله واسع عليم) - البقرة ١١٥ - وسمى بعض عباده عليما فقال : (وبشروه بسلام عليم) - الذاريات ٢٧ - ، وليس العليم كالعليم ، وسمى نفسه حلوما فقال : (والله عليم حلوم) - النساء ١٢ - وسمى بعض عباده حلوما فقال : (إن إبراهيم لأواه حلوم) - التوبة ١١٤ - وليس الحلوم كالحلوم ، وسمى نفسه حفيظا فقال : (والذين اتخذوا من دونه أولياء ، الله حفيظ عليهم) -

الشورى ٦ - ٥ - وسمى بعض عباده. حفيظا فقال : (هذا ماتوعدون لكل أبواب حفيظ) - ق - ٣٢ - ٥ - وحكى قول يوسف عليه السلام : (انى حفيظ عليم) - يوسف ٥٥ وليس الحفيظ كالحفيظ ، وسمى نفسه سميعا بصيرا فقال : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) - الشورى ١١ - وسمى الإنسان سميعا بصيرا فقال : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا) - الانسان ٢ - وليس السميع كالسميع ولا البصير كالبصير ، وسمى نفسه بالرؤوف الرحيم فقال : (إِنْ أَلِهَ بِالنَّاسِ لِرُؤُوفٍ رَحِيمٍ - البقرة ١٤٣) وسمى بعض عباده رؤوفا رحيفا فقال : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) - التوبة ١٢٨ - وليس الرؤوف كالرؤوف ولا الرحيم كالرحيم ، وسمى نفسه بالملك فقال : (الملك القدوس) - الحشر ٢٣ - وسمى بعض عباده بالملك فقال : (وقال الملك اشتوني به) - يوسف ٥٠ ، ٥٤ - ، وليس الملك كالملك ، وسمى نفسه العزيز فقال : (العزيز الجبار المتكبر) - الحشر ٢٣ - وسمى بعض عباده بالعزيز فقال : (وقالت امرأة العزيز) - يوسف ٥١ - وليس العزيز كالعزيز وليس الجبار كالجبار ولا المتكبر كالمتكبر ، وسمى نفسه بالعظيم فقال : " ولأيووده حفظهما وهو العلي العظيم " - البقرة ٢٥٥ - وسمى بعض مخلوقاته بالعظيم فقال " وهو رب العرش العظيم " - التوبة ١٢٩ - ٥ - وسمى نفسه شكورا

فقال : " إن الله غفور شكور " - الشورى ٢٣ - وسمى بعض خلقه شكورا فقال فى نوح : " إنه كان عبدا شكورا " - الاسراء ٢ - وليس الشكور كالشكور ونحو ذلك كثير ، وكذا فى الصفات سَمى الله صفاته بأسماء وسمى صفات عباده بنظير تلك الأسماء ، فوصف نفسه بالمشيئة ووصف عبده بالمشيئة فقال : " لمن شاء منكم أن يستقيم وماتشاورون إلا أن يشاء الله رب العالمين " - التكويد ٢٨ ، ٢٩ - وليست المشيئة كالمشيئة ووصف نفسه بالإرادة ووصف عبده بها فقال : " تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم " - الأنفال ٦٧ - وليست الإرادة كالإرادة ، ووصف نفسه بالمحبة ووصف عبده بالمحبة فقال : " فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه " - المائدة ٥٤ - وليست المحبة كالمحبة ، ووصف نفسه بالرضا ووصف عبده بالرضا فقال : " رضى الله عنهم ورضوا عنه " - المائدة ١١٩ - وليس الرضا كالرضا ونحو ذلك كثير .^(١)

فإذا وقع بين أسماء الله وأسماء العباد وأسماء صفات الله وأسماء صفات العباد تشابه فإن ذلك لا يقتضى أن يكون لأجله الخالق مثل المخلوق ، بل إنه لما كان الله أفضل من خلقه كان كل كمال اتصف به المخلوق وأمكن أن يتصف به

(١) انظر لمزيد من الأمثلة - الرسالة التدمرية ص ١٤ - ٢٠ .

الخالق فالخالق أولى بالانتماء به فالخالق أولى أن يكون

سميعا بصيرا من المخلوق وهكذا .

مبحث في بعض ما وقع من الضلال في هذا الباب :

لقد ذهب أقوام من المنتسبين إلى الاسلام في هذا الباب - باب فضل الله على خلقه - إلى مذاهب مريضة أو لازمه انفسى فضل الله على خلقه ، فمنهم من قصد ذلك ورمى إليه وصرح به وهم غلاة الصوفية الاتحادية أهل وحدة الوجود ، ومنهم من وقع فيه بنية تفضيل الله على خلقه - كما يزعم - فانعكس عليه الأمر حتى جعل الخلق أفضل من الخالق كالجهمية والمعتزلة ومن نحى نحوهم ، ممن قدم في الحجة العقل على النقل والقوانين الفلسفية والقواعد المنطقية على الآيات والأحاديث .

ضلال الاتحادية أهل وحدة الوجود :

وبيان هذا أن نقول : فضل الله على خلقه فضل ذات وفضل أسماء وفضل صفات ، وقد ضل أهل وحدة الوجود في فضل ذاته سبحانه فنفسوا أن يكون لله فضل على خلقه ، لأنهم نفوا الفرق بين الله وخلقهم ، فالخالق عندهم لا يتميز عن المخلوق لأنه ليس ثمة خالق ولا مخلوق ولا فاعل ولا مفعول ، إذ الكون كله وحدة واحدة ، فلا يوجد إلا الله ، والمخلوقات هي عين الخالق ليست شيئاً غيره ، فالعبد رب والرب عبد ، إذ ليس في الوجود رب وعبد ولا مالك ومملوك ولا راحم ومرحوم ولا هاد ومهدى ولا منعم ومنعم

عليه ، بل الرب هو عين العبد ، والمالك هو عين المملوك
والراحم هو عين المرحوم ، والتغايير فى الصور هو من تجليات
الذات ، فالصور مظاهر للذات إذ تظهر تارة فى صورة معبودكم
ظهرت فى صورة فرعون وهبل ونحوه من المعبودات ، وتظهر
تارة فى صور العبيد ، وتظهر تارة فى صورة هاد كالأنبياء
والرسل والعلماء ، وتظهر فى صورة المهدي كأتباع الرسل وهكذا .

(١)
يقول ابن عربى مبينا عقيدته فى الله - تعالى عما يقول الظالمون
علوا كبيرا - :- " فهو السارى فى معنى المخلوقات والمبتدئات

(١) هو من أرواس الاتحادية أهل وحدة الوجود ، محي الدين ابن
عربى ، محمد بن على بن محمد الحاتمى يعرف فى الصوفية
بـ " الشيخ الأكبر " ولد بمرسية فى الأندلس سنة ٥٦٠ هـ وارتحل
الى المشرق سنة ٥٩٨ هـ ، ومات بدمشق سنة ٦٣٨ هـ ، قال الذهبى :
من أربأ تواليفه كتاب الفصوص فإن كان لا كفر فيه فمافى
الدنيا كفر " وقال فيه العز بن عبد السلام " شيخ سوء كذاب يقول
بقدم العالم ولا يحرم فرجا " ، يقول المقرئ : " كان بالمغرب يعرف
بابن العربى بألف ولام واصطلاح أهل المشرق على ذكره بغير
ألف ولام فرقا بينه وبين القاضى أبى بكر بن العربى " ومما صنف
فى بيان كفره كتاب البقاعى المطبوع بتحقيق الوكيل سنة ١٤٠٠ هـ باسم
" مصرع التصوف أو تنبيه الغبى الى تكفير ابن عربى " .

السير ٤٨/٢٣ - ٤٩ ، والميزان ٦٥٩/٣ - ٦٦٠ ، ولسان الميزان ٣١١/٥
وشذرات الذهب ١٩٠/٥ ونفخ الطيب ١٦١/٢ ، ومفتاح السعادة ٢١٤/١٠
وهدية العارفين ١١٤/٢ .

ولو لم يكن الأمر كذلك لما صح الوجود فهو عين الوجود ،
 فهو كل شيء حفيظ بذاته فلا يؤوده حفظ شيء ، فحفظه تعالى
 للأشياء كلها حفظه لمورته أن يكون الشيء غير صورته ، ولا يصح إلا هذا
 (١)
 فهو الشاهد من الشاهد والمشهود من المشهود فالعالم صورته
 ويقول : " وأعلم أن الحق لم يزل في الدنيا متجليا للقلوب
 دائما ، فتتنوع الخواطر في الإنسان عن التجلي الإلهي من حيث
 لا يشعر بذلك إلا أهل الله ، كما أنهم يعلمون أن اختلاف الصور
 الظاهرة في الدنيا والآخرة في جميع الموجودات كلها ليس
 غير تنوعه هو ، فهو الظاهر إذ هو عين كل شيء " .
 (٢)
 يقول : " فعين الخلق عين الحق فيه . . . فلا تنكر فإن الكون عينه " (٣)
 ويقول : " ألا كل قول في الوجود كلامه . . . سواء علينا نثره ونظامه " (٤)
 ويقول : " فالحق عين العبد ليس سواء . . . والحق غير العبد لست تراه
 (٤)
 فانظر إليه . به على مجموعه . . . لا تفردنه فتستبيح حماءه " (٥)
 ويقول : " فلا تفرو ولا تركزن إلى طلب . . . فكل شيء تراه ذلك الله " (٥)
 ويقول : " لا تراقب فليس في الكون إلا . . . واحد العين وهو عين الوجود

(١) فصوص الحكم - مع شرح القاشاني - ص ١٦٠ .

(٢) الفتوحات المكية ٤٧٠/٣ .

(٣) المرجع السابق ٤٧١/٣ .

(٤) المرجع السابق ١٤١/٤ .

(٥) المرجع السابق ١٥٦/٢ .

(١)
فتسمى في حالة بمليـك. . . وتكنى في حالة بالعبيد

(٢)
فيقول: "فماثم إلا الله لا شيء غيره. . . وماثم إلا وحدة الوجودات".

ولما كان الحق سبحانه وتعالى - عند هؤلاء - تعالى سبحانه عما

يقول الظالمون علوا كبيرا - هو عين الوجود، كان كل شيء

في الوجود عندهم هو الله، رفيعا كان أم وضيعا عظيما أم حقيرا

ممدوحا أم مذموما، يقول ابن عربي: " ألا ترى الحق يظهر بصفات

المحدثات وأخبر بذلك عن نفسه، وبصفات النقص وبصفات السـدم؟

ألا ترى المخلوق يظهر بصفات الحق من أولها إلى آخرها وكلها

(٣)

حق له كما هي صفات المحدثات حق للحق " . ويقول في الله -

تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا - : " وهكذا تجده في

في صور المعادن والنبات والحيوان والأفلاك فسبحان من أظهر

الأمور وهو عينها " (٤) ويقول: " حتى الانحناء في السلام عند

الملاواة، ربما انحنى العارفون لإخوانهم عندما يلقونهم في

(١) المرجع السابق ٢/٢١١.

(٢) المرجع السابق ٢/٢٨٣.

(٣) الفصوص - بشرح القاشاني ص ٨٨.

(٤) الفتوحات المكية ٢/٤٥٩.

سلامهم فيسر بذلك الشخص الذي ينحنى من أجله، وسروزه
إنما هو من جهله بنفسه حيث تخيل أن ذلك الانحناء والركوع
له ممن لقيه إنما لما يستحقه من الرفعة، فيفعله عامة
الأعاجم مقابلة جهل بجهل وعادة. وعرفنا وهم لا يشعرون،
ويفعله العارفون مشاهدة جبروت إلهي يجب الانحناء له
إذ لا يرون إلا الله قال لبيد : الأكل شيء ما خلا الله
باطل، والباطل هو العدم بلا شك والوجود كله حق فما ركع
الراكع إلا لحق (١).
والله عندهم هو السراب الذي يحسبه الظمآن
ماء والنار التي آتاها موسى - عليه السلام - يقول ابن عربي:
" فاعلم أيديك الله أن من التحقيق أن تعطى المغالطة في موضعها
حقها، فإن لها في كتاب الله موضعاً، وهو قوله في أعمال
الكفار : كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، والحق هو الذي
أعطاه في عين هذا الراشي صورة الماء وهو ليس بالماء الذي
يطلبه هذا الظمآن، فتجلى له في عين حاجته " إلى أن
قال : " فهذا كنار موسى فتجلى له في عين حاجته، فلم
تكن ناراً، كما قلنا :

(٢)
كنار موسى يراها عين حاجته . . . وهو إله ولكن ليس يدريه "

ويقول في بيان أن الله هو المسمى بكل اسم : " فهو عين ما ظهر،
وهو عين ما بطن في حالة ظهوره، وما ثم من يراه غيره، وما ثم من

(١) الفتوحات ٢/٢٣٠

(٢) الفتوحات المكية ٢/٢٦٩

يبطن عنه ،فهو ظاهر لنفسه باطن عنه وهو المسمى ،أبو سعيد

(١)

الخرّاز وغير ذلك من أسماء المحدثات " وكل من قال أنا الله

عندهم فقد صدق وعرف ،يقول ابن عربي : " فصاحب العقل

ينشد :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وصاحب التجلى ينشد قولنا :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه عينه

فبينهما ما بين كلمتيهما ،فما في الوجود إلا الله ولا يعرف

الله إلا الله ومن هذه الحقيقة قال من قال : أنا الله

كأبى يزيد ، وسبحانى كغيره من رجال الله المتقدمين^(٢)

وفرعون لما ادعى الربوبية عندهم لم يجانب الحق بسئل

كان أشد معرفة للحق من موسى ،يقول ابن عربي : "وأما حكمه

سؤال فرعون عن الماهية الإلهية بقوله - وما رب العالمين - فلم

يكن عن جهل ، وإنما كان عن اختبار حتى يرى جوابه مع دعواه

الرساله عن ربه ،وقد علم فرعون مرتبة المرسلين في العلم

بالله ، فيستدل بجوابه على صدق دعواه "إلى أن قال :

" فالسؤال صحيح على مذهب أهل الحق والعلم الصحيح والعقل

السليم ، فالجواب عنه لا يكون إلا بما أجاب به موسى " ثم ذهب

(١) الفصوص - بشرح القاشاني - ٧٨.

(٢) الفتوحات المكية ٢٧٢/١.

يفسر مقصود موسى في جوابه حتى قال : " فكانه قال له
في جواب قوله :- وما رب العالمين - ، قال : الذى يظهر فى
صور العالمين من علو وهو السماء وسفل وهو الأرض - إن كنتم موقنين -
أويظهر هوبها " .

قال : " فلما قال فرعون لأصحابه - إنه لمجنون - كما قلنا فى
معنى كونه مجنوناً ، زاد موسى فى البيان ليعلم فرعون
رتبته فى العلم الإلهى لعلمه بأن فرعون يعلم ذلك " إلى
آخر ما قال ، ^(١) وقال فى موضع آخر : " فكان المتكلم من موسى
وهارون الحق ، وكان السمع الذى تلقى من فرعون كلام موسى
الحق ، فحصل القبول فى نفسه " قال : " ولما علم فرعون أن الحق
سمع خلقه وبصره ولسانه وجميع قواه ، لذلك قال بلسان
الحق : أنا ربكم الأعلى " . ^(٢)

فأنت ترى كيف جعل الله هو موسى وهارون وهو فرعون
وهو أبوسعيد الخراز وهو المنعوت بكل نعت مذموم أو محمود ،
وهم يمثلون لوحدة الوجود التى يعتقدونها بالخمر الرائقة فى
الزجاج الرائق يقول ابن عربى فى كلام له : " فضربنا الواحد
فى الواحد وهو ضرب الشئ فى نفسه فصار واحداً ، فلبس
الواحد الآخر ، فكان الواحد رداً وهو الذى ظهر وهو الخليفة المبدع - بفتح
الدال ، وكان الآخر مرتدياً ، وهو الذى خفى ، وهو القديم المبدع فلا يعرف

(١) الفصوص - مع شرح القاشانى - ٢١٦ - ٢١٧ .

(٢) الفتوحات المكية ٥٣٣/٣ .

المرتدى إلا باطن الرداء وهو الجمع ، ويصير الرداء
على شكل المرتدى ، فإن قلت : واحد ، صدقت ،
عيننا وكشفنا ، والله درمن قال :

رق الزجاج وراقت الخمر .. فتشا كلا فتشابه الأمر
فكانما خمروا قدح .. وكانما قدح ولاخمروا^(١)

ويمثلون لها أيضا بالصورة في مرايا متكثرة متعددة
فالصورة تتكثر بحسب تكثر المرايا ، إذ الصورة الواحدة
تظهر في المرايا الصغيرة صغيرة وفي الكبيرة كبيرة
وفي المستطيلة مستطيلة وهكذا تتكثر مظاهرها بحسب
اختلاف المرايا من تحديق وتقدير وطول وقصر واستواء ونحوه
ولا يقدح ذلك في كون الصورة واحدة في ذاتها لـم
(٢)
تتكثر حقيقة .

(٣)
ويمثلون لها أيضا بالشجرة أصلها نواة تنتج عنها الشجرة
ومما يمثلون به ما قاله ابن عربى : إذ يقول : " فالعالم
يعلم من عبد وفى أى صورة ظهر حتى عبد ، وإن التفريق
والكثرة كالأعضاء فى الصورة المحسوسة وكالقوى المعنوية

(١) الفتوحات ٦٤/١ وانظر ٢٩٠/٣

(٢) انظر هذا فى فصوص الحكم - مع شرح لقاشانى ص ٦٨، ٥٠، ٤٠ وفى الدررة
الفاخرة - مع تأسيس التقديس ص ٢٠٦

(٣) انظر الفتوحات المكية ٢٨٦/٣ وغيرهما .

(١)

فى الصورة الروحانية فما عبد غير الله فى كل معبـود

ولما كان الوجود كله وحدة واحدة عندهم كانت كل
عبادة عندهم حق فكل أديان البرية حق لأنه لم يعبد على
كل حال إلا الله ولهذا يقول ابن عربى :

"عقد الخلق فى الإله عقائدا .. وأنا شهدت جميع ما اعتقدوه

لما بدا صورا لهم متحولا .. قالوا بما شهدوا وما جحدوه

ذاك الذى أجنى عليهم خلفهم .. بجميع ما قالوه واعتقدوه"

إلى أن قال : " فالعارف الكامل يعرفه فى كل صورة

يتجلى بها ، وفى كل صورة ينزل فيها ، وغير العارف لا يعرفه

(٢)

إلا فى صورة معتقده وينكره إذا تجلى له فى غيرها "

فكل الخلق عندهم موحدين إلا طائفة واحدة وهم القائلون بالحلول

يقول ابن عربى : " والقائلون بالحلول غير موحدين لأنه أثبت

(٣)

أمرين حال ومحل " فأنت ترى . . أهل وحدة الوجود نفوا

الفرق بين الخالق والمخلوق وجعلوا الخلق عين الخالق ليس

شيئا مباينا له بل ولا حالا فيه لأن الحلول إثبات ذاتين أحدهما حل فى

الأخر وهم لا يشبتون لله ذاتا مباينة لخلقـه ،

وعليه فلا تفاضل بين الخالق والمخلوق وليس لله فضل على خلقه عندهم .

(١) الفصوص مع شرح القاشان ص ٦٧ .

(٢) الفتوحات المكية ١٣٢/٣ .

(٣) المرجع السابق ٨٣/٢ .

وهو مذهب فاسد باطل يكفى مجرد عرضه لبيان
 بطلانه ولذلك نقلت تلك العبارات من مقالاتهم ، وكما قال ابن
 تيمية رحمه الله فيهم : " اعلم - هداك الله وأرشدك - أن تصور
 مذهب هؤلاء كافى فى بيان فسادهم لايحتاج مع حسن التصور إلى
 دليل آخر ، وإنما تقع الشبهة لأن أكثر الناس لا يفهمون حقيقة
 قولهم وقصدهم ، لما فيه من الألفاظ المجملة والمشتركة ، بل وهم
 أيضا لا يفهمون حقيقة ما يقصدونه ويقولونه ، ولهذا يتناقضون
 كثيرا فى قولهم ^(١) .

(٢)
 وكما قال رحمه الله : " ليس معهم من الحق شئ ، ولا شبهة حق "
 ويقول صاحب الدرة الفاخرة : إن مستندهم فيما ذهبوا إليه هو الكشف
 والعيان لا النظر والبرهان ، وقد بين ابن تيمية رحمه الله مذهبهم ^(٣)
 وكشف باطلهم ، وبين كفرهم ، وأنهم أشد كفرا من الجهمية ، ومن
 عباد الأصنام ، ومن اليهود والنصارى ، وأن مذهبهم يجمع كل شرك
 فى العالم ، وتجد ذلك مبسوطا فى الجزء الثانى من الفتاوى ، وكذا
 فى التسعينية المطبوعة باسم " بغية المرتاد فى الرد على المتفلسفة
 والقرامطة والباطنية وأهل الاتحاد من القائلين بالخلول والاتحاد "
 وكذا فى " المفدية " . ولعل أصل مقالاتهم يرجع إلى قول
 فرقة من الصابئة وهم الخربانية فإنهم يقولون المعبود واحد بالذات

(١) الفتاوى ١٣٨/٢

(٢) الفتاوى ٤١٤/٢

(٣) الدرة الفاخرة - مع تأسيس التقديس - ص ٢٠٢ .

وكثير بالاشخاص في رأى العين، أما الواحد ففي السدات
والاول والاصل والازل، وأما الكثير فلأنه يتكثر بالاشخاص في
رأى العين وهي المديرات السبع والاشخاص الأرضية العالمية
الفاضلة فإنه يظهر بها ويتشخص بأشخاصها ولا تبطل وحدته
في ذاته. (١) وقد جعلت هذه الفرقة ظهور الله في الأشياء
الشريفة الرفيعة، وحددوا ظهوره في أشرف المخلوقات، فهم على
شاعة قولهم وبعده في الكفر، إلا أنه أهون من قول أهل
وحدة الوجود الجاعلين ظهوره في كل شيء خسيًا كان
أم شريفًا - سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون - قال ابن تيمية:
" واعلم أن هذه المقالات لا يعرفها لأحد من أمة قبل هؤلاء على
هذا الوجه ، ولكن رأيت في بعض كتب الفلسفة المنقولة عن أرسطو
أنه حكى عن بعض الفلاسفة قوله : إن الوجود واحد ورد ذلك ، وحسبك
بمذهب لا يرضاه متكلمة الصابئين ، وإنما حدثت هذه المقالات
(٢)
بحدوث دولة التتار".

(١) انظر الملل والنحل - في هامش الفصل - ١٥٢/٢ - ١٥٣ ،

والخطط المقرزية ٣٤٤/٢ ،

وخبئة الأكوان ص ١٢ ،

ودائرة معارف القرن العشرين ٥/٤٣٠ .

(٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٧٣ .

وقد ذكر الرازي (١) أن أول من أظهر مقالة الحلول والاتحاد فى

الإسلام الروافض إذ ادعوا الحلول فى حق أئمتهم (١)

وذكر ابن خلدون (٣) أن سلف القائلين بوحدة الوجود كانوا

مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين بالحلول

والهية الأئمة قال : " فأشرب كل واحد من الفرقين مذهب الآخر

واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم " وذهب فى ذكر أوجه من

(١) الفتاوى ١٧١/٢

(١) هو محمد بن عمر بن الحسين القرشى النسب ، كان أحد فقهاء

الشافعية المشاهير وأحد أئمة المتعلمين ، وكان مع وزارة

علمه فى فن الكلام يقول : من لزم مذهب العجائز كان هو

الفائز ، كانت بينه وبين الكرامية عداوة شديدة ، وقد

ذكر السبكي بسنده وصيته عند موته وفيها تسفيه الطارق

الكلامية والمناهج الفلسفية ، ت ٦٠٦ / ترجمته فى ، طبقات الشافعية

٣٣/٥ ، البداية والنهاية ٥٥/١٣ ولسان الميزان ٤٢٦/٤

(ب) هو عبدالرحمن بن محمد بن محمد ، أبوزيد ولى الدين الحضرمى

الاشبيلي من ولد وائل بن حجر ، ولد ونشأ بتونس ، ولى

قضاء المالكية بمصر فى عهد سلطانها برقوق ، وله مؤلفات فى المنطق

والحساب والتصوف وكتابه فى التاريخ مشهور ، ت ٨٠٨ هـ .

ترجمته فى : شذرات الذهب ٧٦/٧ ، وهديّة العارفين ٥٢٩/١ ، ونفح

الطيب ١٧١/٦

(١)
التشابه بين الفريقين. وكذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه
الله نبه إلى التشابه بين الاتحادية والقرامطة في مواضع من
كتبه. (٢)

والحاصل أن أهل وحدة الوجود نفوا صراحة أن يكون لله
فضل على خلقه، كيف وهم لا يفرقون بين الخالق والمخلوق، وإن كان
فيهم من يقول: إن هذا الوجود بعضه أفضل من بعض والأفضل
يستحق أن يكون رباً للمفضول على أن ذلك إنما هو في
الظهور لا في الواقع وحقيقة الأمر، إذ في الحقيقة لاتفاضل.

(١)
نقل ملا الجامى في كتابه الدرة الفاخرة عن صدر الدينى
(ب)
القونوى في رسالته الهادية قوله: " إذا اختلفت حقيقة في كونها

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٧٣.

(٢) انظر مثلاً بغية المرتاد ص ٤٩٠.

(١) هو عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الجامى، نور الدين، ولد بجام من بلاد

خراسان سنة ٧١٨ هـ، وصحب مشايخ الصوفية، وله شرح لفصوص الحكم لابن
عربي، وكتابه الدرة الفاخرة هو في تحقيق مذهب الصوفية والمتكلمين

في وجود الله وصفاته، توفي سنة ٨٩٨ هـ، انظر ترجمته في شذرات الذهب ٣٦٠/٧
- ٣٦١ وهدية العارفين ١/٥٣٤ والأعلام ٣/٢٩٦، ومعجم المؤلفين ٥/١٢٢.

(ب) هو محمد بن اسحاق بن محمد، يعرف بالمدر الرومي، من كبار تلاميذ ابن عربي وقد
تزوج ابن عربي أمه ورباه، وبينه وبين نصير الدين الطوسي مكاتبات ولله
تصانيف في التصوف توفي سنة ٦٧٣ هـ. انظر طبقات الشافعية الكبرى ١٩/٥
وهدية العارفين ٢/١٣٠، والأعلام ٦/٣٠، ومعجم المؤلفين ٩/٤٣ وانظر المجلد
الثاني من الفتاوى فقد بين ابن تيمية جملة من مقالاته وفندها.

فى أى شىء أقوى أو أقدم أو أشد أو أولى فكل ذلك عنـد
المحقق راجع إلى الظهور دون تعدد واقع فى الحقيقة الظاهرة،
أى حقيقة كانت من علم ووجود وغيرهما ، فقابل يستعـد
لظهور الحقيقة فيه من حيث هى أتم منها من حيث ظهورها
فى قابل آخر، مع أن الحقيقة واحدة فى الكل، والمفاضلة
والتفاوت واقع بين ظهوراتها بحسب الأمر المظهر المقتضى
تعيين تلك الحقيقة تعيينا مخالفا لتعيينه فى أمر آخر، فلا تعدد
فى الحقيقة من حيث هى ولا تجزئة ولا تبعية (١)
وبذلك المذهب
صح عندهم قول فرعون : " أنار بكم الأعلى " وبه فسروه ، يقول
ابن عربى فى تفسير قول فرعون هذا : " أى وإن كان الكل أربابا
فأنا الأعلى منهم بما أعطيته فى الظاهر من التحكم فيكم "
يقول : " ولما علمت السحرة صدقه فيما قال لم ينكروه وأقروا
له بذلك فقالوا : فاقضى ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة
الدنيا ، فالدولة لك ، فصح قوله : أنار بكم الأعلى وإن كان

(١) الدرّة الفاخرة - مع تأسيس التقديس -

(١) عيّن الحق فالصورة لفرعون " ويقول شارح الفصوص في شرحه
 كلام ابن عربي هذا : " وتختلف المظاهر في تجلّي صفة الربوبية
 وتتفاضل ، فمن كان أكثر تصرفا وتحكما بالنسبة إلى غيره
 كانت ربوبيته أعلى ، ولما كان فرعون صاحب السلطنة في وقته
 متحكما في قومه بحسب إرادته ادعى أنه ربهم الأعلى " (٢)
 هذا هو التفاضل والمفاضلة عند أهل الوحدة لشيء غير ذلك البتة .

(١) الفصوص بشرح القاشاني ص ٣٢١ .

(٢) أعنى القاشاني وهو عبد الرزاق بن أحمد توفي سنة ٧٣٠ هـ

وله شرح أيضا على تائية ان الفارض وكتب في التصوف .

انظر هدية العارفين ٥٦٧/١

وكشف الظنون ٢٦٦

والأعلام ٣٥٠/٣

(٣) شرح فصول الحكم ص ٣٢١ .

■ فـلـل الجهمية :

والجهمية لم تبعد كثيرا عن الاتحادية في القول في الله

وإن كانت الجهمية أقرب إلى الإسلام من الاتحادية مع كفرهم فقد

كفرهم السلف وتكلم فيهم الاثمة ^(١)، وكلام الجهمية يؤدي إلى

وحدة الوجود بل أهل الوحدة نسخة الجهمية كما قال ابن تيمية. ^(٢)

ذلك أن الجهمية يقولون إن الله في الأمكنة كلها لا يخلو منه

^(٣)

مكان وهو في كل مكان بذاته ، تعالى الله عما يقولون علوا

كبيرا ،

إلا أن مقالاتهم هذه أخف شاعة من مقالة الاتحادية ، فقد أشبهتوا

ذاتنا مفضلة خالقة ووصفوها بالحلول العام ، أما الاتحادية

فقالوا الخالق هو عين الأمكنة ، والاتحادية جعلت كل وصف

في الوجود صفة لله - تعالى الله عما يقول الظالمون علوا عظيما -

(١) انظر السنة للإمام أحمد ١٠٣/١ وما بعدها ، وخلق أفعال العباد ،

٣٠ ٠٠ ، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة ٣١٣/١ وما بعدها ،

وبغية المرتاد ص ٣٥٠ وما بعدها .

(٢) بغية المرتاد ٤١١ وانظر ٣٤٩ .

(٣) انظر سيرة أعلام النبلاء ٢٧/٦ ، والبداية والنهاية ١٩/١٠ .

أما الجهمية فقد نفوا عن الله الصفات جميعها، إذ أنكروا الصفات الالهية كلها بدعوى تنزيه الباري وقالوا بأنه لا يجوز أن يوصف الباري بالصفات لأن الخلق يوصفون بها ^(١)، فهم ضلوا في باب فضل الله على خلقه من جهتين: من جهة الذات فجعلوا ذوات المخلوقات أفضل من ذات الله - تعالى سبحانه عما يقول الظالمون علوا كبيرا - إذ قالوا هو في كل مكان حتى في الحشوش وأماكن القذارة ونحوه مما يتنزه عنه الإنسان - حاشا الله وتعالى عما يقولون - ومن جهة الصفات فقد عطلوا الله من صفاته، فشبهوه تعالى وتقدس بالمعدوم أو بالناقص أو بالجماد ، فإن من ليس بحي ولا سميع ولا بصير ولا متكلم لا يكون إلا معدوما أو يكون موجودا ناقصا ميتا أصم أعمى أبكم أو جمادا ، ولقد قال الجهم به صفوان رأس الجهمية : ^(٢)

(١) انظر المرجعين السابقين والخطط المقريرية ٣٤٩/٢ . وانظر الحاشية رقم (٢) في الصفحة ٦٢٦ من مقالات الاسلاميين .

(٢) توفي سنة ١٢٨ هـ مقتولا ، وقد قال بخلق القرآن أخذه عن الجعد بن درهم ، وكان جريا نفى استطاعة العبد فكفرته المعتزلة بذلك ، وقد كفره أهل السنة والجماعة لقوله في الصفات . انظر ترجمته في /سير أعلام النبلاء ٢٦/٦ ، وميزان الاعتدال ٤٢٦/١ ، ولسان الميزان ١٤٢/٢ ، وانظر الملل والنحل بهامش الفصل ١٠٩/١ .

«لا يقال إن الله شيء لأن ذلك تشبيه له بالأشياء لأن الشيء»

(١)

عنده هو المخلوق الذي له مثل، قال: «ولا هو أيضا لشيء لأنه

(٢)

تعالى خالق كل شيء فلا شيء إلا مخلوق». فلا يقال لله عنده شيء

ولا يقال لشيء وكذا قول الجهمية في سائر الصفات ينفون عنه

الصفة وعدمها فيقولون مثلاً: «لا حي ولا لا حي، لا سميع ولا لا سميع،

فأنت ترى كيف أرادوا تفضيل الله على خلقه من حيث فضلوا

خلقهم عليه، ولقد فند قولهم وشبههم ابن تيمية رحمه الله

في مواضع من كتبه. وذكر أن الخلو عن النقيضين ممتنع فليس

بدائيه العقول كالجمع بينهما، وكان مما قاله رحمه الله في

ذلك: " وإن كان المخاطب من الغلاة نفاة الأسماء والصفات، وقال

لا أقول هو موجود، ولا حي ولا عليم ولا قدير، بل هذه الأسماء

لمخلوقاته، إذ هي مجاز، لأن إثبات ذلك يستلزم التشبيه بالموجود.

الحي العليم، قيل له: وكذلك إذا قلت: ليس بموجود ولا حي

ولا عليم ولا قدير، كان ذلك تشبيهاً بالمعدومات وذلك أقرب من

(١) مقالات الإسلاميين ١٨١ وقال الأشعري " وقال المسلمون كلهم

إن الباري شيء لا كالأشياء ".

(٢) الفصل ٢٠٥/٤ .

التشبيه بالموجودات ، فإن قال : أنا أنفى النفس والاشياء
 ، قيل له : فيلزمك التشبيه بما اجتمع فيه النقيضان من
 الممتنعات ، فإنه يمتنع أن يكون الشيء موجودا معدوما
 أو موجودا ولا معدوما ، ويمتنع أن يوصف ذلك باجتماع الوجود
 والعدم أو الحياة والموت ونفي العلم والجهل ، فإن قلت : إنما
 يمتنع نفي النقيضين عما يكون قابلا لهما ، وهذان يتقابلان
 تقابل العدم والملكية لاتقابل السلب والإيجاب ، فإن الجدار^(١)
 لا يقال له أعمى ولا بصير ولا حي ولا ميت إذ ليس بقابل لهما ،
 قيل لك :

أولا .. هذا لا يصح في الوجود والعدم ، فإنهما متقابلان تقابل
 السلب والإيجاب باتفاق العقلاء ، فيلزم من رفع أحدهما
 ثبوت الآخر ، وأما ما ذكرته من الحياة والموت
 والعلم والجهل ، فهذا اصطلاح اطلقت عليه المتفلسفة
 المشاءون ، والاصطلاحات اللفظية ليست دليلا على نفي
 الحقائق العقلية ، وقد قال الله تعالى : " والذين يدعون

(١) يظهر لى من سياق الكلام أنه يعنى بـ " العدم " : انعدام الصفة
 عمن يقبل الاتصاف بها ، وبـ " الملكية " : وجود الصفة فيمن
 يقبل الاتصاف بها وبـ " السلب " : نفي قبول الصفة ، وبـ " الإيجاب " :
 ثبوت قبول الصفة ، والله أعلم .

من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون أموات
غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون " - النحل ٢١ -
فسمى الجماد ميتا وهذا مشهور في لغة العرب
وغيرهم .

وقيل لك ثانيا: فما لا يقبل الاتصاف بالحياة والموت والعمى
والبصر ونحو ذلك من المتقابلات، أنقص مما يقبل
ذلك، فالأعمى الذى يقبل الاتصاف بالبصر، أكمل من
الجماد الذى لا يقبل واحدا منهما، فأنت فسررت
من تشبيهه بالحيوانات القابلة لمفات الكمالات
ووصفته بصفات الجمادات التى لا تقبل ذلك " إلى
قال رحمه الله : " وقيل له أيضا : اتفقاق
المسميين فى بعض الأسماء والصفات ليس هو
التشبيه والتمثيل الذى نفتى الأدلة السمعية
والعقلية، وإنما نفتى ما يستلزم اشتراكهما
فيما يختص به الخالق، مما يختص بوجوبه
أوجوازه أو امتنائه، فلا يجوز أن يشركه فيه
مخلوق ولا يشركه مخلوق فى شيء من خصائصه
سبحانه وتعالى^(١) "

(١) الرسالة التدمرية ٢٤ - ٢٥، ٢٦، ٢٧ .

* فـلـل المـعـتـزـلـة :

ونظير ما فعلت الجهمية فعلت المعتزلة ، ذهبوا
لتفضيل الله على خلقه وتنفي مشابهته لخلقه - بزعمها -
فجعلت الخلق أفضل منه - تعالى الله - ووصفته سبحانه
بصفات النقص والعدم - تعالى وتقدس - ، فإن المعتزلة
عطلت الله من صفاته ، وجعلت أسماءه سبحانه أعلاما
محضة مجردة عن الصفات ، فهي عندهم غير دالة على
الصفات ، بل هي محض أعلام كأسماء المخلوقات - تعالى
الله عما يقولون علوا كبيرا - ولذلك فأسماء الله
في اعتقادهم مترادفات لا لكونها أسماء لمسمى واحد
كما هو الحق ، بل لأنها لامعاني لها مختلفة ، معانيها
كلها واحد ، وهو كونها علم على الإله ، وهذا هو
إثبات المعتزلة للأسماء إذا قيل أنها تثبت الأسماء ،
ولذلك فهم يقولون : إن الله حي لأبياة قادر لأقدرة عالم
لأعلم ، ويزعمون أن نفي الصفات هو التنزيه ، وبه يتحقق
التوحيد ، لأننا إن أثبتنا لله هذه الصفات - بزعمهم -
فقد شبهناه بخلقه لأن هذه الصفات لا تعقل إلا لمخلوق ،
قالوا : قاله غير قابل لهذه الصفات ولا يجوز أن

(١)
يوصف بها . - تعالى الله عما يقول الظالمون علـوا

كبيراً - .

وقد تعقب الإمام ابن تيمية رحمه الله شبههم وفندها
في مواضع من كتبه كثيرة، وكان من جملة ما قاله رحمه
الله في ذلك : " وإن كان المخاطب ممن ينكر الصفات
ويقر بالأسماء كالمعتزلي الذي يقول : إنه حى
عليم قدير وينكر أن يتصف بالحياة والعلم والقدرة ،
قيل له : لا فرق بين إثبات الأسماء وإثبات الصفات ،
فإنك إن قلت : إثبات الحياة والعلم والقدرة
يقتضى تشبيهها أو تجسيما ، لانا لانجد في الشاهد متصفا
بالصفات إلا ما هو جسم ، قيل لك : ولانجد في الشاهد
ما هو مسمى حى عليم قدير إلا ما هو جسم ، فإن
نفيت ما نفيت لكونك لم تجده في الشاهد إلا للجسم ،
فانف الأسماء بل وكل شىء لأنك لاتجده في الشاهد
إلا للجسم فكل ما يحتج به من نفى الصفات ، يحتج به
نافى الأسماء الحسنى ، فما كان جوابا لذلك كان جوابا

(٢)
لمثبتى الصفات "

(١) انظر تفصيل اعتقادهم هذا في شرح الأصول الخمسة ١٨٢ - ٢٣٢ .

(٢) الرسالة التدمرية ٢٤ .

وقال رحمه الله في موضع آخر : " ومن قال : إنه ليس
بحي ولا سميع ولا بصير ولا متكلم ، لزمه أن يكون ميتا
أعمى أعمى أبكم ، فإن قال : العمى عدم البصر
عما من شأنه أن يقبل البصر ومالم يقبل البصر
كالحائط لا يقال له أعمى ولا بصير ، قيل له : هذا اصطلاح
اصطاحتموه ، وإلا فما يوصف بعدم الحياة والسمع والبصر
والكلام يمكن وصفه بالموت والعمى والخرس والعجمة ، وأيضا
فكل موجود يقبل الاتصاف بهذه الأمور ونقائضها ،
فإن الله قادر على جعل الجماد حيا ، كما جعل عصى
موسى حية ابتلعت الحبال والعصى ، وأيضا فالذى لا يقبل
الاتصاف بهذه الصفات أعظم نقضا ممن يقبل الاتصاف
بها مع اتصافه بنقائضها ، فالجماد الذى لا يوصف بالبصر
والعمى ولا الكلام ولا الخرس ، أعظم نقضا من الحي الأعمى
الأخرس ، فإذا قيل : إن الباري لا يمكن اتصافه بذلك ،
كان فى ذلك من وصفه بالنقص أعظم مما إذا وصف بالخرس
والعمى والمم ونحو ذلك ، مع أنه إذا جعل غير قابل

لها كان تشبيهها له بالجماد الذي لا يقبل الاتصاف
بواحد منها ، وهذا تشبيه بالجمادات لبالحيوانات ، فكيف
من قال ذلك على غيره مما يزعم أنه تشبيه له بالحي ،
وأيضاً فنفس نفي هذه الصفات نقص كما أن إثباتها كمال ،
فالحياة من حيث هي هي ، مع قطع النظر عن تعيين الموصوف
بها ، صفة كمال ، وكذلك العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام
والفعل ونحو ذلك ، وما كان صفة كمال فهو سبحانه أحق
أن يتصف به من المخلوقات ، فلو لم يتصف به مع اتصاف المخلوق
(١)
به لكان المخلوق أكمل منه .

قلت : هذه هي القاعدة : كل كمال اتصف به المخلوق
وأمكن أن يتصف به الخالق فالخالق أولى به . والله أعلم .
وكما قال ابن تيمية رحمه الله : " ان الكمال ثابت
لله ، بل الثابت له هو أقصى ما يمكن من الأكملية ،
لا يكون وجود كمال لانقص فيه إلا وهو ثابت للرب
تعالى ، يستحقه بنفسه المقدسه ، وثبوت ذلك مستلزم نفي
نقيضه ، فثبوت الحياه يستلزم نفي الموت ، وثبوت العلم

(١) الرسالة التدمرية ٤٢ - ٤٣ ، وانظر الرسالة الأكملية ص ٢٤ - ٢٦ .

يستلزم نفي الجهل ، وثبوت القدرة يستلزم نفي العجز ،
وان هذا الكمال ثابت له بمقتضى الأدلة العقلية والبراهين
اليقينية مع دلالة السمع على ذلك " . وليعلم أن من الكمالات
(١)
ما هو كمال المخلوق نقص بالنسبة للخالق وهو في الجملة :
" كل ما كان مستلزماً لإمكان العدم عليه المنافي لوجوبه
وقيوميته - سبحانه - ، أو مستلزماً للحدوث المنافي لقدمه ،
(٢)
أو مستلزماً لفقره المنافي لغناه " ومثال ذلك : اتخاذا
الصاحبة والولد كمال في المخلوق نقص بالنسبة للخالق ،
والأكل والشرب كمال في المخلوق نقص بالنسبة للخالق ،
والغنى بالمال ونحوه كمال في المخلوق نقص بالنسبة
للخالق لأنه الغني بنفسه لا بغيره .

(١) الرسالة الأكملية ص ٧ أو مجموعة الرسائل والمسائل المجلد

الثاني ص (١٩٥) .

(٢) الرسالة الأكملية ص ٣٣ أو مجموعة الرسائل والمسائل المجلد

الثاني ص (٢١٤) .

الفصل الثاني

تَفَاهِيلُ الْأَسْمَاءِ وَاللَّيْثِ وَصَفَاتِهِ

الباب الأول

الفصل الثاني - تفاضل أسماء الله وصفاته

المبحث الأول : تفاضل أسماء الله ودلالة ذلك .

تمهيد ...

قال الله عز وجل : " ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها " الأعراف ١٨٠ - ، وقال سبحانه : " قل ادعوا الله أوادعوا الرحمن أيأما تدعوا فله الأسماء الحسنى " - الإسراء ١١٠ - ، وقال تعالى : " الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى " - طه ٨ - ، وقال : " هو الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى " . - الحشر ٢٤ - .

فأسماء الله عز وجل كلها حسنى ، متناهية في الكمال ليس فيها اسم غير ذلك أصلا ، وذلك لوجوه من الفضل والحسن لا تحصر مانجهله منها أكثر وأعظم مما نعلمه ، فمن ذلك :-

● أن الاسم يشرف بشرف المسمى ، فأسماء الله بهذا

أشرف الأسماء .

● أن أفعال الرب تبارك وتعالى صادرة عن أسمائه

وصفاته ، وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم ، فالرب

تبارك وتعالى فعاليه عن كماله ، والمخلوق كماله
 عن فعاليه ، فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل ، فالرب
 لم يزل كاملاً ، فحصلت أفعاليه عن كماله ، لأنه كمال بذاته
 وصفاته ، فأفعاليه صادرة عن كماله ، كمل ففعل ، والمخلوق
 (٦)
 فعل فكمال الكمال اللائق به " .

● " أن أسماء الحسنى هي أعلام وأوصاف ، والوصف
 بها لا ينافي العلمية ، بخلاف أوصاف العباد فإنها
 تنافي علميتهم ، لأن أوصافهم مشتركة ، فنافتها العلمية
 (٢)
 المختصة ، بخلاف أوصافه تعالى " .

● " أن أسماء الحسنى دالة على صفاته سبحانه ، وصفاته
 صفات كمال وعلو ، - كما تقدم بيانه في الفصل الأول .
 ● ومن أظهر وجوه فضل الأسماء الحسنى أنه يُتعبد بها .
 وأسماءه سبحانه غير محصورة ، وهي كثيرة لا يعلم
 كثرتها إلا صاحبها سبحانه وتعالى .

(١) بدائع الفوائد ١/١٦٢ .

(٢) بدائع الفوائد ١/١٦٢ .

ففى الحديث - من الدعاء - : " وأسألك بكل اسم هو

لك ، سميت به نفسك ، أو علمته أحدا من خلقك ،

أو أنزلته فى كتابك ، أو استأثرت به فى علم الغيب

(١)

عندك " وفى الموطأ عن كعب الأحبار فى دعائه :-

(٢)

" ... وبأسماء الله الحسنى كلها ما علمت منها وما لم أعلم "

وعند ابن ماجه نحوه من دعاء عائشة بحضرة النبى

(١) أخرجه أحمد فى المسند ٣٩١/١ ، ٤٥٢ ، قال الهيثمى فى

مجمع الزوائد ١٨٦/١٠ - ١٨٧ :- رواه أحمد وأبو يعلى

والطبرانى والبزار ، قال : " رجال أحمد وأبى يعلى

رجال الصحيح غير أبى سلمة الجهنى وقد وثقه ابن حبان "

مجمع الزوائد ١٨٦/١٠ ، ١٨٧ ، وقال محقق - زاد المعاد -

فى سند أحمد " وسنده صحيح " زاد المعاد ١٩٨/٤ ، وأخرجه

ابن حبان فى صحيحه انظر موارد الظمان ص ٥٨٩ ، والاحسان

١٦٠/٢ ، وأخرجه الحاكم ٥٠٩/١ .

(٢) الموطأ ٩٥٢/٢ .

- صلى الله عليه وسلم ، إلا أنه ضعيف^(١) ، وفي حديث

الشفاعة : " ثم يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء

عليه شيئاً لم يفتحه علي أحد قبلي^(٢) " ، ومن دعائه

في السجود - صلى الله عليه وسلم - قوله : " لا أحصى ثناء

(٣)

عليك ، أنت كما أشيئت علي نفسك " . .

والمحامد والثناء هي في أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى .

فهذه نصوص دالة على أن أسمائه سبحانه غير محصورة

(٤)

فلا يلتفت إلى من زعم حصرها كما زعمه ابن حزم .

وحكى النووي عن ابن العربي أنه ذكر عن بعضهم أن الله

ألف اسم^(٥) ، وذكر ابن حجر نقل الرازي عن بعضهم

أن لله أربعة آلاف اسم استأثر بعلم ألف منها ، وأعلم الملائكة

(١) سنن ابن ماجه ١٢٦٩/٢ قال ابن حجر : (سنده ضعيف) الفتح

٢٢٤/١١ وانظر مصباح الزجاجة ٢٧٢/٢ .

(٢) متفق عليه ، البخارى مع الفتح ٣٩٥/٨ ، ومسلم ١٨٥/١ .

(٣) أخرجه مسلم ٣٥٢/١ .

(٤) انظر المحلى ٣٠/١ .

(٥) شرح مسلم ٥/١٧ .

(١)

بالبقية ،والأنبياء بالفين منها ،وسائر الناس بالف .

كل هذا هراء لا يلتفت إليه ، وإنما يجاب عن استدلال ابن

حزم ومن وافقه على الحصر ، وسيأتي بيان دليـــــــــــــــــله

والجواب عنه قريباً إن شاء الله .

(١) فتح الباري ١١/٢٢٠ .

أدلة تفاضل أسماء الله :

والحاصل أن أسماء الله كثيرة لاتحصر ولاتحدد بعدد،
وهى متفاضلة غير متساوية فى الفضل بعضها أفضل
من بعض، وإن كانت أسماء لمسمى واحد، والأدلة على
تفاضل أسماء الله متعددة ، فإن النصوص تدل على
أن بعض أسماءه سبحانه أفضل من بعض، ففى الآثار
ذكر اسمه الأعظم سبحانه وقد وردت روايات متعددة فى
ذكر الاسم الأعظم ، ففى روايات يقول - صلى الله عليه وسلم -
(١)
: " لقد سأل الله باسمه الأعظم " ، وفى أخرى : " دعى
(٢)
الله باسمه الأعظم " ، وفى أخرى : " لقد دعا الله
(٣)
باسمه العظيم " ، وفى أخرى : " اسم الله الأعظم

(١) انظر مسند أحمد ٣٤٩/٥ ، ٣٥٠ ، ٣٦٠ ، وسنن ابن ماجه ١٢٦٨/٢ ،

وسنن الترمذى - مع التحفة ٤٤٥/٩٠ .

(٢) انظر سنن الترمذى - مع التحفة - ٥٢٩/٩ ، والمستدرک ٥٠٤/١ .

(٣) انظر سنن أبى داود ٨٠/٢ وسنن النسائى ٥٢/٣ .

(١) في كذا " ، وفي رواية : " باسمه الأعظم الأكبر " ، وفي

(٢) رواية : " أسألك باسمك الأعلى الأعز الأجل الأكرم " على

اختلاف في تعيين الاسم الأعظم ماهو ؟ وهي مسألة للناس

(٤) فيها خلاف معروف في كتب العلم .

ففي هذه الروايات دلالة ظاهرة على تفاضل الأسماء

الحسنى ، لدلالاتها على أن في الأسماء الحسنى اسم أعظم
يفضلها فهو أعظمها .

ومن الأدلة على تفاضل أسمائه سبحانه قوله - صلى الله

عليه وسلم - : " إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا
(٥)

من أحصاها داخل الجنة " فخص النبي - صلى الله عليه وسلم -

(١) انظر المسند ٤٦١/٦ ، وسنن الدرامى ٤٥٠/٢ ، وسنن ابن ماجه

١٢٦٧/٢ ، وسنن أبى داود ٨٠/٢ وسنن الترمذى - مع التحفة - ٤٤٧/٩ .

(٢) أخرجها الحاكم في المستدرک ٥٠٤/١ .

(٣) أخرجها الطبرانى ، انظر مجمع الزوائد ١٥٦/١٠ .

(٤) انظر مشكل الآثار للطاوى ٦١/١ - ٦٤ وفتح البارى

٢٢٤/١١ فقد ذكر أربعة عشر قولاً في تعيين الاسم الأعظم .

(٥) متفق عليه ، انظر صحيح البخارى مع الفتح ٣٥٤/٥ ، وصحيح

مسلم ٢٠٦٣/٤ .

فى هذا الحديث الأسماء التسعة والتسعين بهذه الفضيلة ،
فهى تفضل غيرها من الأسماء بأن من أحصاها دخل
الجنة ، فهى اختصت بهذه الفضيلة ، إذ هذه هى دلالة
الحديث التى نقل النووى الاتفاق عليها فى قوله :
"واتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر
لأسمائه سبحانه وتعالى ، فليس معناه أنه ليس له
أسماء غير هذه التسعة والتسعين ، وإنما مقصود الحديث
أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة ، فالمراد
الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها ، لا إخبار بحصر
(١)
الأسماء " وهذا كقول من يملك ألف مملوك - مثلاً -
إن لى مائة مملوك أعددتهم للجهاد ، فليس قوله هذا
مانعاً من أن له غيرهم معدون لغير الجهاد ، فلا دلالة
فى الحديث لمن احتج به على حصر الأسماء الحسنى
(٢)
فى هذا العدد كما فعل ابن حزم .

(١) شرح مسلم ٥/١٧ ، وانظر المقص الأسنى ١٣١ ، والفتاوى

٣٨١/٦ ، وبدائع الفوائد ١٦٦/١ .

(٢) انظر المحلى ٣٠/١ .

ومن الأدلة على تفاوت أسماء الله في الفضل : الحديث المتقدم الذى فيه أن أسماء سبحانه أقسام منها ما استأثر الله بعلمه ، ومنها ما أنزله في كتابه ، ومنها ما علمه أحدا من خلقه ، ففي هذا دلالة على تفاوتها وعلى اختصاص كل منها بخصيصة .

ثم إن كل دليل من كتاب وسنة دل على تفاضل صفات الله التي تدل عليها أسماءه ، هو دليل على تفاضل تلك الأسماء ، لتفاضل دلالاتها ، لأن الاسم يراد لمعناه لا لحروفه ، وسيأتى بيان أدلة تفاضل الصفات فى المبحث الثانى إن شاء الله - ، والناظر فى أسماء الله يجد أنها تتفاوت من وجوه عدة يظهر بها تفاضلها ، فمن ذلك :

● " أن أسماء تعالى منها ما يطلق عليه مفردا ومقترنا بغيره ، وهو غالب الأسماء ، كالقدير والسميع والبصير والعزيز والحكيم ، وهذا يسوغ أن يدعاه مفردا ومقترنا بغيره ، فتقول : يا عزيز ، يا حليم ، يا غفور

يارحيم ، وأن يفرد كل اسم ، وكذلك في الثناء عليه
الخير عنه بما يسوغ لك الأفراد . والجمع ، ومنها ما لا يطلق
عليه بمفرده بل مقرونا بمقابلته ، كالمانع والضار
والمنتقم ، فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله ، فإنـه
مقرون بالمعطى والنافع والعفو ، فهو المعطى المانع ، الضار
النافع ، المنتقم العفو ، المعزل المذل ، لأن الكمال في
اقتران كل اسم من هذه بما يقابله ، لأنه يـراد
به أنه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف
فيهم عطاء ومنعاً ونفعاً وضراً وعفواً وانتقاماً ،
وأما أن يثنى عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار
فلا يسوغ ، فهذه الأسماء المزدوجة تجرى الأسماء منها
مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل بعض حروفه
عن بعض ، فهي وإن تعددت ، جارية مجرى الاسم الواحد ،
ولذلك لم تجيء مفردة ، ولم تطلق عليه إلا مقترنة ،
فاعلمه ، فلو قلت يامذل ياضر يامانع وأخبرت
بذلك لم تكن مثنيا عليه ولا حامدا . له حتى

(١)
تذكر مقابلها " فهذا وجه من وجوه تفاوتها يظهر
به تفاضلها فليس الاسم الدال على الكمال بمفرد
مساويا للذي لا يدل على الكمال إلا باقترانته بمقابله .
ومن ذلك :

● أن من أسمائه سبحانه ما يدل على صفة واحدة
كالسميع والبصير ، ومنها ما يدل على صفات عديدة
لاتختص بصفة معينة كالمجيد والعظيم ، فإن المجيد من
اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال ، وهو موضوع لبلاغ
النهاية في كل محمود ، ولنيل الشرف بكرم الفعال ،
وللكثرة ، ولذا قالوا : استمجد المرخ والعفارأي استكثرا
من النار حتى تناهيا في ذلك حتى إنه يقبس منهما ،
(٢)
وكذا العظيم من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال ، وكذلك
السمد ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : " السمد ، السيد
الذي كمل في سؤده . ، والشريف الذي كمل في

(١) بدائع الفوائد ١٦٧/١ وانظر تفسير الرازي ٥٦٧/١٥ .

(٢) انظر تهذيب اللغة ٦٨٢/١٠ ، والصاح ٥٣٦/٢ ومعجم مقاييس
اللغة ٢٩٧/٥ .

شرفه ، والعظيم الذى قد كمل فى عظمته ، والحليم
الذى قد كمل فى حلمه ، والغنى الذى قد كمل فى غناه ،
والجبار الذى قد كمل فى جبروته ، والعالم الذى قد
كمل فى علمه ، والحكيم الذى قد كمل فى حكمه ، وهو
(١)
الذى قد كمل فى أنواع الشرف والسودد " ، فهذا
وجه من وجوه تفاوت أسماء الله ، وهو دال على تفاضلها
فليس الاسم المتضمن لصفات عديدة كالبدال على صفة
واحدة .

ومن ذلك :

● أن من الأسماء ما يتضمن سلب صفة نقص عن
الله ، وهى الصفة المقابلة للصفة التى يثبتها الاسم ،
كالبعير مثلاً فيها سلب صفة نقص عن الله وهى العصى
سبحانه وتعالى وتنزهه وتقدس ، ومنها ما يرجع إلى
التنزيه المحض من كل نقص وعيب جملة وتفصيلاً فيكون
متضمناً للكمال المحض كالقدوس والسلام ، وهو وجه قريب
من سابقه .

(١) أخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات ص ٧٨ ، وغيره ، انظر

ومن ذلك :

● أن من أسمائه سبحانه ما يدل على صفة بعينها ،

ومنها ما يدل على تلك الصفة وزيادة ، كالعليم يسدل

على صفة العلم مطلقا ، والخبير يدل على علمه بالأمور

الباطنة ، وكذلك الغني هو الذي استغنى بنفسه عن كل

شيء فلا يحتاج إلى شيء ، والملك أيضا لا يحتاج إلى شيء

ولكنه يحتاج إليه كل شيء ، فيكون الملك مفيدا معنى الغني

(١)

وزيادة .

ويدل على تفاوت الأسماء الحسنى في الفضل وجود أسماء

منها دالة على صفة واحدة ، واشتقاقها واحد ، مع الاختلاف

في مبانيها ، مثل : القدير المقتدر القادر ، والفطور

الغفار الغافر ، والرحمن الرحيم ، ونحو ذلك ، فإن كلا منهما

معدود اسماء مستقلا وهي متغايرة متفاضلة ، دل على

تفاضلها صيغ مبانيها ، فإن فعّال وفعيل وفعلان صيغ

مبالغة أبلغ من " فاعل " ، ثم " فعلان " أبلغ من فعيل ،

ولذا ذكر ابن جرير أنه لا تمنع بين أهل العلم بلغات

(١) انظر المقصد الأسنى ص ٢٢٠

العرب أن الرحمن أبلغ من الرحيم^(١)، وهو مذهب أكثر العلماء^(٢).

(أ)
قال الزمخشري: " في الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم
ولذلك قالوا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا، ويقولون:
إن الزيادة في البناء لزيادة المعنى"^(٣)

(١) تفسير الطبري ٤٢/١

(٢) انظر البرهان في علوم القرآن ٥٠٤/٢ ، ومعتزك الاقران ٤١٢/١ .

(٣) الكشف ٦/١ ، والزمخشري من المعتزلة القائلين بأن

أسماء الله أعلام لامعاني لها وفي هذا النقل إلزام
من كلامه على بطلان مذهبهم .

(أ) الزمخشري هو: محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري، جار

الله ، أبو القاسم ، لقب بجار الله لملازمته في مكية

زمننا ، معتزلي المذهب مجاهر بمذهبه ، ومعدود في أئمة

اللغة توفي سنة ٥٣٨ هـ .

انظر وفيات الأعيان ١٦٨/٥ ،

ولسان الميزان ٤/٦ .

وشذرات الذهب ١١٨/٤

(أ)
وقال الغزالي: " الغافر يدل على أصل المغفرة فقط ،

والغفور يدل على كثرة المغفرة بالإضافة إلى كثرة الذنوب حتى أن من لا يغفر إلا نوعا واحدا من الذنوب فلا يقال له : الغفور ، والغفار يشير إلى كثرة غفران الذنوب على سبيل التكرار ، أى يغفر الذنوب مرة بعد أخرى ، حتى أن من يغفر الذنوب جميعا ولكن أول مرة ولا يغفر للعائد إلى الذنب مرة بعد أخرى لم يستحق اسم الغفار" .
(١)

فهذه بعض أدلة وجود تفاضل أسماء الله فيما بينها ، فبعضها أفضل من بعض وهي كلها فاضلة فى غاية التمام والكمال ليس فيها نقص ، ولذا فإن

(١) المقصد الأسنى ٢٢٠

(أ) هو : محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، أبو حامد ، صوفي فيلسوف ، وهو معروف بلقب " حجة الاسلام " ، وله نحو مئتين مصنفاً فى التصوف والفلسفة والاعتقادات وأشهر كتبه " احياء علوم الدين " خلط فيه خلطاً بين الصالح والفساد ، وكان بخس البضاعة فى الحديث .
انظر طبقات الشافعية ١٠١/٤ وشذرات الذهب ١٠/٤
ووفيات الأعيان ٢١٦/٤

قولنا بأنها متفاضلة غير قاذح في كونها فاضلة
كلها متوافرة في الكمال ، لأن التفاضل بينها دلالة
النصوص كما رأيت ، ولأن التفاضل بين الأشياء الفاضلة الكاملة
لا يستلزم نقص المفضول كما سيأتي بيانه في المبحث الثالث إن شاء
الله عند نقض قول من نفى تفاضل الأسماء .

المطلب الثاني : دلالة تفاضل أسماء الله تعالى :-

تفاضل أسماء الله تعالى يدل على أنها متباينة المعانى ، وأن ترادفها إنما هو من جهة المسمى ، أى من حيث كونها جميعاً أسماء لذات واحدة هو الله عز وجل ، أما من حيث معانيها فهي متباينة ، ووجه دلالة تفاضلها على ذلك : أن التفاضل لا يكون إلا بين شيئين فصاعداً ، إذ الواحد من كل وجه المترادف من كل وجه لا يعقل فيه شيء أفضل من شيء ، والأسماء إذا كانت مترادفة المعانى لا يكون فى واحد منها زيادة دلالة على الآخر ، بل يقوم كل واحد منها مقام الآخر ، ويدل على ما يدل عليه الآخر من معنى سواء بسواء ، وليست أسماء الله كذلك ، بل إن كل اسم منها يدل على معنى غير المعنى الذى يدل عليه غيره منها ، ولذلك وقع التفاضل فيها ولا يقع التفاضل فى الأسماء المترادفة ، وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيراً بمرادف محض ، بل هو على سبيل التقريب

(١)
والتفهييم .

ويدل تفاضل أسماء الله كذلك على أنها أسماء
تدل على معان وصفات ، وليست أعلاما محضة لمفهوم
لها إلا مجرد الدلالة المحضة على معانيها ، فإن
الأعلام المحضة لاتدل على معان ولاشتق منها أوصاف
للمسمى ، ولذلك لايقع فيها التفاضل إذ لاوجه لتفاضلها ،
إذ لايفهم منها جميعها الامعنى واحد وهو الدلالة على
المسمى لاغير ،

أما أسماء الله فهي معان وأوصاف ، ولذلك تشتق
منها الأوصاف لله ، ولذلك وقع فيها التفاضل ولايقع التفاضل
في الأعلام المحضة .

وفى هذا نقض لما ضل به المعتزلة ومن لف لفهم
من اعتقاد أن أسماء الله أعلام مترادفة .

(١) انظر بدائع الفوائد ١/١٦٨ .

المبحث الثاني : تفاضل صفات الله ودلالة ذلك :

المطلب الأول : من أدلة تفاضل صفات الله :

معنى تفاضل صفات الله كون بعض الصفات أفضل من بعض لوجه من وجوه الفضل ، ومن أدلة تفاضل الصفات : قوله صلى الله عليه وسلم : " لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش ، إن رحمتي غلبت غضبي " ^(١) وفي رواية "سبقت غضبي" ^(٢) قال ابن تيمية رحمه الله : " وصف رحمته بأنها تغلب وتسبق غضبه ، وهذا يدل على فضل رحمته على غضبه من جهة سبقها وغلبتها " ^(٣)

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في سجوده : " اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك " ^(٤)

(١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح ٢٨٧/٦ ،

ومسلم ٢١٠٨/٤ .

(٢) فى البخارى مع الفتح ٤٠٤/١٣ ، ومسلم ٢١٠٨٨/٤ .

(٣) جواب أهل العلم والإيمان ٨٩ .

(٤) أخرجه مسلم ٣٥٢/١ .

فكان يستعيز من صفة السخط بصفة الرضا ، ومن عقوبة
الله بمعافاته ، وبه سبحانه منه ، قال ابن تيمية
رحمه الله : " ومعلوم أن المستعاذ به أفضل من المستعاذ
(١)
منه " .

وأما قوله : " أعوذ بك منك " فمعناه والله أعلم ،
الاستعانة بكل صفة مرغوب فيها من صفات الله من كل
صفة مرغوب منها من صفات الله ، فيكون دليلاً جامعاً
يدل على تفاضل صفات الله المستعاذ بها والمستعاذ
منها جميعها ، وقد قال ابن تيمية رحمه الله :
" وأما استعاضته به منه فلا بد أن يكون باعتبار
جهتين : يستعيز به باعتبار تلك الجهة ، ومنه باعتبار
تلك الجهة ، ليتغايير المستعاذ به والمستعاذ منه ، إذ
أن المستعاذ منه مخوف مرغوب منه ، والمستعاذ به مدعو
مستجار به ملتجئ إليه ، والجهة الواحدة لا تكون مطلوبة
(٢)
مهروباً منها ، لكن باعتبار جهتين تصح " والجهتان

(١) جواب أهل العلم والإيمان ٩٠

(٢) جواب أهل العلم والإيمان ٩٠ - ١٩١

متعلقتان بصفاته الفعلية أو الذاتية ولاريب، وشبهه

رحمه الله قوله: " أعوذ بك منك " بقوله في حديث البراء

في الدعاء عند النوم: " لامنجا ولا ملجأ منك إلا إليك " (١)

وقال رحمه الله: " ومعلوم أن جهة كونه منجيا غير

جهة كونه منجيا منه ، وكذلك جهة كونه ملتجأ إليه

غير كونه ملتجأ منه ، سواء قيل إن ذلك يتعلق

بمفعولاته أو أفعاله القائمة به أو صفاته أو بذاته

(٢)

باعتبارين".

ثم إن كل دليل على تفاضل أسماء الله دليل على تفاضل

صفاته لأن أسماء الله أسماء وأوصاف .

(١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح ١١٣/١١ ومسلم ٢٠٨٢/٤

(٢) جواب أهل العلم والإيمان ٠٩١

المطلب الثاني : تفاضل الصفة الواحدة :

التفاضل في صفات الله قد يقع في الصفة الواحدة ،
فتكون الصفة الواحدة متفاضلة ، ومن أدلة ذلك :، تفاضل
صفة الحب والبغض ، قال صلى الله عليه وسلم : " أحب
البلاد إلى الله مساجدها ، وأبغض البلاد إلى الله
(١)
أسواقها " و " أحب " و " أبغض " صيغة تفضيل ، وقال
صلى الله عليه وسلم : " أبغض الرجال إلى الله الألد
(٢)
الخصم " ، وقال صلى الله عليه وسلم : " أبغض الناس إلى
الله ثلاثة : ملحد في الحرم ، ومبتغ في الإسلام سنة
(٣)
الجاهلية ، ومطلب دم أمريء بغير حق يهريق دمه " ،
وكذا تفاضل صفة اليد كما في حديث : " يمين الله
ملأى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، أرايتهم
ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغيض ما في

(١) أخرجه مسلم ٠٤٦٤/١

(٢) متفق عليه ، البخارى مع الفتح ١٨٨/٨ ومسلم ٠٢٠٥٤/٤

(٤) أخرجه البخارى ، الصحيح مع الفتح ٠٤١٠/١٢

(١)
يمينه ،وبيده الأخرى القبض يرفع ويخفض".

قال ابن تيمية : " فبين صلى الله عليه وسلم أن الفضل بيده
اليمنى والعدل بيده الأخرى ،ومعلوم أنه مع أن كلتا
يديه يمين فالفضل أعلى من العدل ،وهو سبحانه كل
رحمة منه فضل وكل نعمة منه عدل ،ورحمته أفضل
من نعمته " قال : " ولهذا كان المقسطون على منابر

(٢)
من نور عن يمين الرحمن ولم يكونوا عن يده الأخرى
وجعلهم عن يمين الرحمن تفضيل لهم ،كما فضل في
القرآن أهل اليمين وأهل الميمنة على أصحاب الشمال
وأصحاب المشأمة ،وإن كانوا إنما عذبهم بعد له ،وكذلك
الأحاديث والآثار جاءت بأن أهل قبضة اليمين أهل
(٣)
السعادة وأهل القبضة الأخرى هم أهل الشقاوة".

(١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح ٤٠٣/١٣ ومسلم ٦٩١/٢ .

(٢) كما ورد في حديث مسلم في صحيحه ١٤٥٨/٣ .

(٣) جواب أهل العلم والإيمان ٩٢ - ٩٣ .

ومن تفاضل الصفة الواحدة من صفات الله ،
تفاضل صفة الكلام ، والدلائل عليه كثيرة من كتاب
الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فمن ذلك : أن القرآن
كلام الله وقد فطمه على سائر كتبه التي سبقتة وهي
كلها كلامه سبحانه وتعالى ، قال تعالى : " وأنزلنا
إليك الكتاب بالحق معذرا لما بين يديه من الكتاب
ومهمنا عليه " المائدة ٤٨ ، واختص الله القرآن من بين
سائر كلامه بخمائص ، فاختصه بأن تكفل سبحانه بحفظه ،
واختصه بأن جعله معجزة نبيه التي اجتمع عليها
البشر ، واختصه بأن تحدى الخلق أن يأتوا بمثله
أو بمثل عشر سور منه أو بمثل سورة منه ، وغير ذلك
من خصائصه ، وتخفيم القرآن بأحكام وفوائد توجب
تشريفه وتفضيله على غيره مما أنزل الله على
رسله ، وقد قال سبحانه : " واتبعوا أحسن ما أنزل
إليك من ربكم " الزمر ٥٥ ، وقال : " الله نزل أحسن
الحديث كتابا متشابها مثاني " - الزمر ٢٣ - .

ثم القرآن نفسه متفاضل ، كما صح عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم تفضيل بعض آياته وسوره على
غيرها ، فمن ذلك :

حديث أبي بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : " يا أبا المنذر ، أتدرى أى آية من كتاب
الله معك أعظم ؟ " قال : قلت : الله ورسوله أعلم ،
قال : " يا أبا المنذر ، أتدرى أى آية فى كتاب الله
معك أعظم ؟ " قال : قلت : الله لا إله إلا هو الحى
القيوم ، قال : فضرب فى صدرى وقال : " والله ليهنك
(١)
العلم أبا المنذر " .

فهذه آية من كلام الله وهى آية الكرسي أعظم آية
فى كتاب الله ، ووردت أحاديث فيها تخصيص بعض الآيات
من كتاب الله بفضائل ، كما ثبت فى الأيتين من آخر
البقرة أن من قرأهما فى ليلة كفتاه ، وكذا ثبت
(٢)

(١) أخرجه مسلم ٥٥٦/١ .

(٢) جاء هذا فى الحديث المتفق عليه ، البخارى مع الفتح

٣١٧/٧ - ٣١٨ ، ومسلم ٥٥٥/١

فى بعض السور، نحو قوله صلى الله عليه وسلم: " يؤتى

بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به

(١)

تقدمه سورة البقرة وآل عمران " فهذا فى تفضيل هاتين

السورتين من كلام الله . ، وفى حديث ابن عباس

قال : بينما جبريل قاعد عند النبى صلى الله عليه

وسلم سمع نقيفا من فوقه ، فرفع رأسه ،

فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح

قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك ، فقال هذا ملك

نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم ، فسلم وقال :

أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتها نبى قبلك ، فاتحة

الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما

(٢)

إلا أمطيته " ، وقال صلى الله عليه وسلم :

(٣)

" قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن " ، وقال :

(٤)

والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن " ووردت

(١) أخرجه مسلم ٥٥٤/١

(٢) أخرجه مسلم ٥٥٤/١

(٣) أخرجه مسلم ٥٥٦/١

(٤) أخرجه البخارى ٥٩/٩

أحاديث عديدة يطول حصرها فيها ما ذكر من تخصيص
بعض الآيات والسور بفضائل ، وجميعها يدل على أن
كلام الله يتفاضل ، قال الغزالي : " لعلك تقول : قد
توجه قصدك في هذه التنبيهات إلى تفضيل بعض
القرآن على بعض والكل قول الله تعالى فكيف يفارق
بعضها بعضا ؟ وكيف يكون بعضها أشرف من بعض ؟
فاعلم : أن نور البصيرة إن كان لا يرشدك إلى الفرق
بين آية الكرسي وآية المداينات ، وبين سورة الإخلاص
وسورة تبت ، وترتاع من اعتقاد الفرق نفسك الجواردة ،
المستغرقة بالتقليد ، فقلد صاحب الرسة طوأت الله
وسلامه عليه ، فهو الذي أنزل عليه القرآن ، وقد
دلت الأخبار على شرف بعض الآيات وعلى تفضيل الأجر
(١)
في بعض السور المنزلة " ونقل السيوطي عن العز بن
عبد السلام قوله : " كلام الله في الله أفضل من كلامه في
غيره ، فـ " قل هو الله أحد أفضل

(١) جواهر القرآن ٦٢ - ٦٣

(١)

من " تبت يد أبي لهب " فهذا من وجوه تفاضل صفوة

الكلام ومن وجوهها أيضا ما قاله ابن تيمية : " إذا كان

المخير به أكمل وأفضل كان الخير به أفضل وإذا كان

(٢)

المأمور به أفضل كان الأمر به أفضل " وقد قال

تعالى : " وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من

وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء " الشورى

٥١ ، قال ابن تيمية " معلوم أن تكليمه من وراء حجاب

أفضل من تكليمه بالايحاء وبإرسال رسول، ولهذا كان

من فضائل موسى عليه السلام أن الله كلمه تكليما

(٣)

وقال : (إني اصطفيك على الناس برسالاتي وبكلامي) الأعراف

١٤٤ ولقد قال تعالى : " ماننسخ من آية أو ننسخها

نأت بخير منها أو مثلها " - البقرة ١٠٦ - قال ابن

تيمية : " أخبر أنه يأت بخير منها أو مثلها ،

(١) الاتقان ١٩٩/٢

(٢) جواب أهل العلم والإيمان ٦١

(٣) جواب أهل العلم والإيمان ٦٦

وهذا بيان من الله لكون تلك الآية قد يأتي

بمثلها تارة أو خير منها أخرى فدل ذلك على

(١)

أن الآيات تتماثل تارة وتتفاضل أخرى .

والحاصل : أن النصوص الشرعية من القرآن وصحيح السنة

قاطعة في الدلالة على تفاضل صفات الله عز وجل.

(١) جواب أهل العلم والإيمان ٠١١

المطلب الثالث : دلالة تفاضل صفات الله :

تفاضل صفات الله عز وجل يدل على تعددها ،
لأن التفاضل لا يعقل إلا مع التعدد ، إذ لا يكون إلا بين
شئين فصاعدا - كما سبق بيانه - ، وهذا يدل على
أن صفات الله ليست هي عين ذاته ، وإنما هي
متعلقة بذاته سبحانه وتعالى ، لأن الذات واحدة غير
متعددة ، ولكنها متصفة بصفات متعددة . واتصاف الذات
بالصفات دليل كما لها ، لأن الذات المجردة التي
لا تتعلق بها صفة ناقصة .

وثبوت تعدد صفات الله يدل على ثبوتها لله
عز وجل ، فلا يسع المؤمن إلا إثباتها متعددة ، لكل منها
معنى يغاير معنى الآخر ، ولذلك كان ورود إثباتات
صفات الله في نصوص الشرع إنما يكون على وجه
التفصيل ، أما النفي فيكون مجملا ، ففي النصوص ذكر
أسماء وصفات الله مفصلة ، وفيها نفي ما لا يصلح له

من التشبيه والتمثيل إجمالاً ، وهذا بخلاف طريقة
أهل الضلال والباطل الذين يفعلون في النفسي ،
فينفون عنه صفاته على وجه التفصيل ، ولا يثبتون
(١)
له إلا وجوداً مطلقاً لا تتعلق به صفة .

وإثبات تفاضل الصفات هو من لوازم إثبات الصفات ،
فمن أثبت الصفات لزمه إثبات تفاضلهما ، لأن إثباتات
التفاضل بين الشيئين ، فرع عن إثبات كل واحد
منهما بمعناه وما تضمنه من كمال ، فينظر في أيهما
أفضل وأكمل ، أما إذا كان الشيئان منفيين ، فلا
تفاضل بينهما ، لأنه لا وجود لهما أصلاً ، فلا كمال
ولافضلية هناك أصلاً حتى يمكن النظر في التفاضل ، ولذلك
فإنه يمتنع التفاضل بين صفات الله بناءً على مذهب
المعطرة الباطل من الجهمية والمعتزلة ونحوهم .

(١) انظر الرسالة التدمرية ٨ - ١١ و ٧٤ - ٧٥ .

المبحث الثالث : ما وقع من الشذوذ والباطل في هذا الباب :

قد ظهرت أقوال شاذة تمنع وقوع التفاضل في صفات الله ، وأعظم ما وقع الكلام فيه واشتهر: التفاضل في كلام الله عز وجل ، فمنع تفاضل كلام الله جمع من الناس ، واشتهر حتى توهم بعضهم أن هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة ، وظنوا أن القول بتفضيل كلام الله بعضه على بعض لا يمكن إلا على قول الجهمية من المعتزلة وغيرهم القائلين بأنه مخلوق ، أما أهل السنة فهم مجمعون على أن القرآن غير مخلوق، ولذا اعتقد هؤلاء أن ذلك يمنع وقوع التفاضل في صفات الله القائمة بذاته ، يقول ابن تيمية رحمه الله :- " ولأجل هذا الاعتقاد - (أي اعتقاد أن القرآن كلام الله غير مخلوق) - صار من يعتقده يذكر إجماع أهل السنة على امتناع التفضيل في القرآن كما قال أبو عبد الله بن الدراج في مصنفه في هذه المسألة ، قال : " أجمع أهل السنة على أن ما ورد في الشرع مما ظاهره المفاضلة بين أي القرآن وسوره

ليس المراد به تفضيل ذوات بعضها على بعض
إذ هو كلام الله وصفة من صفاته ، بل هو كله لله
فاضل كسائر صفاته الواجب لها نعت الكمال " وهذا
النقل للاجماع هو بحسب ما ظننه لازما لأهل السنة ، فلما
علم أنهم يقولون القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، وظن
هو أن المفاضلة إنما تقع في المخلوقات لا في الصفات ،
قال ما قال . وإلا فلا ينقل عن أحد من السلف والأئمة أنه
أنكر فضل كلام الله بفضله على بعض : لافى نفسه ،
(١)
ولافى لوازمه ومتعلقاته ، فضلا على أن يكون هذا إجماعا " .
وقال رحمه الله : " وربما نقل عن بعض السلف في
قوله تعالى : " نأت بخير منها " - البقرة ١٠٦ - أنه قال :
خير لكم منها ، أو أنفع لكم . فيظن الظان أن ذلك
القائل موافق لهؤلاء ، وليس كذلك ، بل مقصوده بيان
وجه كونه خيرا وهو أن يكون أنفع للعباد ، فإن ما كان أكثر
من الكلام نفعاً للعباد كان في نفسه أفضل ، كما بين في
(١) جواب أهل العلم والإيمان ٧٢ ، وأبن الدراج لم أعثر له بعد البحث
والتقصي على ترجمة .

موضعه . وصار من سلك مسلك الكلابية من متأخري
أصحاب أحمد ومالك والشافعي وغيرهم يظنون أن القول
بتفاضل كلام الله بعضه على بعض إنما يمكن على قول
المعتزلة ونحوهم الذين يقولون أنه مخلوق ، فإن القائلين
بأنه مخلوق يرون فضل بعضه على بعض فضل مخلوق
على مخلوق ، وتفضيل بعض المخلوقات على بعض لا ينگره
أحد . فإذا ظن أولئك أن القول بتفضيل بعض كلام الله
على بعض مستلزم لكون القرآن مخلوقا فروا من ذلك
وأنكروا القول به لأجل ما ظنوه من التلازم ، وليس الأمر
كما ظنوه ، بل سلف الأمة وجمهورها يقولون : إن القرآن
كلام الله غير مخلوق ، وكذلك سائر كلام غير الله
مخلوق . ويقولون مع ذلك : إن كلام الله بعضه أفضل
من بعض ، كما نطق بذلك الكتاب والسنة وأشار الصحابة
والتابعين من غير خلاف يعرف في ذلك عنهم .^(١) وقال ابن
تيمية رحمه الله " وفي الجملة فدلالة النصوص النبوية والآثار

(٢) جواب أهل العلم والإيمان ص ٥٣ .

السلفية والأحكام الشرعية والحجج العقلية على أن كلام

الله بعضه أفضل من بعض هو من الدلالات الظاهرة المشهورة»^(١).

وقد وقع في القول بمنع تفاضل كلام الله بعض أفاضل

العلماء ، كآبن جرير الطبري أحد أئمة المفسرين وقد

قال : " غير جائز أن يكون من القرآن شيء خير شيء ،

لأن جميعه كلام الله ، ولا يجوز في صفات الله تعالى ذكره

أن يقال بعضها أفضل من بعض وبعضها خير من بعض " .^(٢)

وكذا ابن حبان إذ قال : " كلام الله يستحيل أن يكون فيه

تفاوت التفاضل " . وقد نسب هذا القول لبعض الأئمة^(٣)

المتقدمين فقد روى عن سفيان بن عيينة قال محمد بن

نصر المروزي : " حدثنا أبو قدامة قال : سمعت سفيان بن عيينة^(١)

(١) جواب أهل العلم والإيمان ص ٥٦ .

(٢) التفسير ٣٨٣/١ .

(٣) الإحسان ٧٥/٢ .

(١) أبو عبد الله ، كان من أعلم الناس باختلاف الصحابة فمن بعدهم ، كان

عابدا ، وقال الحاكم فيه : امام عصره بلا مدافعة في الحديث ،

توفي سنة ٢٩٤ هـ - انظر سير أعلام النبلاء ٣٣/١٤ ، وتذكرة الحفاظ

٦٥٠/١ . وتاريخ بغداد ٣١٥/٤ ، وتهذيب التهذيب ٤٨٩/٩ .

يقول : كنت أقرأ هذه الآية فلا أعرفها (مانسخ من آية
أونسخها نات بخير منها) . أقول: هذا قرآن ، وهذا قرآن ،
فكيف يكون خيرا منها ؟ حتى فسر لى فكان بينا نات بخير
منها لكم ، أيسر عليكم ، أخف عليكم ، أهون عليكم ^(١) ، ونُسب
كذلك للإمام مالك ، قال القرطبي : ^(١) "اختلف العلماء فى تفضيل
بعض السور والآيات على بعض ، وتفضيل بعض أسماء الله الحسنى
على بعض ، فقال قوم : لافضل لبعض على بعض ، لأن الكل كلام
الله ، وكذلك أسماءه لامفاضلة بينهما ، ذهب إلى هذا الشيخ
أبو الحسن الأشعري والقاضى أبوبكر بن الطيب ، وأبو حاتم محمد
بن حبان البستي وجماعة من الفقهاء " قال : " وروى معناه عن
مالك ، قال يحيى بن يحيى : ^(ب) تفضيل بعض القرآن على بعض
خطأ ، وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو تردد دون غيرها ،
وقال عن مالك فى قول الله تعالى : (نات بخير منها أو مثلها)
قال : محكمة مكان منسوخة ، وروى ابن كنانة مثل ذلك كله عن

(١) السنة ٠٦٦ .

(أ) هو محمد بن أحمد الانصارى الخزرجى الأندلسى ، معشر ، وكان مالكا متعبدا
زاهدا ت ٦٧١ هـ . انظر شذرات الذهب ٣٣٥/٦ ، ومقدمة تفسيره ص (و)

(ب) هو يحيى بن يحيى بن أبى عيسى الليثى بالولاء ، أبو محمد ، عالم الأندلس
فى عصره ، رحل الى المدينة شابا ومسح الموطأ من مالك وعاد

الى الأندلس فنشر فيها مذهب مالك ت ٢٣٤ هـ . انظر سير أعلام النبلاء ١٠٩/١٠٩
وتهذيب التهذيب ٣٠٠/١١

مالك " قال " واحتج هؤلاء بأن قالوا : إن الأفضل يشعر
 بنقص المفضول، والذاتية في الكل واحدة وهي كلام الله، وكلام
 الله تعالى لانقص فيه ^(١) فماخذ هؤلاء في منعهم التفاضل
 في كلام الله وصفاته هو توهمهم أن القول بالتفاضل يشعر
 بنقص المفضول ولا تجوز نسبة النقص لصفات الله عز وجل،
 وهذا ظاهر كلام ابن جرير وغيره، قال ابن تيمية رحمه الله :
 " ومن حجة هؤلاء أنه إذا قيل بعضه أفضل من بعض
 كان المفضول ناقصا عن الفاضل، وصفات الله كاملة لانقص
 فيها والقرآن من صفاته ، قال هؤلاء : صفات الله كلها
 متوافرة في الكمال، متناهية إلى غاية التمام لا يلحق
 شيئا منها نقص بحال " ولذلك حملوا التفاضل الوارد في
^(٢)
 النصوص على تفاضل الأجر والثواب ونحو ذلك مما يتعلق
 بالصفة مما ليس منها ، ولذلك قال ابن حبان : " قوله
 صلى الله عليه وسلم : ألا أخبرك بأفضل القرآن ، أراد به

(١) تفسير القرطبي ١٠٩/١ ، وانظر البرهان في علوم القرآن ١/٤٣٨ .

والاقتان ١٩٩/٢ .

(٢) جواب أهل العلم والإيمان ٧١ .

بأفضل القرآن لك ، لا أن بعض القرآن يكون أفضل

(١)

من بعض " وقال في حديث الفاتحة أنه ما أنزل في

(٢)

التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور مثلها : " معنى

هذه اللفظة " ما في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن "

أن الله لا يعطي لقارئ التوراة والإنجيل من الثواب ما يعطي

(٣)

لقارئ أم القرآن " .

وقال ابن جرير في قوله تعالى : " ما ننسخ من آية أو ننسها

نأتى بخير منها " : " ما يخير منها في العاجل لخفته على

على من كلفه ، أو في الأجل لعظم ثوابه وكثرة أجره ، أو يكون

(٤)

مثلها في المشقة على البدن واستواء الأجر والثواب عليه " .

(١) الإحسان ٧٥/٢ .

(٢) انظر الحديث في الموطأ ٨٣/١ والمسند ١١٤/٥ وصحيح ابن

خزيمة ٢٥٢/١ ، وسنن الترمذى ١٤٣/٥ ، وسنن النسائى ١٣٩/٢ ،

والمستدرک ٥٥٧/١ .

(٣) الإحسان ٧٥/٢ .

(٤) التفسير ٢٨٢/١ .

وعلى هذا جرى جمع من المفسرين وشراح كتب الحديث والمؤلفين (٢)

(١)
في أصول الفقه عند كلامهم على النسخ . (٣)

فهذا قول بتفاضل متعلق الصفة أما ذات الصفة فلا تتفاضل.

وقد فند ابن تيمية رحمه الله دعوى أن في القول بتفاضل الصفات قول بنقص المفضول منها ، وبين أنه خطأ لا تدفع به دلالات النصوص ، وهو وهم غير صحيح ، فعبارات الله كلها فاضلة في غاية التمام والكمال ليس فيها نقص

(١) انظر تفسير القرطبي ٢٧٣/١ ، التفسير الكبير ٢٣٣/٣ ، البحر

المحيط ٣٤٤/١ ، تفسير النسفي ٦٨/١ ، تفسير البغوي ١٠٤/١ ،

تفسير الخازن ٢٦٧،٩٤/١ ، أحكام القرآن للجصاص ٥٩/١ .

(٢) انظر عارضة الأحوذى ٣/١١ ، وشرح مسلم للنووي ٩٣/٦ - ٩٤ ،

وعمدة القاري ٨١/١٨ .

(٣) انظر الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٩٥/٤ ، المغنى

في أصول الفقه للخيازي ٢٥٧ ، العدة في أصول الفقه

٠٧٩١/٣

أصلاً ، فالتفاضل فيها تفاضل بين صفات فاضلة
 كاملة لانقص فيها ولا عيب ، واستشهد رحمه الله بما بينه على
 الله عليه وسلم من أن كلتي يمين الرب مباركة ليس
 فيها نقص ولا عيب بوجه من الوجوه مع أن اليمين
 أفضلهما ، وبأن كل رحمة منه سبحانه فضل وكل
 نقمة منه عدل ورحمته أفضل من نعمته ، وهي تسبق
 غضبه ، وتغلب غضبه .
 (١)

وليست هذه الدعوى في واقعها إلا وهم فاسد ، وإلا فالمفاضلة
 بين المخلوقات الفاضلة لا تستلزم نسبة النقص والعيب للمفضول
 كالمفاضلة بين الأنبياء مثلاً ، فليس قولنا : إن نبياً
 أفضل من نبي دال على أن المفضول ناقص معيب ، مع
 كون الأنبياء مخلوقين والمخلوق قابل للنقص والعيب
 فإذا كان التفاضل لا يستلزم نقص المفضول وأنه معيب
 في المخلوقات التي تقبل النقص والعيب ، فكيف بالتفاضل في
 صفات الله التي لانقص فيها أصلاً ولا تقبل النقص .

(١) جواب أهل العلم والإيمان ٨٧ - ٩٨ .

وأما دعوى أن التفاضل إنما يكون في متعلق
المفظة من الثواب أو كونه أخف عملاً أو أشق أو نحو
ذلك مما ذكر ، فقد فندها ابن تيمية أيضاً بما يظهر
فسادها ، فأجاب مثلاً عن قولهم في الآية " نأت بخير
منها " أن الخيرية من جهة كونه أخف عملاً أو أشق
وأكثر ثواباً ، أو لكونه أنفع للعباد بأجوبة منها :

ـ أن " قول القائل : إنه ليس ببعض ذلك خيراً من
بعض بل بعضه أكثر ثواباً ، رد لخبر الله الصريح
فإن الله يقول : " نأت بخير منها أو مثلها " فكيف
يقال ليس ببعضه خيراً من بعض ؟ وإذا كان الجميع
متماثلاً في نفسه ، امتنع أن يكون فيه شيء خيراً
من شيء ، وكون معنى الخير أكثر ثواباً مع كونه
متماثلاً في نفسه ، أمر لا يدل عليه اللفظ حقيقة
ولامجاراً ، فلا يجوز حمله عليه ، فإنه لا يعرف قط
أن يقال هذا خير من هذا وأفضل من هذا مع تساوي
الذاتين بصفاتهما من كل وجه ، بل لابد مع إطلاق
(١)
هذه العبارة من التفاضل ولو ببعض الصفات .

- ثم : " لايجوز أن يراد بالخير من جهة كونه أخف عملا أو أشق أو أكثر ثوابا ، لأن هذين الوصفين ثابتان لكل ما أمر الله به مبتدأ وناسخا " قال : " فإذا كانت هذه الصفة لازمة لجميع الأحكام ، لم يحسن أن يقال : ما ننسخ من حكم نأت بخير منه أو مثله ، فإن المنسوخ أيضا يكون خيرا ومثلا بهذا الاعتبار ، فإنهم إن فسروا الخير بكونه أسهل ، فقد يكون المنسوخ أسهل فيكون خيرا ، وإن فسروه بكونه أعظم أجرا لمشتقه فقد يكون المنسوخ كذلك ، والله قد أخبر أنه لابد أن يأتى بخير مما ينسخه أو مثله فلا يأتى بدونه " (١)

إذا فلزم أن يكون خيرا في نفسه لا في ما تعلق به .

- " وأيضا فعلى ما قالوه ، لا يكون شيء خيرا من شيء ، بل إن كان خيرا من جهة السهولة ، فذلك خيرا من جهة الأجر " . (٢)

- ثم " يقال لهؤلاء : ما ذكرتموه حجة عليكم ، مع ما فيه من مخالفة النص ، وذلك أن كون الثواب على أحسن

(١) جواب أهل العلم والإيمان ٤٧ - ٤٨ .

(٢) جواب أهل العلم والإيمان ٤٨ .

القوليين أو الفاعلين أكثر منه على الثاني إنما كان
لأنه في نفس أفضل ، ولهذا إنما تنطق النصوص بأفضل
القول والعمل في نفسه ، كما قد سئل النبي صلى الله عليه
عليه وسلم غير مرة : أي العمل أفضل ؟ فيجيب
بتفضيل عمل على عمل ، وذلك مستلزم لرجحان ثوابه ،
وأما رجحان الثواب مع تماثل العاملين فهذا مخالف
(١)
للشرع والعقل .

هذا في جملة ردود قوية دامغة بسطها رحمه الله
في كتابه " جواب أهل العلم والإيمان بتحقيق ما أخبر
به رسول الرحمن من أن قل هو الله أحد تعمّد
ثلث القرآن " .

(٢)
ذلك ما وقع من الشذوذ في هذا الباب ، أما ما وقع

(١) جواب أهل العلم والإيمان ص ١٦٧ .

(٢) أعنى بالشذوذ : القول المبني على

اجتهاد في تفسير النص لا يدل عليه اللفظ البتة

ولابوجه من الوجوه لكنه غير مبني على أصل باطل أو على

قاعدة من قواعد أهل الضلال .

من الباطل فيه ،فهو منع تفاضل الصفات بناء على
 مذاهب باطلة وقواعد خالصة في الصفات ،كما هو
 (١)
 مذهب المعتزلة المنكرين للصفات كلها ،القائلين بأنه
 لا يوجد إلا الذات القديمة ،والقدم آخر وصف لها ،
 ولا يجوز أن يكون للذات صفة لأن صفة القديم قديمة ،
 ولو قلنا بالصفات لقلنا بتعدد القدماء ،وبناء على
 هذا المذهب يمتنع حصول التفاضل أصلاً إذ لا يتم
 حصول التفاضل في ذات مجردة عن جميع الصفات .

قال ابن تيمية : " من قال : إن صفات الرب لا تتعدد فهو
 يقول : العلم هو القدرة ، والقدرة هي الإرادة ، والسمع
 والبصر هو العلم " إلى أن قال : " ثم قد يقولون :
 إن الصفة هي الموصوف ، فالعلم هو العالم ، والقدرة هي
 القادر " قال : " ومعلوم أن في هذه الأقوال من
 مخالفة المعقول الصريح والمنقول الصحيح - بل مخالفة
 المعلوم بالاضطرار للعقلاء ، والمعلوم بالاضطرار من

(١) انظر مذهب المعتزلة في الصفات شرح الأصول الخمسة ١٥١ وما بعدها

ومقالات الإسلاميين ٤٨٣ وما بعدها وغيره من كتب المقالات .

دين الإسلام والرسول - ما بين أنها في غاية

(١)

الفساد شرعا وعقلا". وكذا مذهب الكلاية ، أتباع

عبدالله بن كلاب ، الذى يعتقد : " أن الله سبحانه

لم يزل متكلماً ، وأن كلام الله سبحانه صفة له

قائمة به ، وأنه قديم بكلامه ، وأن كلامه قائم به

كما أن العلم قائم به والقدرة قائمة به وهو قديم

بعلمه وقدرته ، وأن الكلام ليس بحرف ولا صوت ،

ولا ينقسم ولا يتجزأ ، ولا يتبعض ولا يتفاير ، وأنه معنى

واحد بالله عز وجل وأن الرسم هو الحروف المتفايرة

وهو قراءة القرآن " " وأن العبارات عن كلام الله

سبحانه تختلف وتتفاير وكلام الله سبحانه ليس بمختلف

ولامتفاير " " وإنما سمي كلام الله سبحانه عربياً لأن

الرسم الذى هو العبارة عنه وهو قراءته عربى ، فسمى

عربياً لعله ، وكذلك سمي عبرانياً لعله ، وهى أن الرسم

الذى هو عبارة عنه عبراني ، وكذلك سمي أمراً

(١)

لعللة ، وسمي نهيا لعللة ، وخيرا لعللة "

فهذا قول بأن كلام الله معنى واحد قائم بذات

الله لايتغير ، إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا ،

وإن عبر عنه بالعبرانية كان تورا ، وهكذا ، ووافقت

الأشاعرة الكلابية حتى لكان مذهبهما واحد ، فقالت:

إن كلام الله قديم قائم بنفسه ، وهو شيء

واحد لايتغير ولايتغير ، ويدل عليه الخطوط المصطلح ،

عليها بين أهل كل خط ، فيقوم الخط في الدلالة مقام

(٢)

النطق باللسان كما يقول الباقلاني ، ويقول الجويني:

" كلام الله تعالى واحد وهو متعلق بجميع متعلقاته

وكذلك سائر صفاته ، وهو العالم بجميع المعلومات

بعلم واحد ، والقادر على جميع المقدورات بقـدرة

واحدة ، وكذلك القول في الحياة والسمع والبصر

(٣)

والإرادة " .

(١) مقالات الإسلاميين ٥٨٤ - ٥٨٥ .

(٢) الإنصاف ١٠٦ - ١٠٧ .

(٣) الإرشاد ١٣١ .

وقال : " الكلام هو القول القائم بالنفس ، وإن رمتنا
تفصيلا فهو القول القائم بالنفس الذى تدل عليه
العبارات وما يطلع عليه من الإشارة " (١)
وذهب الكلابية والأشاعرة أن يقع التفاضل فى صفات
الكلام والقدرة والسمع والإرادة وسائر صفات الله
لأن كلا منها شئ واحد قائم بالذات لا يتغايـر
ولا يتعدد ، وليس لهم من دليل من كتاب الله ولا من
سنة رسوله ولا من عقل صحيح موافق للكتاب والسنة
وإنما بنوا مذاهبهم على دلالات عقلية لا يحتج بها
فى دين الله .

والرد على المعتزلة والكلابية والأشاعرة يكون
بنقض أصولهم التى بنوا عليها منع التفاضل فى صفات
الله وهو أمر يطول ذكره ويخرج بالبحث عنه ،
ولكن ابن تيمية رحمه نقض مذاهبهم بما لا يدع مجالا
للقول فى الفتاوى والمجلد السابع عشر منها فى موضوع

(١) الإرشاد ١٠٨ ، وانظر المواقف ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

وكان مما قاله في نقض قول الأشاعرة والكلابية :
" وجمهور العقلاء يقولون : ليست معانى " ثبت يدأبى
لهب " ، ولا معانى آية الدين معانى آية الكرسى ، ولا معانى
الخبر عن صفات الله هى معانى الخبر عن مخلوقات الله ،
وأن تعلق ذلك المعنى بالحقائق المخبر عنها ، والأفعال
التي تعلق بها الأمر والنهى ، إن كان أمرا وجوديا
فلا بد له من محل ، فإن قام بذات الله فقد
تعددت معانى الكلام القائمة بذاته ، وإن قام بذات
غيره كان صفة لذلك الغير لا لله ، وإن قام لا بمحل
كان ممتنعا فإن المعانى لا تقوم بأنفسها ، وإن كان
تعلق ذلك المعنى بالحقائق أمرا عديما لم يكن
هناك ما يميز بين الخبر والأمر والنهى ، بل لا
لا يميز بين خبر الله عن نفسه وعن قوم نوح وعاد
إذا كان المعنى الواحد لا تعدد فيه فضلا عن أن يمتاز

(٤) وهو الجزء الذى اشتمل على كتاب " جواب أهل العلم والإيمان " .

بعضه عن بعضى .

والحقائق المخبر عنها والمأمور بها والمنهي عنها لا تكون
بأنفسها مخبر بها ومأمورا بها ومنهيا عنها ، بل
الخبر عنها والأمر بها والنهي عنها هو غير ذواتها ،
فإذا لم يكن هنا أمر موجود غير ذلك المعنى
الذى لا امتياز فيه ولا تعدد وغير المخلوقات التى لا تميز
بين الأمر والنهي والخبر ، لم يكن هنا ما يميز بين
النهي والخبر ، ولا ما يجعل معنى آية الوضوء غير معنى
آية الدين ، فإن الحروف المخلوقة الدالة على
ذلك المعنى ان لم تدل إلا عليه فلا تعدد فيه ولا تنوع
وان دلت على التعلقات التى هي عدمية ، فالعدم ليس
بشئ حتى يكون أمرا ونهيا وخبرا ، وليس عند
هؤلاء إلا ذلك المعنى وتعلقه بالحقائق المخبر عنها
والمأمور بها ، ونفس القرآن العربى المخلوق عندهم
(هو) الدال على ذلك المعنى ، فالمدلول ان كان
هو ذلك المعنى لا يميز فيه أمر عن خبر ، ولا أمر

بصلاة عن أمر بزكاة ، ولا نهى عن الكفر عن
إخبار بتوحيد . وإن كانت التعلقات عدمية فالمعـدوم
ليس بشيء ، ولا يكون العدم أمرا ونهيا وخبراً ،
ولا يكون مدلول التوراة والانجيل والقرآن وسائر
كتب الله أمورا عدمية لوجود لها ، ولاتكون الأمور
العدمية هى التى بها وجبت الصلاة وحرم الظلم ،
ولا يكون المعنى الواحد بتلك الأمور العدمية إلا صفات
إضافية وهى من معنى السلبية ، فانها ان لم تكن
سلب أمر موجود فهى تعلق ليس بموجود ، فحقيقة
الأمر - على قول هؤلاء أنه ليس لله كلام لا معـان
(١)
ولا حروف إلا بمعنى واحد - لاحقيقة له موجودة ولا معلومة ،
وبيّن رحمه الله أن التفاضل لا يعقل إلا مع التعدد ،
وتعدد صفات الله وكلماته هو القول الذى عليه جمهور
المسلمين وهو الذى كان عليه سلف الأمة وأئمتها وهو
(٢)
الموافق لفطرة الله التى فطر عليها عباده .

(١) انظر جواب أهل العلم والإيمان ٧٠ - ٧١ .

(٢) " " " العلم والإيمان ١٥٥ .

وقد بين رحمه الله تاريخ هذه المقالة
ومنهاها وبيّن أن إنكار تفاضل كلام الله إنما
اشتهر القول به بعد المائتين لما أظهرت الجهمية
القول بخلق القرآن واتفق أئمة السنة وجماعهم
الامة على انكار ذلك ورده. فظنت طائفة كثيرة كابن
كلاب ومن وافقه أن رد هذا القول لا يمكن
إلا بما جاءوا به من البدع فردوا على البدعة
(١)
ببدعة مثلها وتركوا سبيل الكتاب والسنة.

(١) انظر جواب أهل العلم والإيمان ٥٢.

الكتاب الثاني

تَقَاتِلُ الْمُشْرِكِينَ

الفصل الأول

تفاهير الملك للدينار

الباب الأول

الفصل الأول : تفاضل الأنبياء وفضلهم .

المبحث الأول : مسائل تمهيدية :

المسألة الأولى : تعريف النبي والرسول وأصل اشتقاق

لفظيهما :

للعلماء في معنى النبي ثلاثة أقوال :

أحدهما : أن معناه المنبئ من الله المبلغ شرعه

على أنه مشتق من : نبأ مهموز الأصل،

ونبأ أصل يدل على الاتيان من مكان

إلى مكان ، ومنه سمي النبأ وهو

الخبر ، لأنه يأتي من مكان إلى مكان

، وبه سمي النبي لأنه أنبأ عن الله ،

أي أخبر عنه ، وقد أجازوا همزه وترك

الهمز تخفيفا ، وترك همزه هو الأجود

عند بعض أهل العلم ، بل قال سيبويه :

الهمز في النبي لغة رديئة ، يعنى لقلّة

استعمالها لا لأن القياس يمنع

ذلك .

وهذا القول فى معنى النبي هو الذى عليه أكثر

(١)

أهل اللغة .

وهو الأصح والأبسط ذلك أنه قد وردت قراءة سبعة

متواترة بقراءة " النبي " مهموزا ، وهى قراءة

(أ)

نافع ، قرا بها فى جميع القرآن .

قال الشاطبي :

وجمعنا وفردا فى النبىء وفى النبوة الهمز كل غير نافع أبدا

(٢)

(٣)

وقالون فى الأحزاب فى للبنى مع بيوت النبي الياء شدة مبدلا

(١) الصحاح للجوهري ٤٨٦/١٥ ، ولسان العرب ١٦٢/١ ، واشتقاق

أسماء الله ٢٩٣ - ٢٩٤ ، ومعجم مقاييس اللغة ٣٨٥/٥

، ومختار الصحاح ٦٤٢ والنهاية فى غريب الحديث ٣/٥ - ٤ .

(٢) الشاطبية ٣٩٠

(أ) هو نافع بن عبد الرحمن بن أبى نعيم ، أحد القراء السبعة ، ثقة

صالح ، انتهت إليه رئاسة القراءة فى المدينة وأقرأ الناس نيفاً

وسبعين سنة وتوفى سنة ١٦٩ بالمدينة ، انظر غاية النهاية ٣٣٠:٢ وسير

أعلام النبلاء ٣٣٦/٧

(ب) هو عيسى بن مينا بن وردان ، قارىء المدينة ونحويها ، أخذ

القراءة عن نافع وقد كان ربيبه وهو الذى سماه قالون وهى رومية

بمعنى جيد ، ٢٢٠ ، انظر غاية النهاية ١٦٧/١ وسير أعلام النبلاء ٣٢٦/١٠

أى أن نافعاً انفرد بهمز النبي فى جميع القرآن
 والبقية قرأوا بترك همزه إبدالاً وانفرد
 قالون عن نافع بترك الهمز فى سورة الأحزاب
 موافقاً فيهما بقية القراء.

وعليه ، فالنبي مشتق من نبأ مهموز الأصل .

القول الثانى : أن معناه مشتق من النبى وهو الارتفاع ،
 غير مهموز الأصل ، والنبي على
 هذا الاشتقاق معناه : المفضل على
 سائر الناس برفع منزلته ، فهو
 ارتفع على الخلق وعلا قدره
 فيهم .

وهو مذهب جماعة من أهل اللغة ولم يجيزوا همزه
 وخطأوه .^(١)

(١) انظر الصحاح ٤٨٦/١٥ ، ولسان العرب ٣٠٢/١٥ ، واشتقاق
 أسماء الله ٢٩٤ ومعجم مقاييس اللغة ٣٨٤/٥ .

القول الثالث : أن معناه مشتق من النبي بمعنى:

الطريق ، وسمي النبي به لأنه طريق

(١)
إلى الهدى .

والأقوال الثلاثة صحيحة في معنى النبي ،

وهي مؤلفة في حق الأنبياء - صلوات الله وسلامه

عليهم - ، وقد قال الراغب : " النبي بغير الهمز

أبلغ من النبي بالهمز لأنه ليس كل منبأ رفيع

(٢)

القدر والمحل " وفي هذا نظر ، إذ ما بلغ النبي

رفعة القدر إلا لكونه منبأ عن الله ، وليس هو

في جملة المنبئين بل يتميز عنهم ، ثم الهمز أصح

أصلاً لأنه لغة القرآن في أحد قراءاته ، وترك

(١) انظر الصحاح ٤٨٦/١٥ ، ولسان العرب ٣٠٢/١٥ ، ومعجم مقاييس

اللسان ٣٨٥/٥ ، وتفسير الطبري ٢٥١/١ ، ولوامع الأنوار البهية

٤٩/١ ، والمواقف ٣٣٧ .

(٢) المفردات ٤٨٢ .

الهمز أجود نطقاً فهو لغة القرآن فـ

باقى قراءاته ، ولأنه أوفق صرفاً كما

(١)

بينته كتب اللغة وهو أخف نطقاً .

أما الرسول فهو مشتق من رسل ، وهو أصل يدل

(٢)

على الانبعاث ، ولمعناه فى اللغة ثلاثة أوجه :

أحدهما : أنه مشتق من الإرسال بمعنى التوجيه ،

فالرسول هو المرسل الموجه من الله إلى

(٣)

البشر .

(٤)

الثانى : أنه بمعنى ذو رسول ، أى ذو رسالة ، إذ

تسمى الرسالة فى اللغة رسول ، وهو قريب

من الأول .

(١) انظر الصحاح ٤٨٦ / ١٥ ، ولسان العرب ١٦٢ / ١ ، و ٣٠٣ / ١٥

(٢) معجم مقاييس اللغة ٣٩٢ / ٢

(٣) انظر لسان العرب ٢٨٣ / ١١

(٤) انظر الصحاح ٣٩١ / ١٢

الثالث: أنه بمعنى الذى يتتابع عليه

(١)
الوحي، مشتق من رسل اللبىن، إذا تتابع،

وقيل بمعنى الذى يتابع أخبار الذى بعثه،

(أ)

قال الجوهرى: " قال أبوبكر بن الأنبارى فى

قول المؤذن أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد

أن محمدا رسول الله، قال: معنى أشهد أعلم

وأبين أن محمدا متابع للأخبار عن الله جل

وعز، قال: والرسول معناه فى اللغة الذى يتابع

أخبار الذى بعثه أخذ من قولهم: جاءت الإبلى

(٢)

رسلا: أى متتابعة".

(١) انظر مشارق الأنوار ٢/٣٢٠،

وأصول الدين للبغدادى ١٥٤.

(٢) المصاح ١٢/٣٩١.

(أ) هو محمد بن القاسم بن محمد، أبوبكر ابن الأنبارى

ت ٣٢٨ هـ، كان من أعلم الناس بالنحوب والأدب، وأكثرهم

حفظا له، وكان صدوقا فاضلا دينيا خيرا من أهل السنة ومسنفا

كتب كثيرة فى علوم القرآن. انظر تاريخ بغداد ٣/١٨١ وتذكرة

الحفاظ وطبقات الحنابلة ٢/٦٩ وما بعدها.

المسألة الثانية : الفرق بين النبي والرسول :

لقد دلت نصوص الكتاب والسنة على أن

بين النبي والرسول فرق ، فمن ذلك :

- قوله تعالى في صفة موسى عليه السلام: " وكان

رسولا نبيا " مريم ٥١ ، وفي صفة اسماعيل : " وكان

رسولا نبيا " مريم ٥٤ .

فهذان وصفان متغايران إذ لو كانا مترادفين لكان

في الكلام حشو يتنزه عنه كلام الباري سبحانه ،

وهو كقولك زيد فقيه شاعر كاتب ، فالمفردات

متغايرة متعددة وإن كان المتصف بها واحدا .

- وقال سبحانه : " وما أرسلنا من قبلك من رسول

ولانبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي

الشيطان " الحج ٥٢ ، فغاير سبحانه بينهما فالعطف يدل على المغايرة .

- وقال سبحانه : " الذين يتبعون الرسول النبي الأمي "

الأعراف ١٥٧ ، فغاير سبحانه بين وصفي الرسول

والنبي .

- وفي حديث أبي أمامة أن أباذر سأل النبي

صلى الله عليه وسلم :كم وفي عدة الأنبياء ؟ قال

صلى الله عليه وسلم : " مائة ألف وأربعة وعشرون

ألفا ، الرسل من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر

(١)

جما غفيرا " .

- وفي نفس حديث أبي أمامة هذا سأل أبوذر : يا نبي

الله أي الأنبياء كان أول ، قال صلى الله عليه وسلم :

" آدم " .

وفي حديث الشفاعة أن آدم يقول : " ائتوا نوحا

(٢)

فإنه أول رسول بعثه الله " .

(١) أخرجه أحمد ٢٦٦/٥ ، والحاكم ٢٦٢/٢ ، وقال علي شرط

مسلم ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في تخريج

المشكاة ١٥٩٩/٣ .

(٢) متفق عليه ، البخاري مع الفتح ١٠٦/٨ ، ومسلم ١٨٠/١ وانظر

الجامع المغير ١١٣/١ والدر المنثور ٩٤/٣ ، والوسائل في مسامرة

الأوائل ٦٠ .

فلو كان النبي رسولا لما صح كون نوح أول الرسل

وقبله آدم أول الأنبياء، وغيره من الأنبياء كشيث .

- وقال صلى الله عليه وسلم : " إن الرسالة والنبوة

قد انقطعت " ^(١) فغابر صلى الله عليه وسلم بينهما .

فهذه دلالة ظاهرة على التفريق بين الرسول والنبي،

إلا أنه قد ذهب بعض أهل العلم إلى نفي الفرق

بين النبي والرسول ، قال القاضي عياض : ^(١) " اختلف

العلماء هل النبي والرسول بمعنى أو بمعنىين ، ف قيل :

هما سواء " قال : " وقيل هما مفترقان " قال :

(١) أخرجه أحمد ٢٦٧/٣ ، والترمذي ٤٦٢/٤ ، والحاكم ٣٩١/٤ وقال

على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، وصح الحديث السيوطي

في الجامع ٨٠/١ والالبانى في صحيح الجامع ٠٦٧/٢

(١) هو عياض بن موسى اليمصبي البستي ، إمام أهل الحديث

في وقته وعالم أهل المغرب وتولى قضاء سبتة وقرطبة

توفي سنة ٥٤٤ هـ - انظر سير أعلام النبلاء ٢١٢/٢٠ ، وشذرات

الذهب ١٣٨/٤

"والذى عليه الجماء الغفير أن كل رسول نبى

(١)

وليس كل نبى رسولا ."

واستدل نفاة الفرق بين النبى والرسول بقوله سبحانه :

" وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فىنسخ الله ما يلقي الشيطان "الحج ٥٢ ، قالوا : قد أثبت لهما إلا رسال معا فلا يكون النبى إلا رسولا

(٢)

ولا الرسول إلا نبيا . وغاية ما فى هذا الاستدلال

إثبات الإرسال لهما ، وهذا لا يمنع المغايرة بينهما ،

فكلاهما مرسل وهما مع ذلك متغايران ، إذ الرسول

جمع بين النبوة والرسالة ، أما النبى فليس لـ

إلا النبوة دون الرسالة ، وظاهر نص الآية التفريق

بينهما بذكر الوصفين معا والعطف بالواو المقتضى التغاير .

(١) الشفا ٢٥٠/١ - ٢٥١ .

(٢) انظر الشفا ٥٠/١ .

وتفسير الرازى ٤٩/٢٣ ،

والمواهب اللدنية ١٩٢/١ وفيض القدير ١٥/١ .

(١) وقال أبو نعيم : " ومن جعل النبوة من الإنباء التسي

(١) هي الإخبار لم يفرق بين النبوة والرسالة "وعناية

ما في هذا المأخذ ، إثبات الإنباء لكل من النبي

والرسول ، ولكنه لا يمنع اختصاص الرسول بالإرسال مع

مشاركته النبي في الإنباء . والله أعلم .

(٢) هذا ، والمعتزلة على نفبي الفرق بين النبي والرسول ،

إلا أنه يبدو أنهم لم يجمعوا على ذلك فالزمخشري

(٣) فرق بينهما في الكشف وهو معتزلي .

(١) دلائل النبوة ٣٣٠

(٢) انظر شرح الأصول الخمسة ٥٦٨ ، وتفسير الرازي ٤٩/٢٣

والتعريفات ١١٠ .

(٣) انظر الكشف ٣٧/٣

(١) هو أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصماني ، قال الذهبي فيه

:"أحد الأعلام ، صدوق ، تكلم فيه بلا حجة" . توفي سنة ٤٣٠ .

انظر /ميزان الاعتدال ١١١/١ ، وطبقات الشافعية

٧/٣ .

تعيين الطرق بين النبي والرسول :

فالمحيح الذى تدل عليه النصوص هو التفريق

بين النبي والرسول ، ولكن ما هو الفرق بينهما ؟! وقد

(١)

تعددت الأقوال فى تحقيق الفرق بينهما ما هو على التعيين

وحاصل تلك الأقوال أن أيًا منها إنما يرجع إلى

التفريق بينهما من أحد جهتين :-

(١) - إما من جهة صفة الإحياء إلى النبي والرسول،

ومنها قول من قال : من أتاه جبريل بالوحي

عيانا وخاطبه مشافهة فهو الرسول، ومن أتاه الوحي

إلهاما أو مناما أو أخبره رسول فى عصره بنبوته

فهو النبي ، وغيره من الأقوال .

(١) انظر هذه الأقوال فى المراجع الآتية : تفسير البغوى

٢٩٢/٣ ، والكشاف ٧٣/٣ ، وتفسير القرطبى ٨٠/١٢ ، وتفسير الرازى

٤٩/٢٣ ، والتعريفات ٢٣٩ ، وأصول الدين ٥٤ / ، والملاقاة والبشر

١٣ ، وشرح الطحاوية ١٠٧ ، والمواهب اللدنية ١٩٢/١ ، ولوامع

الأنوار البهية ٤٩/١ ، وفيض القدير ١ / ١٥ - ١٦ وغيرها .

(٢) - وإما من جهة صفة التبليغ ، ومنها قول من قال : الرسول

هو الذى يبلغ شريعة جديدة والنبي يبلغ شريعة

من قبله ، ونحوه من الأقوال . ولا يخلو أي منها من

ماخذ يرده عليه ، فالنصوص دالة على أن كلا من النبي

والرسول يوحى الله إليه بأمر ونهى وخبر ، وأن كلا

منهما مأمور بتبليغ هذا الوحي سواء كان

وحيا بشريعة جديدة أم لا ، ولذلك فإن الفرق

الموافق لدلالة النصوص هو الذى قرره وشرحه

واستدل له شيخ الاسلام ابن تيمية فى كتاب

النبوات^(١) وحاصله :

أن النبي من أوحى إليه بأمر ونهى وخبر ، وأُمر

بتبليغه لقوم يؤمنون به ويعرفون أن ما جاء به

حق وأنه من الله ، كما يكون أهل الشريعة الواحدة

يقبلون ما يبلغه العلماء عن الرسول ، فمهمة الأنبياء

كمهمة العلماء .

(١) انظر النبوات ٢٢٥ - ٢٥٧ .

أما الرسول فهو من أوحى إليه وأرسل إلى مخالفيه
كفار لا يعرفون ما جاء به، فيدعوهم إلى توحيد الله
ويكذبونه، وتقع بينه وبينهم نزاع، وقد يكون له
اتباع منهم وقد لا يكون.

تنبيه

ثم كل من قال بالتفريق بين النبي والرسول يقول :
كل رسول نبي وليس كل نبي رسول ولا يكون الرسول إلا نبياً،
إلا ما كان من العز بن عبد السلام، فقد نقل عنه
(١)
الفيروز أبادي في كتاب " الصلوات والبشر فسي

(١) هو محمد بن يعقوب الشيرازي، صاحب القاموس، إمام
اللسان، اشتهر حتى كان مرجعاً في اللغة والحديث
والتفسير، ت ٨١٧ .

انظر مفتاح السعادة ١١٧/١ .

انظر الأعلام ١٤٦/٧ - ١٤٧ .

(١)

الصلاة على خير البشر " قوله في قواعده: " ما كل

رسول نبي ولا كل نبي رسول " وأرتضى الفيروز آبادي

ذلك وشرحه بما ملخصه : أن من أوحى إليه بوحىي

اختص به واقتصر عليه وحرم على غيره فهو

النبي، فإن أمر بتبليغه لغيره إما طائفة مخصوصة

كسائر الأنبياء وإما لعامة الناس فهو الرسول ،

فإن أمر بالتبليغ ولم يخص في نفسه بحكم مع

التبليغ فهو رسول لأنبي .

قلت : فهذا قول بإمكان رسالة
بلا نبوة وهذا عجيب ، ولا يحتاج بقول حتى يحتاج لـ

حجة ظاهرة من الشرع ، وما من رسول على سائر أحواله

سواء اختص بحكم في نفسه أم لا، إلا وهو مختص من بين سائر

الناس بالانبياء من الله والأنبياء عنه سبحانه وتعالى ، وتلك هي

النبوة إذ ليست النبوة اختصاص النبي بحكم في نفسه حرم

على غيره .

(١) ص ١٤ - ١٥ وقد تطلبت كلام العز في قواعد الاحكام المطبوع فلم أجده

فلعله في القواعد الكبرى الذي اختصره في المغرى كما فـ

طبقات الشافعية ١٠٣/٥ وانظر الاعلام ٢١/٤ . ولكن انظر قواعد الاحكام

ص ٢٣٧ فإنه يفهم من كلامه فيه ما نقله الفيروز آبادي .

المسألة الثالثة : صلة الإيمان الواجب على العبد بالأنبياء :

الإيمان بالأنبياء ركن من أركان الإيمان ، قال سبحانه : " آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفراق بين أحد من رسله " - القرة ٢٨٥ - وفى حديث جبريل المشهور لما سأل النبى - صلى الله عليه وسلم - عن الإيمان قال - صلى الله عليه وسلم - : " الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر " .
والإيمان بالأنبياء هو الإيمان بما ورد فيهم وعندهم فى كتاب الله وصحيح حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إجمالا فيما أجمل وتفصيلا فيما فصل ، وإليك أمثلة مما ورد فى شأن الأنبياء إجمالا :

(١) أخرجه الستة : صحيح البخارى مع الفتح ١١٤/١ ، ٥١٣/٨ ،

وصحيح مسلم ٤٠/١ ، وسنن الترمذى ٨/٥ ، وسنن أبى داود

٢٢٣/٤ ، وسنن ابن ماجه ٢٥/١ ، وسنن النسائى ١٠١/٨ .

١ - بين سبحانه أنه بعث أنبياء ورسل وأخبر

أنه قص بعضهم في كتابه ولم يقص بعضا،

قال سبحانه: "كان الناس أمة واحدة فبعث الله

النبیین مبشرين ومنذرين" البقرة ٢١٣ - وقال سبحانه

: "وكم أرسلنا من نبي في الأولين" الزخرف ٦ - وقال

سبحانه: "ورسلنا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلنا

لم نقصهم عليك" النساء ١٦٤ - وقال سبحانه:

"ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا

عليك ومنهم من لم نقص عليك" - غافر ٧٨ -

٢ - بين سبحانه أنه فضل بعض الرسل والأنبياء على

بعض، قال جل شأنه: "تلك الرسل فضلنا بعضهم

على بعض" - البقرة ٢٥٣ - وقال تعالى: "ولقد فضلنا

بعض النبيين على بعض" الأسراء ٥٥ -

٣ - بين سبحانه أنه بعث كسلا منهم بلسان قومهم،

قال تعالى: "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومهم

لنبين لهم" - إبراهيم ٤ -

٤ - بين سبحانه أنهم بعثوا بملة واحدة ، قال

جل وعز : " وما أرسلنا من قبلك من رسول ، إلّا نوحى

إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون " الأنبياء ٢٥ -

وقال جل وعلا : " ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا

أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت " - النحل ٣٦ - .

٥ - بين سبحانه أنه لم يرسل إلّا رجلا يوحى إليهم ،

فقال سبحانه : " وما أرسلنا من قبلك إلّا رجلا

نوحى إليهم من أهل القرى " - يوسف ١٠٩ - ، وقال

جل وعز : " وما أرسلنا من قبلك إلّا رجلا نوحى إليهم "

النحل ٤٣ - وقال جل وعلا : " وما أرسلنا قبلك إلّا رجلا

نوحى إليهم " - الأنبياء ٧ - .

٦ - أخبر سبحانه أنه مامن نبي ولا رسول إلّا استهزأ

به وكان له أعداء ، قال تعالى : " وماياتيهم من

نبي إلّا كانوا به يستهزئون " - الزخرف ٧ - ، وقال

عز وجل : " يا حشرة على العباد ماياتيهم من رسول

إلّا كانوا به يستهزئون " - يس ٣٠ - ، وقال سبحانه :

" ولقد كذبت رسل من قبلك " - الأنعام ٣٤ ، وقال

جل وعلا : " وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين "

- الفرقان ٣١ .

٧ - أمر سبحانه بالإيمان بهم على الإجمال دون تفريق ،

قال سبحانه : " ولكن البر من آمن بالله واليوم

الآخر والملائكة والكتب والنبيين " - البقرة ١٧٧ . وقال

تعالى : " فآمنوا بالله ورسوله " - النساء ١٧١ ، وقال عز

وجل : " آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون

كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله لانفراق

بين أحد من رسوله " البقرة ٢٨٥ - وقال سبحانه :

" والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين

أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله

غفورا رحيفا " - النساء ١٥٢ - ، وقال تعالى : " إن الذين

يكفرون بالله ورسوله ويريدون أن يفرقوا بين الله

ورسوله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون

أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا

وأعدنا للكافرين عذابا ألينا " النساء ١٥١ •

٨ - أمر سبحانه بالإيمان بما أوتي النبيون على الإجمال

دون تفريق بينهم ، قال سبحانه : " قولوا آمنا بالله

وما أنزل إلينا ... " إلى قوله " وما أوتي النبيون

من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون "

البقرة ١٣٦ - وقال تعالى : " قل آمنا بالله وما أنزل

علينا وما أنزل على إبراهيم واسماعيل وإسحاق

ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون

من ربهم لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون " آل عمران

• ٨٤

أما التفصيل ، فقد قص علينا سبحانه وتعالى عددا

من أنبيائه ورسله فأخبرنا بأسمائهم وأحوالهم مع

أممهم ومعجزاتهم وأخبارهم ، ومن أمثلة هذا

التفصيل ما قصه سبحانه من خبر آدم عليه السلام

وخلقه وإسجاد الملائكة له ثم إهباطه إلى الأرض

وسببه ، وكذا قصة موسى عليه السلا وولادته وربايته
 فى بيت فرعون، ثم خروجه من أرض قومه وسببه، ثم نكاحه
 ثم عودته ونبوته ورسالته، ثم خبره مع فرعون وقومه
 ونحو ذلك من أخباره ، وكذا قصة نوح قبله وبنائه
 السفينة وخبر الطوفان ، وقد فضل سبحانه أسماء
 عدد من أنبيائه فى كتابه فى نحو قوله سبحانه: " وتلك
 حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من
 نشاء إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له إسحاق ويعقوب
 كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذريتـــــــه داود
 وسليمان وإيـوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجــــــزى
 المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من
 الصالحين . وإسماعيل وإيسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا
 على العالمين . " الأنعام ٨٣ - ٨٦ . ونحو ذلك من التفاصيل
 الواردة فى شأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ،

المبحث الثاني : بعض أدلة التفاضل بين الأنبياء ووجوه جملة :

التفاضل بين الأنبياء ثابت بأدلة الشرع،

فمن الكتاب :

قوله سبحانه : " تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم

من كلم الله ورفع بعضهم درجات " - البقرة ٢٥٣ .

وقال سبحانه : " ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض

وآتينا داود زبوراً " - الاسراء ٥٥ - والأيمنان نصي

في التفاضل بين الأنبياء .

وقال سبحانه : " ولقد آتينا داود وسليمان علماً ،

وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده

المؤمنين " النمل ١٥ - ففي قولهما " كثير " تنبيه

إلى أن المفضل عليهما قليل، ووجه دلالة الآية :

أنهما عليهما السلام جعلا تفضيل الله لهما على

كثير من المؤمنين دون جميع المؤمنين مع كونهما

أفضل أهل زمانهما لأنهما أرادا بالبعض المستثنى
من المؤمنين من ثبت له ما ثبت لهم من النبوة
في الماضين كموسى وهارون ، فهو في التفاضل
بين الأنبياء ، قال ابن سعدى في تفسير الآية : " فحمدا
الله على جعلهما من المؤمنين أهل العادة وأنهما
كانا من خواصهم " ، قال : " ولشك أن المؤمنين أربع
درجات : المالحون ، ثم فوقهم الشهداء ، ثم فوقهم
المديقون ، ثم فوقهم الأنبياء ، وداود وسليمان من
خواص الرسل وإن كانا دون درجة أولى العزم الخمسة
لكنهما من جملة الرسل الفضلاء الكرام الذين نسوه
الله بذكرهم ومدحهم في كتابه مدحا عظيما فحمدا
(١)
الله على بلوغ هذه المنزلة " . وأول ما يدخل في
قولهما " فضلنا " تفضيلهما بالنبوة وهى أفضل مراتب
المؤمنين فلا يكون من يفضلهما إلا من الأنبياء .

(١) تيسير الكريم الرحمن ٥/٢٧٣ .

مارواه أبوهريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا ، وأرسلت إلي الخلق كافة ،

(١)

وختم بي النبيون " .

فقوله صلى الله عليه وسلم " فضلت على الأنبياء " دليل وقوع التفاضل بينهم .

وفي حديث المعراج دليل على تفاضل الأنبياء ، فإنه عليه الصلاة والسلام مر بأنبياء ، اختلفت الروايات في تعيين منازلهم في السموات فمر على آدم وعيسى ويحيى وإدريس ويوسف وهارون وإبراهيم وموسى كل في سما ، متفاضلون ، ويدل على أن تفاوتهم في منازلهم من السموات الوارد في حديث المعراج هو من

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٢٧١/١ .

التفاضل بينهم ما جاء في رواية عند البخاري:

"وموسى في السابعة بفضل كلام الله ، فقال موسى:

رب لم أظن أن ترفع عليّ أحدا، ثم علا (يعنى جبريل)

به (يعنى بالنبي صلى الله عليه وسلم) فوق ذلك بمـ

(١)

لا يعلمه إلا الله ."

والأمة مجمعة على أن بعض الأنبياء أفضل من

(٢)

بعض . وقد قال الخازن في قوله سبحانه : " تلك

الرسل فضلنا بعضهم على بعض " : " فيه دليل على

زوال الشبهة لمن أوجب التسوية بين الأنبياء في الفضيلة

(٣)

لاستوائهم في القيام بالرسالة " ، ولم أجد من قال

(١) صحيح البخارى مع الفتح ٤٧٨/١٣ ، وانظر روايات الحديث فيه

في ٤٥٨/١ و ٣٠٢/٦ ، ٣٧٤ ، ٤٦٧ ، و ٢٠١/٧ ، وفي صحيح مسلم ١٤٥/١

ومابعدهما .

(٢) تفسير الرازى ١٩٥/٦ ، وتفسير الخازن ٢٦٥/١ .

(٤) تفسير الخازن ٢٦٥/١ .

(١) هو على بن محمد بن ابراهيم الشيعى ، من علماء التفسير والحديث ، وأحد
فقهائى الشافعية ، كان خازن الكتب بالمدرسة السمساطية بدمشق ، توفي ٧٤١هـ

انظر الدرر الكامنة ٩٧/٣ ، والأعلام ٣/٥ .

بعدم التفاضل بين الأنبياء ، إلا ما قاله البغدادى :

(١)

" وزعم ضرار أنه لم يكن بعض الأنبياء أفضل

(١)

من بعض " إلا أنه قال فى موضع آخر : " كان ضرار

بن عمرو يقول : لا يجوز تفضيل بعضهم على بعض

(٢)

بمعينه " وليس هذا نفيًا للتفاضل بل

(ب)

للتعيين ، ونسب القسطلانى نفي تفاضل الأنبياء

(٣)

إلى مذهب المعتزلة ، ولم أجده فيما بين يدي

من كتب المقالات وكتب المعتزلة غير المذكور عن

ضرار، ورأيت الزمخشري نص على تفاضل الأنبياء فى

تفسيره آيتي البقرة والإسراء من الكشاف وهو

(١) أصول الدين ص ١٦٥

(٢) أصول الدين ص ٢٩٧

(٣) المواهب اللدنية ٤٢/٢

(أ) هو ضرار بن عمرو الغطفانى ، معتزلى جلد ، له مقالات

خبیثة - انظر ميزان الاعتدال ٢٢٨/٢ ولسان الميزان ٢٠٣/٣

(ب) هو أحمد بن محمد بن أبى بكر المصرى ، من علماء الحديث له شرح للمحيين ،

وكتب فى القراءات والتجويد والسيرة ، ت ٩٢٣ هـ . انظر الأعلام ٢٢٢/١

ومعجم المؤلفين ٨٥/٢

معتزلي ، قاله أعلم ، وهم مظنة أن يقولوا

ذلك ، وقولهم غير قاذح في الإجماع فإنه قول

من لا يعتد بقوله ولا يلتفت إليه .

وجوه التفاضل بين الأنبياء :

أسباب التفضيل بين الأنبياء لا يعلمها إلا الذي

فاضل بينهم سبحانه وتعالى إلا أنه نبهنا

سبحانه في كتابه وعلى لسان رسوله إلى شيء

من وجوه التفاضل بينهم .

فأولا : عرفنا من النصوص السابقة أن معنى التفاضل

بينهم في الجملة هو اختصاص بعضهم بما

ليس للآخر منهم ، فهم اشتركوا في

صفة خير لا تخطو من أحدهم تساوا فيها

فُضِّلوا بها على سائر البشر - كما

سيأتي بيانه في الفصل الثامن - ووقع

التفاضل بينهم في الأمور الزائدة على المشترك

بينهم، فهم اتركوا في النبوة ثم تباينوا في الفضائل بما منحهم الله منها ، هذا جملة ، وقد ورد في النصوص السابقة بيان بعض المتفاضلين والوجوه التي فضلوا بها ، فبعد أن ذكر سبحانه تفضيلهم على وجه الإجمال في قوله " تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض " وقوله : " ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض " قال سبحانه في الآية الأولى على وجه الالتفات بتخصيص بعض الفضائل بالذكر : " منهم من كلم الله ، ورفع بعضهم درجات وآتيناهم موسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس " وقال في الآية الثانية : " وآتيناه داود زبوراً " .

أما قوله " منهم من كلم الله " فالمراد به موسى عليه السلام إذ هو المشتهر بين الأنبياء بالتكليم وقد قال له سبحانه : " يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي " الأعراف ١٤٤ - وقال تعالى : " وكلم الله موسى تكليماً "

النساء ١٦٤ -

وأما قوله " ورفع بعضهم درجات " فهو محمد

- صلى الله عليه وسلم - كما سيأتى بيانه. ووجوه التفاضل

كما بينتها النصوص السابقة :

■ التفضيل بالتخصيص بمنقبة، كتكليم الله موسى، فمن خص

بمنقبة عظيمة من الأنبياء أفضل ممن لم يخص .

■ والتفضيل بالبينات والآيات كما قال سبحانه : " وآتينا

عيسى ابن مريم البينات " وقال صلى الله عليه وسلم :

" أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب " ، فمن كان

من الأنبياء أعظم آيات وأكثر معجزات كان أفضل .

■ والتفضيل بالتأييد بالملائكة ، كما قال سبحانه

في عيسى : " وأيدناه بروح القدس " وروح القدس هو

(١)

جبريل عليه السلام في أظهر الأقوال، فمن كان

تأييد الله له من الأنبياء بالملائكة أكثر وأظهر

كان أفضل ، وقال ابن سعدى في الآية : " وأيده

(١) انظر تفسير الطبري ٣٢٠/١ ، وتفسير القرطبي ٢٤٠٢ ، وتفسير

ابن كثير ١٢٣/١ ، وروح المعاني ٣١٧/١ ، وأضواء البيان ٦٩/١

وغيرها .

بروح القدس أى بروح الإيمان فجعل روحانيته فائقة
 روحانية غيره فحصل له بذلك القوة والتأييد وإن
 كان أصل التأييد بهذه الروح عاماً لكل مؤمن
 بحسب إيمانه كما قال " وأيدهم بروح منه " لكن
 (١)
 مالعيسى أعظم مما لغيره لهذا خصه بالذكر
 وعليه فكل من كان تأييد الله له من الأنبياء
 بالإيمان أعظم وأقوى كان أفضل .

* والتفضيل بالشرائع كما قال - صلى الله عليه وسلم -
 " وأحللت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض مسجداً وظهوراً "
 وكما قال سبحانه عن - محمد صلى الله عليه وسلم - فى
 شأن اليهود : " ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى
 كانت عليهم " - الأعراف ١٥٧ - وكما حكى الله قول عيسى
 لليهود : " وأحل لكم بعض الذى حرم عليكم " آل عمران
 ٥٠ - فكل من أوتى شريعة جديدة من الأنبياء فهو أفضل

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/١٥٠.

ثم كل من كانت شريعته أتم وأيسر فهو أفضل .

✽ والتفضيل بانزال كتاب ، كما قال سبحانه : "وأتينا

داود زبوراً " فمن أنزل عليه كتاب أفضل ممن

لم ينزل عليه كتاب ، ثم التفضيل بما فى الكتاب

من الشرائع ونحوها بين من أنزل إليهم

كتاب .

✽ التفضيل بالدرجات كما قال سبحانه : " ورفع بعضهم

(١)

درجات " يعنى مراتب متباعدة ووجوه متعددة .

✽ التفضيل بالمراتب فى السماء كما فى حديث المعراج .

✽ التفضيل بكثرة الاتباع كما فى حديث المحيحين أن

النبي - صلى الله عليه وسلم - عرضت عليه الأمم

فرأى النبي وليس معه أحد والنبي ومعه الرجل

والرجلان والنبي ومعه الخمسة والنبي ومعه الرهط والنفسر

(٢)

والنبي ومعه العشرة والنبي ومعه السواد العظيم .

(١) روح المعانى ٢/٣

(٢) انظر صحيح البخارى مع الفتحة ٤٠٥/١١ وصحيح مسلم ١/١٩٩ .

قال القاضي عياض في آية البقرة وآية الاسراء:

" قال بعض أهل العلم: والتفضيل المراد لهم هنا في الدنيا

وذلك بثلاثة أحوال : أن تكون آيته ومعجزاته أبهر

وأشهر أو تكون أمته أزكى وأكثر أو يكون في ذاته أفضل

وأظهر ، وفضله في ذاته راجع إلى ما خصه الله

به من كرامته واختصاصه من كلام أو خلق أو رؤية

(١)

أو ما شاء الله من ألطافه وتحف ولايته واختصاصه".

وقال ابن تيمية رحمه الله : " الرسول الذي ينشأ

بين أهل الكفر الذين لانبيوة لهم يكون أكمل من

غيره من جهة تأييد الله له بالعلم والهدى

(٢)

وبالنصر والقهر كما كان نوح وإبراهيم".

فهذه جملة من وجوه تفاضل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

(١) الشفا ٢٢٧/١ - ٢٢٨

(٢) الفتاوى ١٥/١٣١.

المبحث الثالث : التفاضل بينهم على التفصيل وفيه مسائل:

المسألة الأولى : التفاضل بين الأنبياء والرسل :

تقرر لدينا في المسألة الثانية من المبحث الأول

أن بين النبي والرسول فرق لدلالة النصوص على ذلك .

وهذه المسألة ثمرة لتلك ، فإن التفاضل إنما يكون في الفوارق بين المتفاضلين لا فيما تساوا فيه من كل وجه .

وفي التفاضل بين الأنبياء والرسل اتفاق على

أن الرسول أفضل من النبي يقول ابن كثير :

(١) " لا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء " وقال السفاريني:

" الرسول أفضل من النبي إجماعاً لتمييزه بالرسالة

(٢) التي هي أفضل من النبوة " .

(١) تفسير ابن كثير ٤٧/٢

(٢) لوامع الأنوار البهية ٥٠/١

وقد بدأ الله بذكر الرسول قبل النبي فـ

قوله " وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى
ألقى الشيطان في أمنيه فينسخ الله مالقى الشيطان " الحج ٥٢ ،
وقدم سبحانه الوصف بالرسالة على الوصف بالنبوة في قوله

في كل من موسى وإسماعيل عليهما السلام: " إنه كان رسولا

نبيا " مريم ٥١ ، ٥٤ - فلعل في هذا دلالة على فضل

الرسول على النبي ، إذ الترتيب كان قاضيا بتقديم

النبي على الرسول ، لأن النبوة تكون أولا ثم الرسالة ، ففي

تقديمها على النبوة إفادة معنى . ودلل الماوردي على
(أ)

فضل الرسول فقال " الرسول أعلى منزلة من النبي ولذلك

سميت الملائكة رسلا ولم يسموا أنبياء " (١) ولكن هذا

الاستدلال على القول بتفضيل الملائكة على الأنبياء وهو

مرجوح .

(١) أعلام النبوة ص ٣٨ .

(أ) هو علي بن محمد بن حبيب ، أبو الحسن الماوردي ، من قضاة

عصره البارزين ، ولي القضاء في بلدان كثيرة ثم جعل " قاضي

القضاة " ، كان يميل إلى مذهب الاعتزال في مسائل ، توفي ٤٥٠ هـ .

انظر طبقات الشافعية ٣/٣٠٣ - وشذرات الذهب ٣/٢٨٥ - ٢٨٦

ومن أوجه فضل الرسل على الأنبياء :

■ أن الرسالة في أمثلها قدر زائد على النبوة فهي نبوة
وزيادة ، فالرسل ساءوا الأنبياء في النبوة وفضلوا
عليهم بالرسالة - صلوات الله وسلامه على الجميع - ، يقول
القرطبي : " معلوم أن من أرسل أفضل ممن لم يرسل ،
فإن من أرسل فضل على غيره بالرسالة واستتوا في
النبوة " .

قال : " إلى ما يلقاه الرسل من تكذيب أممهم وقتلهم
(١)
إياهم وهذا مما لا خفاء فيه " وفي قول القرطبي
هذا وجه آخر من وجوه فضل الرسول على النبي . وذكر
ابن القيم طبقات المكلفين فجعل الطبقة الأولى مرتبة
أو لن العزم من الرسل ثم الطبقة الثانية من عداهم من
الرسل ثم قال : " الطبقة الثالثة الذين لم يرسلوا إلى
أممهم وإنما كانت لهم النبوة دون الرسالة فاختصوا

(١) تفسير القرطبي ٢٦٣/٣ .

بإيحاء الله إليهم وإرساله ملائكته إليهم ، واختتمت
الرسول عنهم بإرسالهم إلى الأمة بدعوتهم إلى الله
بشريعته وأمره واشتركوا في الوحي ونزول الملائكة
(١)
عليهم".

✽ ومن وجوه فضل الرسول على النبي: أن الرسالة تثمر
هداية الكافرين وإزالة الشرك، أما النبوة فتثمر
توجيه المؤمنين وصيانة أحكام الله فيهم ، وهذا
مستفاد مما ذكر من الفرق بين النبي والرسول
أن النبي يبعث في مؤمنين والرسول في كافرين ، ولا شك
أن هداية الكافر خير من تعليم المؤمن وفي كل
خير، قال - صلى الله عليه وسلم - لعلي رضي الله عنه
لما أمره بدعوة أهل خيبر إلى الإسلام : " فوالله
لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك ممن أن
(٢)
يكون لك حمر النعم "

(١) طريق الهجرتين ص ٢٥٠.

(٢) أخرجه البخاري ، الصحيح مع الفتح ٤٧٦/٧ ومسلم ١٨٧٢/٤.

وهذا الإجماع المذكور على فضل الرسول على النبي
واقع خلافا للعز ابن عبدالسلام كما يقول السفاريني^(١)
فإن العز قال : " إن قيل أيهما أفضل النبوة
أم الإرسال ؟ فنقول النبوة أفضل لأن النبوة إخبار
عما يستحقه الرب من صفات الجمال ونعوت الكمال، وهي
متعلقة بالله من طرفيها ، والإرسال دونها أمر
بالإبلاغ إلى العباد، فهو متعلق بالله من أحد
طرفيه وبالعباد من الطرف الآخر ، ولا شك أن ما يتعلق
من طرفيه أفضل مما يتعلق به من أحد طرفيه ، والنبوة
سابقة على الإرسال فإن قول الله لموسى : (إنى أنا
الله رب العالمين) مقدم على قوله : (اذهب إلى فرعون
إنه طغى) فجميع ما تحدث به قبل قوله : (اذهب إلى
فرعون) نبوة ، وما أمره بعد ذلك من التبليغ فهو
إرسال ، والحاصل أن النبوة راجعة إلى التعريف
بالإله وبما يجب له والإرسال إلى أمر الرسول

(١) لوامع الأنوار البهية ٥٠/١ ، ٣٠٠/٢ .

بأن يبلغ عنه إلى عباده أو إلى بعض عباده
ما أوجب عليهم من معرفته وطاعته واجتناب معصيته ،
وكذلك الرسول عليه السلام لما قال له جبريل : (اقرأ
باسم ربك الذي خلق) إلى قوله : (إلى ربك الرجعى)
كان هذا نبوة ، وكان ابتداء الرسالة حين جاء جبريل
(١)
بها أيها المدثر قم فأنذر) .

ويظهر من كلام العز بن عبد السلام حصره سبب تفضيله
النبي على الرسول في أمرين :-

الأول : أن النبوة متعلقة بالله من طرفيها ، والإرسال
متعلق بالله من أحد طرفيه وبالعباد من الطرف
الأخر .

الثاني : أن النبوة سابقة على الإرسال .

(١) قواعد الأحكام ص ٢٢٧ .

أما الأولى فإنه لم يعين الطرفين ماههما

على التحديد^(١) إلا أنه بنى ذلك على

تفريقه بين النبوة والرسالة بأن

النبوة تعريف الله نبيه به سبحانه

وبما يجباله ومثاله في كلامه قـول

الله لموسى عليه السلام " إني أنا

الله رب العالمين " وقول جبريل للنبي

- صلى الله عليه وسلم - " اقرأ باسم ربك

الذى خلق " والرسالة الأمر بالتبليغ، ومثاله

(١) ولعل مقصوده فيما أفهمه من بعض كلامه أن وحى النبوة

مقصود على التعريف بالله وصفاته ، فلا يبلغ النبي

العباد إلا ذلك وهذان هما الطرفان وحى متعلق بالله

وصفاته لا غير، وتبليغ للعباد متعلق بالله وصفاته لا غير

والرسالة فيها أمر بتشريع وعبادات يقوم بها العباد

فتعلقت بالعباد من جهة التبليغ ، وتعلقت بالأخذ عن الله

من جهة الوحي، لعله أن يكون المقصود ذلك، فإن يكنه فهو

في الفرق بين النبي والرسول، وهو غير مسلم فإن في وحى

النبوة أمر بأحكام وفي وحى الرسالة تعريف بالله

وصفاته إلا أنه يمنع كون ذلك مقصودا أن في كلامه ما يفهم منه أن النبي

لا يؤمر بالتبليغ والرسول يؤمر بالتبليغ .

قوله سبحانه لموسى عليه السلام " اذهب إلى
فرعون " وقوله للنبي صلى الله عليه وسلم " قم
فانذر " ، فكان النبوة على هذا وحي خاص
بالنبي لا يبلغه لغيره ، والرسول من أمر بالتبليغ
فرجع إلى قول من جعل الفرق بينهما
أن النبي من أوحى إليه بوحى ولم يؤمر
بتبليغه ، والرسول من أوحى إليه بوحى
وأمر بتبليغه ، وهو غير مسلم فإن
الإرسال ثابت لهما كما تقدم بيانه
في مسألة الفرق ، وثبوت الإرسال لهما
يجعل النبوة متعلقة بالله وبالعباد
كالرسالة فيكون السبب المذكور في تفضيل
النبي على الرسول منتقضا .

وأما الثاني .. فإن سبق النبوة دليل على

فضل الرسالة عليها لأنه لا يبلغ مرتبة الرسالة

إلا من كان نبيا فهي مرتبة شريفة تفضل مرتبة

النبوة ، فلا يبلغ مبلغ الرسول إلا من كان نبيا أولا .

ونبوة الرسول تكون إعدادا له للقيام بأعباء

الرسالة - وهذا مفهوم من كلام العز - فدل على

فضل الرسالة على النبوة .

وقد فهم السفاريني من كلام العز بن عبد السلام

تخصيصه فضل النبوة على الرسالة في حال اجتماعهما

في شخص واحد لأمطلقا قال السفاريني : " الرسول أفضل

من النبي إجماعا ، لتمييزه بالرسالة التي هي أفضل

من النبوة ، على الأصح خلافا لابن عبد السلام " إلى

أن قال : " ثم إن محل الخلاف فيهما مع اتحاد

محلتهما وقيامهما معا بشخص واحد أمام تعدد

(١)

المحل فلا خلاف في أفضلية الرسالة على النبوة

وقال في موضع آخر: "الرسالة أفضل من النبوة ولو

في شخص واحد، خلافا للعز ابن عبد السلام في

قوله أن نبوة النبي أفضل من رسالته لغمرها على

الحق تعالى، إذ هي الإحياء بما يتعلق بالباري جل

شأنه من غير ارتباط له بالخلق، أمام جمع تعدد

المحل فلا خلاف في أفضلية الرسالة على النبوة

ضرورة جمع الرسالة لها مع زيادة "قال: "على أن

(٢)

المصحح المعتمد. أفضلية الرسالة مطلقا".

وليس في كلام العز الذي وجدته ونقلته

إلا إطلاق تفضيل النبوة على الرسالة لا كما يذكر

السفارينسي إلا أن يكون وقف على غير ما وقعت عليه.

وفي حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه في

(١) لوامع الأنوار ٥٠/١

(٢) لوامع الأنوار ٢/٣٠٠ - ٣٠١

تعليم النبي - صلى الله عليه وسلم - له دعاء يقوله
 قبل النوم وفيه : " اللهم آمنت بكتابك الذى أنزلت
 ونبيك الذى أرسلت " قال عبادة " فرددها على
 النبي - صلى الله عليه وسلم - فلما بلغت : اللهم
 آمنت بكتابك الذى أنزلت ، قلت : ورسولك ، قال :
 لا ، ونبيك الذى أرسلت ^(١) ذكر ابن حجر وجوها
 فى تعليل نهى النبي صلى الله عليه وسلم عبادة من قول
 ورسولك الذى أرسلت ليقول ونبيك الذى أرسلت ، وكان
 مما قاله : " أو لأن لفظ النبي أمدح من لفظ الرسول
 لأنه مشترك فى الاطلاق على كل من أرسل بخلاف لفظ
 النبي فإنه لا اشتراك فيه عرفاً " وهذا فى عرف اللغة ^(٢)
 لا فى عرف الشرع ، بل وصف الرسالة فى عرف الشرع
 يستلزم وصف النبوة ، فالصحيح المتقرر أن الرسالة أفضل من
 النبوة ، والرسول أفضل من النبي فلفظ الرسول أمدح من لفظ
 النبي ، والله أعلم .

(١) أخرجه البخارى انظر صحيحة مع الفتح ٢٥٧/١ ومسلم فى الصحيح ٢٠٨٢/٤

(٢) فتح البارى ٣٥٨/١

المسألة الثانية : التفاضل بين الرسل :

تقرر في المسألة السابقة كون الرسل أفضل من الأنبياء ، ونبين في هذه المسألة أن الرسل يتفاضلون فيما بينهم أيضا .

قال سبحانه وتعالى : " تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتيننا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس " البقرة ٢٥٣ - فهذا نص في التفاضل بين الرسل خاصة ممن جملة الأنبياء ، فقد ذكرهم الله عز وجل نصوصا فقال : " تلك الرسل " ، ثم ذكر سبحانه رسلا مبيننا أوجه فضلهم .

وقال سبحانه : " ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض " الإسراء ٥٥ - والرسل داخلون في هذا الإطلاق وهو إطلاق يفهم منه تفاضل الرسل فيما بينهم فإنهم غير مانع من أن يكون الرسل من الأنبياء متفاضلون فيما بينهم .

وأفضل الرسل أولو العزم منهم، قال سبحانه وتعالى آمرا
 نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم - وهو أفضل الخلق : " فاصبر
 كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم " الأحقاف ٣٦ .
 فامتدحهم الله عز وجل بالعزم وخمهم بالذكر من بين
 رسله، وأمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم - وقد فضله
 على جميع خلقه أن يقتدى بهم .

يقول ابن تيمية رحمه الله : " أفضل أولياء الله هم أنبياءه ،
 وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ، وأفضل المرسلين أولو
 (١)
 العزم " وقال ابن كثير : " لا خلاف أن الرسل أفضل من بقية
 (٢)
 الأنبياء وأن أولى العزم منهم أفضلهم " .

ومعنى العزم الذى امتدحهم الله وفصلهم به : الحزم والصبر ،
 فإن العزم فى أصل اللغة دال على المريمة والقطع واجتماع
 (٣)
 القلب على الشيء ، وفى كتاب الله ما يدل على تفسير العزم
 بالصبر دلالة ظاهرة قال سبحانه : " وإن تصبروا وتتقوا
 فإن ذلك من عزم الأمور " آل عمران ١٨٦ ، وقال سبحانه :

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص ٧ .

(٢) التفسير ٤٧/٣ .

(٣) انظر معجم مقاييس اللغة ٣٠٩/٤ وتفسير الطبرى ١٦٠/١٦ .

حاكيا قول لقمان لابنه : " واصبر على ما أمرك إن ذلك من عزم الأمور " لقمان ١٧ ، وقال سبحانه : " ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور " الشورى ٤٣ ، وفي ذات الآية المذكور فيها أولو العزم بهذه الصفة ذكر الصبر فقد أمر الله فيها نبيه بالصبر اقتداءً بأولى العزم ففي صبرهم .

والمقصود بالصبر، الصبر على أمراء الرسالة وأمانته أداؤها وتحمل مشاقها، والصبر على أذى المرسل إليهم، مع الحزم في الدعوة وأداء الرسالة ، ونحوه من المعاني .

وأولو العزم هم بعض الرسل لأكملهم كما نقل عن بعض السلف ممن حَمَلَ " مِنْ " في الآية على التجنيس لا التبعية ، فإن (١) خروج بعض الرسل من أن يكونوا معنيين في الآية ثابت في كتاب الله ، فالله عز وجل أمر نبيه في هذه الآية بالاعتداء بأولى العزم ، ونهاه في آية أخرى عن أن يكون كصاحب الحوت يونس عليه السلام إذ قال سبحانه :

(١) انظر تفسير الطبري ٢٤/٢٦ ، وتفسير البغوي ١٧٦/٤ ، وزاد المسير ٣٩٢/٧ ، وتفسير القرطبي ٢٢٠/١٦ ، وتفسير ابن كثير ١٧٣/٤ .

"ولا تكن كصاحب الحوت" القلم ٤٨ ويونس عليه السلام رسول

قال سبحانه: " وإن يونس لمن المرسلين " الصفات ١٣٩٠

وقال: " وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون " الصفات ١٤٧ ،

(١)

وقبل أولو العزم هم كل الأنبياء عدا يونس عليه السلام وهو مرجح

بأمريين ورد الدليل بهما :

الأول : أن الآية نص في أنهم من الرسل لا من الأنبياء غير

الرسل .

الثاني : أن الله نفى العزم عن آدم عليه السلام وهو نبي ولم

يستثنه أصحاب هذا القول قال سبحانه : " ولقد

عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما " طه

١١٥٠

وما من شك أن الله لم يرسل رسولا إلا وهو ذو عزم

وجد في طاعة الله فيما اشتهه عليه ، ولكن خص

هؤلاء بالذكر والتفصيل لأنهم أعظم وأكمل عزمهم من

غيرهم ، والله أعلم .

(١) انظر تفسير البغوي ٤/ ١٧٦ ، وزاد المسير ٧/ ٣٩٣ ، وتفسير القرطبي

مطلب فى تعيين أولى العزم :

(١)
وقد اختلفت الأقوال فى تعيين أولى العزم من هم ،

ويمكن تصنيفها إلى قسمين :

الأول : قول من جعل التعيين بالصفة لالتسمية ،

كقول من قال :إنهم الذين امتحنوا فى ذات الله
فى الدنيا بالمحن فلم تزدهم المحن إلا جـدا فى
(٢)
أمر الله .

وقول من قال :إنهم الذين أمروا بالقتال فأظهروا
المكاشفة وجاهدوا الكفرة ، وهو مروي عن الشعبي
ومجاهد والسدي وغيرهم ، وقول من قال :إنهم الذين
(٣)
لم تصبهم فتنة من الأنبياء ، وهو مروي عن الحسن ،
(٤)
وقول من قال :إنهم العرب من الأنبياء ، قاله مجاهد
والشعبي . ولم تذكر للقائلين بما تقدم أدلة لما قالوه .
(٥)

(١) انظرها فى تفسير الطبرى ٢٤/٢٦ ، وتفسير البغوى ١٧٦/٤ ، وزاد المسير

٣٩٢/٧ ، وتفسير القرطبي ٢٢٠/١٦ والدر المنثور ٤٥/٦ .

(٢) انظر تفسير الطبرى ٢٤/٢٦ .

(٣) انظر تفسير البغوى ١٧٦/٤ ، وتفسير القرطبي ٢٢٠/١٦ وزاد المسير ٣٩٢/٧ .

(٤) انظر زاد المسير ٣٩٢/٧ .

(٥) انظر تفسير البغوى ١٧٦/٤ ، وتفسير القرطبي ٢٢٠/١٦ وزاد المسير ٣٩٢/٧ .

والثانى : قول من جعل التعيين بالتسمية ، وهى أقوال ،

ف قيل : هم الثمانية عشر المذكورون فى سورة
الأنعام - الآيات ٨٤ - ٨٦ - لقوله سبحانه فى عقب
ذكرهم " أولئك الذين هدى الله فبهداهم
اقتده " الأنعام ٩٠ . وهم ابراهيم واسحاق
ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب ويوسف
وموسى وهارون وزكرياء ويحيى وعيسى
والإسـ^(١) واسماعيل واليسع ويونس ولوط . وهو
قول يضعفه أمران :-

أحدهما أن فيهم أنبياء ليسوا برسل كاسحاق

ويعقوب وزكريا ويحيى وأولو العزم رسل .

ثانيهما أنهم لم يخلصوا تعييننا فى أمـ^{سـ}

سبحانه نبيه بالاقتداء بهم ، فقد قال سبحانه بعد

أن ذكرهم وقبل الأمر بالاقتداء " ومن آبائهم

وذرياتهم وإخوانهم واجتنبناهم وهديناهم

إلى صراط مستقيم " وقال كذلك : " أولئك

(١) انظر تفسير البغوى ١٧٦/٤ ، وتفسير القرطبي ٢٢٠/١٦ ، وزاد المسير ٣٩٢/٧

الذين آتيناهم الكتاب والحكمة والنبوة " ، فهو أمر
 بالاعتداء بهدى الأنبياء جملة ، قال ابن كثير فى قوله
 تعالى " أولئك الذين هدى الله فىهداهم اقتده " : " أولئك :
 يعنى الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء
 (١)
 والذرية والإخوان وهم الأشباه " .

وقيل : هم ستة : نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى
 عليهم السلام ، وهم المذكورون على النسق فى سورتي
 (٢)
 الأعراف والشعراء .

(٣)
 وقيل غير ذلك ، ولكن الأشهر المتداول فى كتب العلم أنهم
 خمسة وهم : محمد ، ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى
 عليهم الصلاة والسلام ، وهم الخمسة المذكورون نما فى
 قوله سبحانه : " وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن
 نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم
 ميثاقا غليظا " الأحزاب ٧ ، وفى قوله سبحانه : " شرع لكم

(١) التفسير ١٥٦/٢ ، وزاد المسير ٣٩٢/٧ .

(٢) انظر تفسير البغوى ١٧٦/٤ ، وتفسير القرطبى ٢٢٠/١٦ .

(٣) انظر المراجع السابقة والدر المنثور ٤٥/٦ .

من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا
 به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا
 فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه " الشورى ١٣ - فقد
 خصهم الله عز وجل بالذكر في هاتين الآيتين من بين
 الأنبياء ، وهو تنبيهه الى فضلهم على سائر الأنبياء ، وقد
 خصهم سبحانه بالذكر في ذكره أعظم الأمور وأفضلها
 وأعظمها ، وهو الميثاق الذى قال فيه " واخذنا منهم
 ميثاقا غليظا " ، والوصايا التى شرعها لخلقه ، وذلك ما أخذ
 على جميع النبيين وبعث به جميع النبيين ، وهو العهد الذى بيّنه
 الله وخلقته ، وهو إقامة دين الله وعدم التفرق فيه وإسلام
 الوجه له سبحانه والدعوة إلى ذلك والمجاهدة فى
 والموالاته فيه والبراءة فيه ، وهؤلاء الخمسة صلوات الله
 وسلامه عليهم أكمل وأعظم من قام بهذا الميثاق ، ولذا
 خصوا بالذكر ، وهم الذين تفرع الأمم إليهم فى المواقف
 يوم القيامة بعد أبيهم آدم فيتراجعونها حتى تنتهى
 إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - كما فى حديث الشفاعة .

(١) انظره فى صحيح البخارى مع الفتح ٣٩٥/٨ ، وصحيح مسلم ١/٦٣ .

والقول بأنهم هم أولو العزم، مروى عن ابن عباس وغيره من السلف رضوان الله عليهم، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: "خير ولد آدم خمسة نوح وإبراهيم وعيسى وموسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، وخيرهم محمد - صلى الله عليه وسلم وصى الله عليهم أجمعين وسلم". (١) قال أبو حاتم فى آية الأحزاب: "وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم": "أجمل النبيين ثم قال: "ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم" فأفردهم تفضيلاً لهم على سائر الأنبياء. (٢) يقول ابن القيم فى بيان طبقات المكلفين: "الطبقة الأولى وهى العليا على

(١) أخرجه البزار، انظر كشف الأستار ١١٤/٣ وقال الهيثمى "رجاله رجال الصحيح" المجمع ٢٥٥/٨، وكذا أخرجه الحاكم وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد وإن كان موقوفاً على أبي هريرة" ووافقه الذهبى، انظر المستدرک مع التلخيص ٥٤٦/٢، وأخرجه الديلمى فى الفردوس ٢٨٢/٢، وذكر السيوطى أن ابن عساكر أخرجه قال المناوى "فى التاريخ"

وصححه السيوطى - انظر الجامع الصغير ٨/٢ وفيض القدير ٤٧٠/٣.

(٢) كتاب النخيل ص (٤٠) -

(١) هو سهل بن محمد بن عثمان الجسمى السجستانى، من كبار علماء العربية ورواة الشعر ٢٤٨ هـ - انظر فهرست ٨٦، ووفيات الأعيان ٤٣٠/٢.

الإطلاق مرتبة الرسالة فأكرم الخلق وأخصهم بالرفق لديه
رسله " قال : " وأعلاهم منزلة أولو العزم منهم المذكورون
في قوله تعالى " شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي
أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى " هؤلاء
هم الطبقة العليا من الخلائق وعليهم تدور الشفاعة حتى
يردوها إلى خاتمهم وأفضلهم صلى الله عليه وسلم " قال :
" الطبقة الثانية : من عداهم من الرسل على مراتبهم من تفضيلهم
(١)
بعضهم على بعض " .

(١) طريق الهجرتين ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

مطلب : فى تفاصيل أولى العزم :

وقد ذكر الله عز وجل أولى العزم فى آيتي الأحزاب والشورى المذكورتين، وقد بدأ سبحانه فى الآيتين بذكر الطرفين أول الرسل وخاتمهم، وذكر بينهما الثلاثة مبتدأ بإبراهيم ثم موسى ثم عيسى بحسب ترتيب وجودهم عليهم الصلاة والسلام ، وقد بدأ سبحانه فى آية الأحزاب بذكر محمد - صلى الله عليه وسلم - لشرفه وفضله عليهم وذلك لأن فى الآية ذكر للنبيين فى الجملة تعميماً ثم خص سبحانه أفضلهم بالذكر بعد دخولهم فى العموم فناسب لذلك الابتداء بذكر محمد - صلى الله عليه وسلم - لكونه أفضل هؤلاء المفضلين، وفى الآية ذكر للميثاق المأخوذ على النبيين فهى متعلقة بالأنبياء خاصة ولذلك قدم - محمد صلى الله عليه وسلم - فى الذكر للوجه المذكور قال سبحانه : " وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم " الأحزاب ٧ - ، أما آية الشورى فمتعلقة بالشرعة التى بعثوا بها . ولذا بدأ سبحانه بنوح قبل

محمد عليهما الصلاة والسلام، لأن الآية في ذكر دين الإسلام وما وصى الله به الرسل، فناسب ذلك أن يبدأ بنوح، لأن رسالته أول الرسالات، ففيه بيان جلي أن أول رسالات الرسل أوصت بما شرع لأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - من الدين، فهو دين أصيل مستقيم لا عوج فيها ولا اضطراب، ثم ذكر سبحانه من بين من توسطوا بين محمد ونوح أشهر أصحاب الشرائع وأفضلهم . (١)

قال سبحانه : " شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه " الشورى ١٣ .

فمحمد - صلى الله عليه وسلم - هو أفضل أولى العزم بلا خلاف، يقول ابن كثير : " لا خلاف أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضلهم ثم بعده إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام على المشهور " يعنى (٢)

(١) انظر الأنموذج الجليل ٧٧/٢، وتفسير ابن كثير ٤٧٠/٣، وفتح الرحمن

٤٥٨، وروح المعاني ١٥٤/٢١ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٧/٣، وقال ابن كثير بعد ذلك : " وقد بسطنا به بدلائله في غير هذا الموضع " وقد بذلت جهدي في البحث في تفسيره وفي البداية والنهاية ولم أقف على هذا الموضع الذي أحال إليه هنا .

ابن كثير أن نوحا آخرهم في ترتيبهم في الفضل ،وقوله :

" على المشهور " كأنه إشارة إلى وجود خلاف في ترتيبهم في الفضل بعد محمد - صلى الله عليه وسلم - ،وقد قطع بأن ابراهيم بعده في الفضل في موضع آخر فقال في ابراهيم : " هو أشرف أولى العزم بعد محمد - صلى الله عليه وسلم " وقد نص السفاريني على اختلاف العلماء في من يلي النبي - صلى الله عليه وسلم - في الفضيلة منهم ، وذكر أن المشهور أنه ابراهيم ، قال :

" قد اختلف العلماء في من يلي النبي صلى الله عليه وسلم في الفضيلة منهم ، والمشهور واختاره ابن حجر في شرح البخاري أنه ابراهيم خليل الرحمن ، لما ورد أن ابراهيم عليه السلام خير البرية ، خص منه محمد - صلى الله عليه وسلم - بإجماع ، فيكون أفضل من موسى وعيسى ونوح عليهم السلام والثلاثة بعد ابراهيم أفضل من سائر الأنبياء والمرسلين ، قال الحافظ ابن حجر ولم أقف على نقل أيهم أفضل والذي ينقذ في النفس (٢) تفضيل موسى فعيسى فنوح عليهم الصلاة والسلام " .

(١) البداية والنهاية ١/١٧٠ .

(٢) اللوامع ٢/٣٠٠ وقد بذلت جهدي في الوقوف على مانسبه لابن حجر في الفتح فلم أعر عليه وبخاصة في مظانه من الفتح .

وذكر السيوطي أن الإجماع منقول على تقديم إبراهيم عليه السلام، فبعد أن ذكر أن النبي - محمد صلى الله عليه وسلم - أفضل خلق الله على الإطلاق قال: " فخليله إبراهيم يليه في التفضيل، فهو أفضل الخلق بعده، نقل بعضهم الإجماع على ذلك، وفي الصحيح خير البرية إبراهيم خي منه النبي - صلى الله عليه وسلم - فبقي على عمومته " قال السيوطي: " فموسى وعيسى ونوح الثلاثة بعد إبراهيم أفضل من سائر الأنبياء ولم أقف على نقل أيهم أفضل " .
(١)

وتعقب المناوي السيوطي في كلامه هذا فقال: " وفاته - (يعني فات السيوطي) - أن الفخر الرازي حكى الإجماع على تقديم موسى وعيسى على نوح فإنه قال في أصرار التنزيل: لانزع في أن أفضل الأنبياء والرسل هؤلاء الأربعة محمد وإبراهيم وموسى وعيسى " .
(٢)

(١) إتمام الدراية ١٧ بهامش مفتاح العلوم .

(٢) فيض القدير ٤٦٤/٣ .

(أ) هو محمد عبدالرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي ، بضم الميم كان منزولاً للبحث والتصنيف وكان قليل الطعام كثير السهر فمرض وجعل ولده يستملي منه تأليفه ، ت ١٠٣١ هـ .
انظر الأعلام ٢٠٤/٦ ، ومعجم المؤلفين ١٠/١٦٦ .

والحاصل أن النص دال على تفضيل محمد صلى الله عليه وسلم

والإجماع منعقد عليه. وكذا يدل

النص على أن إبراهيم يليه في التفضيل لحديث أنس قال:

قال رجل لرسول الله : يا خير البرية فقال رسول الله - صلى

(١)

الله عليه وسلم - " ذاك إبراهيم " ، وقال السيوطي ، وابن حجر

- كما نقله السفاريني عنه - أنهما لم يقفا على نقل أي الثلاثة

أفضل بعد إبراهيم عليه السلام ، ولكن النقل دال على

(٢)

تقديم موسى على عيسى عليهما السلام ففي أحاديث المعراج

أن النبي - صلى الله عليه وسلم - مربعيسى في السماء الثانية

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١٨٣٩/٤ ، وأبوداود في سننه

٢١٨/٤ ، وأحمد في المسند ١٧٨/٣ ، ١٨٤٠

(٢) تقدمت الإحالة قريبا على مواضع أحاديث المعراج المذكور فيها

درجات الأنبياء من المحييين.

ومر بموسى فى رواية فى السادسة، وفى أخرى فى

(١)

السابعة، يعنى فى منزلة أعلى من منزلة عيسى عليهم

(١) قدشكل بالرواية التى فيها أن موسى فى السابعة تفضيله على

ابراهيم لأنه مذكور فى ذات الرواية أنه فى السادسة، قال ابن حجر:

" ولكن المشهور من الروايات أن الذى فى السابعة هو ابراهيم

وأكد ذلك فى حديث مالك بن معصية بأنه كان مسنداً ظهره

الى البيت المعمور " الفتح ٤٨٢/١٣ وكذا ورد كون ابراهيم مسنداً

ظهره الى البيت المعمور فى روايات أخر كرواية ثابت البنانى

عن أنس، والبيت المعمور فى السابعة بلا خلاف .

ورواية أن ابراهيم فى السادسة وموسى فى السابعة وقعت من

طريقين فقط، من حديث الزهرى عن أنس عن أبى ذر، ومن حديث

شريك بن عبد الله عن أنس، أما حديث أبى ذر فقد قال فيه أنس:

ولم يثبت " يعنى أبادر " كيف منازلهم " فلاشك أن رواية

من أثبتها أرجح - (انظر الرواية فى البخارى مع الفتح ١/٥٨ و ٢٧٤/٦

وفى صحيح مسلم ١/١٤٨) -، وأما رواية شريك فإن مسلماً

رحمه الله أورد المسند من روايته ثم قال: " وقدم فيه

شيئاً وأخر وزاد ونقص " صحيح مسلم ١/١٤٨ فهى إشارة

الى اضطراب رواية شريك وضعف ضبطها (انظر فتح البارى

١٣/٤٨٢ - ٤٨٦) قال ابن كثير فى ابراهيم عليه السلام: " ثم هو

أشرف أولى العزم بعد محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو الذى

وجده عليه السلام فى السماء السابعة مسنداً ظهره بالبيت المعمور "

الصلاة والسلام ،فموسى أفضل من عيسى ،فبقي ترتيب نوح عليه

السلام هل هو مقدم عليهما أم مؤخر عنها أم هو بينهما ؟

== قال " وماوقع في حديث شريك ابن أبى نمير عن أنس في حديث الإسراء من ابراهيم في السادسة وموسى في السابعة فمما انتقد على شريك في هذا الحديث والصحيح الأول " البداية والنهاية ١٧٠/١ وانظر ٣١٣/١ . قال ابن حجر في شريك : " هو مختلف فيه فإذا تفرد عد مايفرد به شاذاً،وكذا منكرنا على رأى من يقول المنكر والشاذ شيء واحد " قال : " والأولى التزام ورود المواضع التى خالف فيها غيره والجواب عنها إما بدفع تفردده وإمّا بتأويله على وفاق الجماعة " الفتح ٤٨٥/١٣ ، وتفرد شريك مندفع فى هذه الجملة فقد وافقه الزهرى عن أنس عن أبى ذر فيها، إلا أن فى رواية الزهرى التنصيص على عدم ضبط المنازل ، ولكن فى رواية شريك مايدل على أنه ضبط كون موسى فى السماء السابعة فقد قال : " كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فوعيت منهم إدريس فى الثانية ... الخ " فقولاه " فوعيت " دال على ماذكرنا ، إلى أن قال : " وآخر فى الخامسة لم أحفظ اسمه " فدل على ضبطه الآخرين ، ثم قال : " وموسى فى السابعة بفضل كلام الله " قال ابن حجر " وهذا التعليق يدل على أن شريكا ضبط كون موسى فى السماء السابعة " الفتح ٤٨٢/١٣ ثم قال : " فقال موسى : رب لسم أظنن

==

ولانقل يدل على شيء من ذلك وليس الأمر مورد اجتهاد
وغاية ما يستطيع من اجتهاد بتأخير نوح الا استدلال بنصوص

== أن ترفع عليّ أحدا " وفيه زيادة ضبط ، ولكن الثابت في
جميع الروايات غير روايتي الزهري وشريك هاتين أن موسى
في السادسة و ابراهيم في السابعة ، فإن استقام جَمْعُ بينهما
وإلا فالأرجح رواية الجماعة ، وقد جُمِعَ بينهما ، قال
ابن حجر : " جُمِعَ بأن موسى كان في حالة العروج في السادسة
وابراهيم في السابعة على ظاهر حديث مالك بن معمر
وعند الهبوط كان موسى في السابعة ، لأنه لم يذكر في القصة
أن ابراهيم كلمه في شيء مما يتعلق بما فرض الله على
أمته من الصلاة كما كلمه موسى ، والسماء السابعة هي
أول شيء انتهى إليه حالة الهبوط ، فناسب أن يكون
موسى بها لأنه هو الذي خاطبه في ذلك كما ثبت في
جميع الروايات ، ويحتمل أن يكون لقي موسى في السادسة
فأمعد معه الى السابعة تفضيلا له على غيره من أجل كلام
الله تعالى ، وظهرت فائدة ذلك في كلامه مع المصطفى فيما
يتعلق بأمر أمته في الصلاة " الفتح ١٣ / ٤٨٢ .

غاية ما فيها إثبات منقبة لكل واحد منهم من غير

تخيير بين المناقب.

وتقديم أحدهما عليه أو تأخير عنه
- ملوات الله وسلامه عليهم أجمعين - بتفضيل منقبة على أخرى

مما لا يقبل اجتهادا حتى يقوم عليه دليل ، فالواجب

اعتقاده فضل نوح عليه السلام بعد إبراهيم على الجملة

من غير تعيين ترتيبه مع موسى وعيسى عليهم السلام ، فيكون

حاصل القول في تفاضل أولى العزم أن أفضلهم محمد

ثم يليه إبراهيم ثم نوح وموسى وعيسى .

وموسى أفضل من عيسى عليهم الصلاة والسلام أجمعين ، والله أعلم .

مطلب في ذكر بعض خصائص أولى العزم :

سيأتي الحديث في فضائل محمد - صلى الله عليه وسلم -
وخصائصه في المسألة الثالثة ، ونذكر هنا شيئا من
خصائص بقية أولى العزم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -
أما إبراهيم عليه السلام فمن فضائله وخصائصه عليه
السلام أنه خليل الرحمن لم يشاركه في الخلقة إلا محمد صلى الله
عليهما وسلم ، قال سبحانه : " ومن أحسن دينا ممن أسلم
وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ
الله إبراهيم خليلا " - النساء ١٢٥ - ، وقد جعله الله
عز وجل إماما للناس يقتدون به ويهتدون بهديه قال
سبحانه : " وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال
إني جاعلك للناس إماما " البقرة ١٢٤ - ، وقال سبحانه
: " إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من
المشركين " النحل ١٢٠ - قال سبحانه : " ومن يرغب عن ملة إبراهيم
إلا من سفه نفسه ولقد أصفينا في الدنيا وإنه في الآخرة
لمن الصالحين " البقرة ١٣٠ -

وقد أجرى الله على يديه بناء بيته الذي جعله قياما
للناس ومثابة وأمنا وعهد الله إليه ولابنه تبعاه له

تطهير البيت للطائفين والركع والسجود وأمر
 سبحانه المؤمنين باتخاذ مقامه مصلًى قال سبحانه : " وإذ
 جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم
 مصلًى ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي
 للطائفين والركع السجود " البقرة ١٢٥ وقال تعالى:
 " وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا
 تقبل منا إنك أنت السميع العليم " البقرة ١٢٧ .
 وقد حصر الله النبوة والكتاب في ذريته عليه
 السلام قال سبحانه : " ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في
 ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه
 في الآخرة لمن الصالحين " العنكبوت ٢٧ - فلم يأت نبي بعد
 إبراهيم إلا من ذريته ، وهو عليه السلام أول من يكسى يوم
 القيامة كما في المتفق عليه من حديث ابن عباس قال : قام
 فينا النبي صلى الله عليه وسلم يخطب فقال : " إنكم محشورون
 حفاة عراة غرلا - كما بدأنا أول خلق نعيده - الآية وإن
 (١)
 أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم " .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، انظره مع الفتح ٣٧٧/١١ ، ومسلم ٢١٩٤/٤ .

وقد جمع الله له منزلتين عظيمتين قال سبحانه " واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً " - مريم ٤١ -
فجمع له بين الصديقة والنبوة ، وفضائله أكثر من أن تحصر
عليه السلام وما علمناه غيض من فيض ما جهلناه في إبراهيم
عليه السلام .

وأمانوح - عليه السلام - فقد جاهد في الله حق جهاده
وهو أول رسول بعث في الناس بعد اختلافهم على دينهم
واجتيال الشيطان لهم ، وقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين
عاماً باذلاً وسعه في الدعوة إلى الله ليلاً ونهاراً سرا
وجهاراً ، صابراً على أذى قومه ، لا تثنيه عن الدعوة إلى ربه
سفاهاتهم وتعدياتهم ، قال سبحانه : " ولقد أرسلنا نوحاً
إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم
الطوفان وهم ظالمون ، فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها
آية للعالمين " العنكبوت ١٤ - ١٥ . وقال سبحانه في نوح :
" قال رب أنى دعوت قومي ليلاً ونهاراً . فلم يزدكم دعائى
إلا فراراً . وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى
آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ثم
أنى دعوتهم جهاراً ثم أنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً "

نوح ٧ - ١٠ وقال سبحانه عن قوم نوح : " قالوا يانوح
قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بماتعدنا إن كنت ممن
الصادقين . قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم
بمعجزين " هود ٣٣ - ٣٤ .

وأما موسى عليه السلام فهو كلیم الله اشتهر من بیــــن
الأنبياء بهذه الحلیة قال سبحانه : " وكلم الله موسى
تكليما " النساء ١٦٤ ، وقال سبحانه : " ولما جاء موسى لميقاتنا
وكلمه ربه ، قال رب أرني أنظر إليك " إلى أن قال :
" قال يا موسى إنني اصطفتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ
ما آتيتك وكن من الشاكرين " الأعراف ١٤٣ - ١٤٤ ، وقد ورد ذكر
تكليم الله موسى في مواضع من كتاب الله . وهو عليه
السلام المعني في قوله سبحانه : " تلك الرسل فضلنا بعضهم على
بعض منهم من كلم الله " في قول كافة المفسرين ، وقد ثبت تكليم
الله آدم عليه السلام في كتاب الله ، في نحو قوله سبحانه : " قال

(١) انظر سورة طه الآيات ١١ - ٣٧ ، ٨٣ - ٨٥ ، سورة الشعراء
الآيات ١٠ - ١٧ ، سورة النمل الآيات ٨ - ١٢ ، سورة القصص
الآيات ٣٠ - ٣٦ ، سورة النازعات الآيات ١٥ - ١٩ .

يا آدم أنبئهم باسمائهم " البقرة ٣٤ - وقوله : " وقلنا يا
يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيثما
شئتما " البقرة ٣٦ - ، وقوله : " فقلنا يا آدم إن هذا
عدوك ولزوجك.. " طه ١١٧ وما بعدها ، وظاهر هذا أنه كان
(١)
كفاحا بغير واسطة الملك . وفى حديث أبى ذر فى عدد
الأنبياء والرسل المتقدم ذكره أنه سأل النبى - صلى الله عليه
(٢)
وسلم عن آدم : أنبى مرسل هو ، فقال : " نعم نبى مكرم "
قال ابن عطية : " وقد تأول بعض الناس أن تكليم آدم كان فى
(٣)
الجنة فعلى هذا تبقى خاصية موسى " . وقد حمل بعضهم
قوله سبحانه فى سورة النجم " فأوحى إلى عبده ما أوحى "
(٤)
على أن الله أوحى الى محمد ليلة المعراج كفاحا بلا واسطة
فيكون تكليما ، وحمله الآخرون على أن الله أوحى الى محمد
(٥)
بواسطة جبريل فلا يكون تكليما ، قال ابن كثير : " وكـ

(١) انظر أضواء البيان ١/١٩٤ .

(٢) تقدم تخريجه والكلام عنه ، فى ص وهو صحيح .

(٣) المحرر الوجيز ٢/٢٧١ .

(٤) انظر تفسير الطبرى ٢٧/٢٨ ، وزاد المسير ٨/٦٧ وتفسير ابن كثير

٢٥٠/٤ والدر المنثور ٦/١٢٣ - ١٢٤ .

(٥) انظر المراجع السابقة وبقيّة كتب التفسير .

(١)
 المعنيين صحيح " كأنه يرى أن الأمرين قد وقعا وهو
 قد قال في قوله سبحانه " منهم من كلم الله " في آية
 البقرة مانصه : " يعنى موسى ومحمدا صلى الله عليهما وسلم وكذلك
 (٢)
 آدم " .

وإن صح تكليم الله محمدا صلى الله عليه وسلم - ليلة المعراج
 قد يُتأول أنه وقع في السماء فتبقى خاصية موسى عليه السلام .
 ومر من فضائله - عليه السلام - كونه في السماء السادسة ،
 (٢)

وقد آتاه الله عز وجل تسع آيات بينات إلى فرعون وقومه
 ظهرت بهن حجته وقامت بينته أيده الله بهن قال سبحانه :
 " ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات " - الإسراء ١٠١ ، وقال
 عز وجل : " وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء
 في تسع آيات إلى فرعون وقومه ، إنهم كانوا قوما فاسقين " النمل
 ١٢ .

وأما عيسى عليه السلام فاخص من بين سائر الخلق بأنسه
 ولد لأم من غير أب ، وإنما نفخ جبريل في درع جيب مريم
 فحملت بعيسى عليه السلام وتكلم في المهد وآتاه الله

(١) تفسير ابن كثير ٢٥٠/٤ .

(٢) المرجع السابق ٣٠٥/١ .

(٣) والآيات التسع هي : العصا واليد والسنين وخلق البحر والطوفان
 والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات .

من البنات ما فضله به في قوله : " تلك الرسل فضلنا
بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات
وأتينا عيسى ابن مريم البنات وأيدناه بروح القدس " البقرة
٢٥٢ - وقد حكى الله كلام عيسى في المهد فكان مآقاله
وتظهر فيه من فضائله عليه السلام غرر : " قال إني عبد الله
أتاني الكتاب وجعلني نبيا . وجعلني مباركا أين ما كنت
وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبرا بوالدي ولم
يجعلني جبارا شقيا . والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم
أبعث حيا " - مريم ٣٠ - ٣٣ . وقد قال سبحانه في ذكر سر
ولادة عيسى عليه السلام : " واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت
من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا
إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا . قالت إني أعوذ بالرحمن
منك إن كنت تقيا . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما
زكيا . قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا .
قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعل له آية للناس ورحمة
منا وكان أمرا مقضيا . فحملته فانتبذت به مكانا قصيا " الآيات مريم ١٦ - ٢٢

وكان من الآيات التي أتاهها الله عيسى عليه السلام
 ما ذكره سبحانه في قوله: " إذ قال الله يا عيسى ابن مريم
 اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم
 الناس في المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة
 والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ
 فيها فتكون طيرا بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني
 وإذ تخرج الموتى بإذني وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ
 جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين" -
 المائدة ١١٠ .

وقد رفعه الله عز وجل إليه، فهو حي في السماء وهو في
 الثانية كما في أحاديث الإسراء، قال سبحانه في تكذيب اليهود
 في دعواهم قتله عليه السلام: " وما قتلوه يقينا . بل رفعه
 الله إليه " النساء ١٥٧ - ١٥٨ ، وهذا من خصائصه - صلى الله عليه
 وسلم - إذ ليس في الأنبياء حي إلا هو .

وسينزل عليه السلام في آخر الزمان كما دل عليه الكتاب
 والسنة والإجماع، وهذا من خصائصه عليه السلام قال سبحانه: " وإن
 من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم
 شهيدا " النساء ١٥٩ .

وقد تواترت الأخبار عن النبي - صلى الله عليه وسلم - بنزول

(١)

عيسى عليه السلام، قال صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي

(٢)

بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا "

وقال - صلى الله عليه وسلم - : " كيف أنتم إذا نزل ابن

(٣)

مريم فيكم وإمامكم منكم " وأجمعت الأمة على نزوله عليه

(٤)

السلام آخر الزمان.

(١) انظر التنصيص على التواتر وبيانه في تفسير الطبري ٢٠٤/٣، وتفسير

ابن كثير ٥٧٨/١ وما بعدها، والنهاية ١٣٦/١ وما بعدها، ونظم

المتناثر ١٤٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه انظره مع الفتح ٤١٤/٤، ومسلم ١٣٥/١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، انظره مع الفتح ٤٩٠/٦، ومسلم ١٣٥/١.

(٤) انظر البحر المحيط ٤٧٣/٢ ولوامع الأنوار البهية ٩٤/٢.

المسألة الثالثة : تفهيم نبيينا صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق :

محمد - صلى الله عليه وسلم - هو أفضل الأنبياء على الإطلاق بل هو خير الخلائق أجمعين صلوات الله وسلامه عليه ، وقد جاءت في ذلك نصوص لا تحصى كثرة فيما أوحاه الله عز وجل في كتابه وعلى لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم - وفيما كتب وروي من أقوال الأئمة المهديين من السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين .

- قال سبحانه وتعالى : " تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منكم من كالم الله ورفع بعضهم درجات " البقرة ٢٥٣ ، والمعني بقوله " ورفع بعضهم درجات " محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن عباس والشعبي ومجاهد وغيرهم ، ^(١) قال الزمخشري في هذه الجملة من الآية : " أي ومنهم من رفعه على سائر الأنبياء فكان بعد تفاوتهم في الفضل أفضل منهم بدرجات كثيرة " قال : " والظاهر أنه أراد محمداً صلى الله عليه وسلم - لأنه هو المفضل عليهم حيث أوتي ما لم يؤته أحد " إلى أن قال : " وفي هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى ، لما فيهم من

(١) انظر تفسير الطبري ٢/٣ ، وتفسير البغوي ٢٣٦/١ ، وتفسير القرطبي ٢٦٤/٣ ، والدر المنثور ٣٢٢/١ .

الشهادة على أنه العلم الذى لا يشبه والمتميز الذى لا يلتبس،

ويقال للرجل: من فعل هذا، فيقول: أحكم أو بعفكم، يريد به

الذى تعرفوا واشتهر بنحوه من الأفعال، فيكون أفخم من

(١)

التصريح به وأنه بصاحبه " . وقد خص سبحانه فى الآية بالذكر

من وجوه التفضيل ، التفضيل بالآيات فقال : " منهم من كلم

الله " وقال : " وآتينا عيسى ابن مريم البينات " قال الزمخشري:

" وهذا دليل بين أن من زيد تفضيلا بالآيات منهم فقد

فضل على غيره، ولما كان نبينا صلى الله عليه وسلم هو الذى

أوتي منها ما لم يوت أحد فى كثرتها وعظمها، كان هو

(١)

المشهود له بإحراز قصبات الفضل غير مدافع " .

وذهب بعض المفسرين الى احتمال أن يراد بقوله " رفع بعضهم درجات "

(٢)

محمد وغيره على الإجمال إلا أنه (يتعين أن يكون المراد من البعض

هنا واحدا من الرسل معيننا لاطاثة، وتكون الدرجات مراتب من

الفضيلة ثابتة لذلك الواحد ، لأنه لو كان المراد من البعض جماعة

من الرسل مجملا ، ومن الدرجات درجات بينهم، لصار الكلام تكسرا

مع قوله فضلنا بعضهم على بعض، ولأنه لو أُريد بعضُ فضل

(١) الكشف ١٥١/١ - ١٥٢ .

(٢) انظر المحرر الوجيز ٢٧١/٢ ، وزاد المسير ٣٠١/١ وغيرهما .

على بعض لقال ورفع بعضهم فوق بعض درجات كما قال في

(١)

الآية الأخرى " ورفع بعضكم فوق بعض درجات " (بعد قوله ")

وهو الذي جعلكم خلائف الأرض " الأنعام ١٦٥ .

- وقال سبحانه " ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتيننا

داود زبوراً " الاسراء ٥٥ ذكر المفسرون أن الآية في محاجة

اليهود وأن المعنى : إنكم لم تنكروا تفضيل النبيين فكيف

(٢)

تنكرون فضل النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال الزمخشري : " قوله

(ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) إشارة الى تفضيل

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله (وآتيننا داود زبوراً) دلالة

على وجه تفضيله ، وهو أنه خاتم النبيين وأن أمته خير

الأمم لأن ذلك مكتوب في زبور داود وقال الله تعالى (ولقد كتبنا

في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) وهم

محمد وأمه (٣) .

- وقال - صلى الله عليه وسلم - " أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من

الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجدا

(١) مابين القوسين بنصه من تفسير التحرير والتنوير ٦/٣ .

(٢) انظر تفسير البغوى ١٢٠/٣ وتفسير الرازى ٢٣/٢٠ ، وتفسير القرطبى

٢٧٨/١ وتيسير الكريم الرحمن ١٤٣/٤ .

(٣) الكشف ٣٦٤/٢ .

وطهورا ، فأیما رجل من أمتی أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت

لي الغنائم وكان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الي

(١)

الناس كافة وأعطيت الشفاعة " .

- وفي رواية من حديث أبی هريرة : " فظلت على الأنبياء

(٢)

بست " فذكر أربعاً من الخمس المتقدمة ، إلا الشفاعة وزاد خملتين

هما : " أعطيت جوامع الكلم " و " ختم بي النبيون " فتحمل من

الروایتين سبع خصال .

(٣)

- ومن حديث حذيفة : " فضلنا على الناس بثلاث " وفي روايات

أن الخصائص أربع وروايات أنها اثنتین ، ويتحمل من مجموع

الروايات جملة من خصائصه صلى الله عليه وسلم التي فضل بها على

الأنبياء تزيد كثيراً على ما حدد في كل رواية من عدد ، ذكر

ابن حجر أنه ينتظم من الروايات سبع عشرة خلة قال : " ويمكن

أن يوجد أكثر من ذلك لمن أمعن التتبع " ونقل عن بعض أهل

العلم أن عدد الذي اختص به نبينا - صلى الله عليه وسلم - عن الأنبياء

(٤)

ستون خلة .

(١) متفق عليه ، أنظر صحيح البخارى مع الفتح ٥٣٣/١ ، وصحيح مسلم

٠٣٧٠/١

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٠٣٧١/١

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٠٣٧١/١

(٤) فتح البارى ٠٤٣٩/١

وأما اختلاف الروايات في تحديد العدد فإنه لاتعارض فيه

يقول ابن حجر في ذلك : " وطريق الجمع أن يقال : لعله

اطلع أولا على بعض ما اختص به ثم اطلع على الباقي ، ومن لا يرى

(١)

مفهوم العدد حجة يدفع هذا الاشكال من أصله " .

- وفي أحاديث الشفاعة من بيان فضله صلى الله عليه وسلم على

الأنبياء ما هو ظاهر ، وقد وصف النبي - صلى الله عليه وسلم -

ذلك اليوم بأنه يوم يرغب اليه فيه الخلق كلهم حتى ابراهيم

(٢)

عليه الصلاة والسلام .

- وقال - صلى الله عليه وسلم - " أتى باب الجنة يوم القيامة

فأستفتح فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ، فيقول : بك

(٣)

أمرت لا أفتح لأحد قبلك " .

(٤)

- وقال - صلى الله عليه وسلم - " أنا أكثر الأنبياء تبعا " وقال :

" لم يصدق نبي من الأنبياء ما صدقت وإن من الأنبياء نبيا ما يصدق

(٥)

من أمته إلا رجل واحد " .

(١) فتح الباري ١/٤٣٦ .

(٢) انظر حديث أبي بن كعب عند مسلم في صحيحه ١/٥٦٢ .

(٣) رواه مسلم في صحيحه ١/١٨٨ .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ١/١٨٨ .

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه ١/١٨٨ .

ولقد قال - صلى الله عليه وسلم - "أناسيد ولد آدم يوم

القيامة وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأول مشفع" .^(١)

وقال صلى الله عليه وسلم - " أناسيد الناس يوم القيامة " .^(٢)

ومن حديث أبى بكر الصديق فى الشفاعة أن عيسى عليه السلام يقول

للناس إذا أتوه يستشفعونهم : " انطلقوا الى سيد ولد آدم "

وفيه أن النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول فى دعاء شفاعة : "رب

خلقتنى سيد ولد آدم ولا فخر" .^(٣)

- وقال - صلى الله عليه وسلم - " أنا سيد ولد آدم ولا فخر " .^(٤)

وفى معنى " ولا فخر " قال ابن الجوزى : " قال ابن الأنبارى : المعنى

لا أتبجح بهذه الأوصاف وإنما أقولها شكرا لربى ومنبها

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ١٧٨٢/٤ .

(٢) أخرجه البخارى انظر صحيحه مع الفتح ٣٩٥/٨ ومسلم ١٨٤/١ .

(٣) رواه أحمد فى المسند ٥/١ ، والبزار انظر كشف الاستار ٦٩/٤ - ١٧٠

قال الهيثمى : "وأبو يعلى وقال : ورجا لهم ثقات " المجمع

٣٧٥/١٠ .

(٤) أخرجه أحمد فى المسند ٢٨١/١ ، وابن ماجه ١٤٤٠/٢ ، والترمذى

٥٤٨/٥ وانظر تحفة الأحوى ٣٨٢/١٠ وقال الترمذى هذا حديث حسن

صحيح ، ورمز السيوطى لحسنه فى الجامع ١٠٦/١ وصححه الألبانى فى

صحيح الجامع ٢١/٢ .

(١)

أمتى على إنعامه علي ، وقال ابن عقيل : إنما نفى الفخر الذي هو الكبر الواقع في النفس المنهي عنه الذي قيل فيه " لا يحب كل مختال فخور " لقمان ١٨ ، ولم ينف فخر التجميل بما ذكره من النعم التي يمثلها يفتخر ، ومثله قوله : " لا يحب الفرحين " القصص ٧٦ ، يعنى الأشرين ، ولم يُردّ الفرح بنعمة الله تعالى " وقد قال سبحانه : " قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون " يونس ٥٨ فأمر سبحانه بالفرح بفضلته .

وظاهر من النصوص أوجه تغضيله صلى الله عليه وسلم على الأنبياء فبعثته الى الناس كافة ، وشريعته أكمل الشرائع ، وهو أعظم الناس أمة ، وختم الله به النبوات ، الى غير ذلك من معجزاته عليه الصلاة والسلام فهو أكثر الأنبياء آيات ، وقد ذكر أن آياته صلى الله عليه وسلم تبلغ ألف أو أكثر . وقد نحى بعض أهل العلم الى المفاضلة بين معجزاته - صلى الله عليه وسلم - ومعجزات

(١) صفة الصفوة ١٨٣/١ ، وانظر فيض القدير ٤٢/٣ .

(٢) انظر دلائل النبوة للسبيهقى ٥٠٠/٥ والكشاف ١٥١/١ .

(١) هو على بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الظفري ، أبو الوفاء ، شيخ الحنابلة في عصره ، اشتغل بمذهب المعتزلة في حداشته وله كتب أعظمها " الفنون " ، ت ٥١٣ هـ . انظر طبقات الحنابلة - الذيل - ١٤٢/٤ ولسان الميزان ٢٤٣/٤ .

الأنبياء مبيناً في كل معجزة لنبي أن نبينا أوتي خيراً

(١)

منها .

(٢)

ولقد أجمعت الأمة على أنه - صلى الله عليه وسلم - أفضل الخلق،

وهو في كلام الأئمة سلفاً وخلفاً كثير، فمن ذلك ما نقل من عقيدة

الإمام أحمد إمام أهل السنة أنه " كان يعتقد أن محمداً

صلى الله عليه وسلم خير الرسل وخاتم الأنبياء والشهيد على

(٣)

الجميع " . وأنه " كان يقول إن بعض النبيين أفضل من

(٤)

بعض ومحمد صلى الله عليه وسلم أفضلهم " .

وعقد الإمام مسلم في صحيحه باباً قال : " باب تفصيل

(٥)

نبينا - صلى الله عليه وسلم - على جميع الخلق " .

(١) كما فعل أبو نعيم في الدلائل من ص ٥٣٧ - ٥٦٤

(٢) انظر تفسير الرازي ١٩٥/٦ وتفسير ابن كثير ٤٧/٣ ،

والشفا ٢٢٦/١

(٣) طبقات الحنابلة ٢٧٩/٢

(٤) طبقات الحنابلة ٣٠٦/٢

(٥) ١٧٨٢/٤

وعقيد الأجرى بابا فى كتابه " الشريعة " فقال : " باب

ذكر ما فضل الله عز وجل به نبينا صلى الله عليه وسلم فى

(١)
الدنيا من الكرامات على جميع الأنبياء " وقال الحافظ عبد الغنى

(ب)
المقدسى فى عقيدته : " فصل : ونعتقد أن محمد المطفى خير

الخلق وأفضلهم وأكرمهم على الله عز وجل وأعلاهم درجة

(٢)
وأقربهم الى الله وسيلة " .

ومما ينبغى أن يعلم أن ما اختص به بعض الأنبياء من الفضائل

كاختصاص موسى عليه السلام بالتكليم لا يقتضى /أفضليته على صاحب

المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرين - طوات الله

وسلامه عليه - ، فإن المفضل يجوز أن يختص بماليس للفاضل من غير

(١) الشريعة ٤٩٨ .

(٢) عقيدة الحافظ المقدسى . ضمن المجموعة العلمية السعودية ص ٥٢ .

(أ) هو محمد بن الحسين ، أبوبكر ، كان حافظا صنف كتباً فى علوم الحديث

ت ٣٦٠ هـ - انظر تاريخ بغداد ٢/٢٤٣ .

(ب) هو عبد الغنى بن عبد الواحد الجماعلى المقدسى ، حدث وصنف فى

الحديث تصانيف حسنة كان عابدا ورعا متمسكا بالسنة ، ت ٦٠٠ هـ ، انظر

تذكرة الحفاظ ٤/١٣٧٢ .

أن يفضل به بما اختص به ، وقع وقع نحو هذا في نبينا - صلى الله عليه وسلم - وبعض أتباعه من الصحابة رضوان الله عليهم وهم دون الأنبياء في الفضل، فهذا عمر - رضي الله عنه أخبره النبي - صلى الله عليه وسلم أن الشيطان ينفر منه قال صلى الله عليه وسلم - " والذي نفسى بيده ما ليك الشيطان قط سالكا (١) فجا إلا سلك فجا غير فلك "، وعرض له - صلى الله عليه وسلم - (٢) الشيطان في صلاته ولم ينفر منه كما في حديث أبي هريرة قال القرافي في هذا : " وأين عمر من النبي عليه السلام ، غير أنه يجوز أن يحمل للمفضل ما لا يحصل للفاضل " قال : " ومن ذلك أن الأنبياء صلوات الله عليهم أفضل من الملائكة على الصحيح ، وقد حصل للملائكة المواظبة على العبادة مع جميع الأنفس ، يلهم أحدهم التسبيح كما يلهم أحدا النفس إلى غير ذلك من الفضائل والمزايا التي لم تحصل للبشر ، ومع ذلك فالأنبياء أفضل منهم لأن المجموع الحاصل للأنبياء من المزايا والمحسن أعظم من المجموع الحاصل للملائكة فمن استقرى هذا وجده كثيرا " إلى أن قال : " فعلى هذه القاعدة تخرجت الإقامة والأذان وأن من خواصهما التي جعل الله تعالى

(١) أخرجه البخاري انظر الصحيح مع الفتح ٤١/٧ ومسلم ١٨٦٤/٤ .

(٢) انظره في صحيح البخاري مع الفتح ٤٥٧/٦ .

لهمما ان الشيطان ينفر منهما دون الصلاة وان الصلاة أفضل

منهما ولاتناقض في ذلك بسبب أن المفضول يجوز أن يختص

(١)

بماليين للفاضل " . فالحاصل أن نبينا صلى الله عليه وسلم أفضل

الخلائق ولا يلتفت الى غير هذا ، ولقد رزم قوم من منحولى النسبة

الى الاسلام أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يكن أفضل من ابراهيم

ولامن نوح ولامن آدم عليه السلام لأن الثلاثة آبائه ، وامتنعوا من

تفضيل الابن على الأب ، وفضلوه على كل نبي لم يكن أباً له . قال (٢)

البغدادى : " وقياسهم يقتضى أن لا يكون أفضل من ادريس ولامن اسماعيل

(٣)

لأنهم آبوا " ولم ينصوا عليهما ، فهم ينطقون عن جهل وسفه ،

وكذا يقتضى قياسهم أن يكون الأب الكافر المخذ في النار خير من الابن

المؤمن المخذ في الجنة كمن نزل فيهم قوله سبحانه : " لاتجد قوما

يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ولو كانوا آبائهم

أو ابنائهم أو اخوانهم أو عشيرتهم .. الآية - المجادلة ٢٢ .

(١) الفروق ١٤٤/٢ - ١٤٦ .

(٢) انظر أصول الدين ص ١٦٥ .

(٣) نفس المرجع السابق .

المسألة الرابعة : في تفاضل أحوال النبي الفرد :

لاشك أن أحوال النبي الفرد متفاضلة ، فالنبي بعد النبوة خير منه قبل النبوة هذا في الجملة ، قال سبحانه لنبيه —
— صلى الله عليه وسلم — " ووجدك ضالا فهدى " الضحى ٧ ، أى أنه كان عليه الصلاة والسلام لا يدري القرآن والشرعة ولا يعلم عن أمر —
النبوة حتى هداه الله إلى ذلك كما قال سبحانه : " وكذلك
أوحينا إليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان " الشورى ٥٢ ، وكما قال : " نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين " يوسف - ٣ .
ثم أحوال النبي بعد النبوة متفاضلة ولاشك ، ومن شواهد ذلك أن الله قد ذكر في كتابه ذنوبا وقعت من بعض الأنبياء وذكر مع ذلك توبتهم صلوات الله وسلامه عليهم منها كما قال سبحانه في آدم " وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى " طه ١٢١ - ١٢٢ ، ونحو ذلك مما ورد عن نوح وداود وغيرهم ولاشك أن حال التوبة والإنابة أفضل من الحال الأخرى كما ذكر ابن تيمية قول بعض السلف : كان داود عليه السلام بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة .^(٢) ومما من شك أن حال تلقى الوحي أشرف

(١) انظر تفسير البغوى ٤/٤٩٩ ، وتفسير القرطبي ٢٠/٩٦٠ وما بعدها .

(٢) انظر الفتاوى ١٠/٢٩٤ .

من غيرها من الأحوال ولذلك كان يعتريه - صلى الله عليه وسلم -

فيها ما لا يعتريه في غيرها حتى قالت عائشة رضي الله عنها : " لقد

رأيتُه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه
(١)

وإن جبينه ليتفصد عرقاً " . ولا شك أن حاله بعد تتابع

الوحي واعتياده له أفضل من حاله في أوائل البعثة

وقد رجف فؤاده - عليه الصلاة والسلام - ورعب من جبريل يوم نبى
(٢)

عليه السلام ويوم أرسل .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " كان رسول الله صلى الله

عليه وسلم أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين
(٣)

يلقاه جبريل " فهذا نص في تفاضل أحواله صلى الله عليه وسلم

حال النبوة .

(١) أخرجه البخاري في أول صحيحه انظره مع الفتح ١٨/١ ، ومالك في الموطأ

٢٠٣/١ ، وانظر صحيح مسلم ١٨١٦/٤ .

(٢) انظر صحيح البخاري مع الفتح ٢٢/١ و ٢٧ ، وصحيح مسلم ١٣٩/١ - ١٤٣ .

(٣) أخرجه البخاري انظر صحيحه مع الفتح ٣٠/١ ، ومسلم ١٨٠٣/٤ .

المبحث الرابع : توجيه النهى الوارد فى التفصيل بين الأنبياء :

تبين مما تقدم أنه لابد من اعتقاد التفاضل بين الأنبياء واعتقاد فضل الرسل على الأنبياء وفضل أولى العزم على بقية الرسل وفضل محمد - صلى الله عليه وسلم - على سائر الرسل والأنبياء طـوات الله وسلامه عليه، لقيام الأدلة الشرعية المريحة الصحيحة على ذلك، وقد ثبت عن النبى - صلى الله عليه وسلم - نهيه عن التفصيل بين الأنبياء، ونهيه عن تفضيله خاصة على بعض الأنبياء، وفى هذا إشكال يظهر لناظره ويزول لمتأمله، وقد خرج العلماء وجوها من القول فى توجيه ذلك النهى .

أما ماورد عن النبى - صلى الله عليه وسلم - فقد قال صلى الله عليه وسلم . " لا تخيروا بين الأنبياء " وفى رواية " لا تفضلوا بين الأنبياء " وهو واقع فى حديث أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : بينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جالس جاء يهـودى فقال : يا أبا القاسم ، ضرب وجهى رجل من أصحابك ، فقال : من ؟ " . قال : رجل من الأنصار . قال : " ادعوه " فقال : " أضربته ؟ " قال : سمعته بالسوق يحلف ، والذى اصطفى موسى على البشر ، قلت : أي خبيث، على محمد - صلى الله عليه وسلم - فأخذتنى غضبة ، ضربت وجهه ، فقال النبى - صلى الله عليه وسلم -

" لاتخيروا بين الأنبياء ... " الحديث وفي رواية " لاتخيرونى (١)
 من بين الأنبياء " وفي رواية " لاتفضلوا بين أنبياء الله (٢)
 وروى القصة أبوهريرة بنحوه إلا أنه قال : " لاتخيرونى على (٣)
 موسى " وفي حديث ثان قال صلى الله عليه وسلم - " لاينبغى لعبد (٤)
 أن يقول أنا خير من يونس بن متى " إلا أن النهي فى هذا (٥)
 الحديث يحتمل التأويل على وجهين :-

الأول : أن يكون المراد بقوله (أنا) : رسول الله صلى الله
 عليه وسلم - نفسه ، قال الخطابي : " وهذا أولى الوجهين (١)
 وأشبههما بمعنى الحديث ، فقد جاء من غير هذا الطريق
 أنه صلى الله عليه وسلم قال : " ماينبغى لنبي أن يقول
 إنى خير من يونس بن متى " فعم الأنبياء كلهم

(١) متفق عليه انظره فى البخارى مع الفتح ٧٠/٥ ، ومسلم ١٨٤٤/٤ .

(٢) أخرجه البخارى انظر صحيحه مع الفتح ٣٠٢/٨ و ٢٦٣/١٢ .

(٣) أخرجه البخارى انظر صحيحه مع الفتح ٤٥٠/٦ ، ومسلم ١٨٤٤/٤ .

(٤) متفق عليه انظره فى البخارى مع الصحيح ٧٠/٥ ، ومسلم ١٨٤٤/٤ .

(٥) متفق عليه من حديث ابن عباس انظر صحيح البخارى مع الفتح ٤٥٠/٦ .

ومسلم ١٨٤٦/٤ .

(أ) هو حمد بن محمد بن ابراهيم بن الخطاب البستى ، أبوسليمان ، فقيه
 محدث ، ولي القضاء فحمد فيه ، ت ٣٨٨ هـ . انظر سير أعلام النبلاء

(١)
فدخل هو في جملتهم".

الثاني : أن يكون إنما أراد صلى الله عليه وسلم بقوله " لا ينبغي
لعبد " من سواه من الناس، أي لا ينبغي للعبد القائل أن
يقول ذلك . (٢)

وقد دل على أن هذا هو الأولى في معنى الحديث جملة
من ألفاظ الحديث في عدد من رواياته في الصحيحين، ففي
رواية : " لأقول إن أحدا أفضل من يونس بن متى " (٣)
وفي رواية : " من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب " (٤)

(١) معالم السنن - بهامش المختصر - ٤٢/٧ ، والحديث بهذا اللفظ أخرجه
أبو داود في سننه ٢١٧/٤ من حديث عبد الله بن جعفر وفي سننه محمد
بن إسحاق بن يسار وهو من المشهورين بكثرة التدليس (انظر
تبیین المدلسین ص ٤٧ وتعريف أهل التقديس ص ١٢١) - فلا يحتاج
إلا بما صرح فيه بالسماع وقد روى هنا بالعفة فلا يحتاج به ، وأخرج
هذا اللفظ هذا اللفظ الطبراني أيضا من حديث عبد الله بن جعفر
كما في فتح الباري ٤٥١/٦ .

(٢) انظر معالم السنن ٤١/٧ ، وفتح الباري ٢٦٧/٨ ، وتحفة الأحوذى ١١٩/٩ و٥٤٢/١
(٣) متفق عليها ، انظرها في البخاري مع الفتح ٤٥١/٦ ،
ومسلم ١٨٤٤/٤
(٤) أخرجها البخاري انظر الصحيح مع الفتح ٥٤٣ و٢٦٧/٨

وفى رواية يقول صلى الله عليه وسلم : " قال - يعنى الله تبارك

وتعالى - لا ينبغي لعبدلى (وفى لفظ : لعبدى) أن يقول أنا خير

(١)
من يونس بن متى " .

والحاصل أن فى الحديثين ينهى صلى الله عليه وسلم عن التفضيل بين الأنبياء ، وعن تفضيله على موسى ويونس خاصة - على حمل الحديث فى يونس على أن النبى صلى الله عليه وسلم هو المراد - وهو صلى الله عليه وسلم أفضل منهم - ومن سائر الأنبياء - وجميع الخلق قطعاً كما تقدمت الدلائل عليه من الكتاب والسنة

والإجماع ، وفى هذا إشكال ظاهر ، وقد وجه العلماء ذلك

النهي لإزالة الإشكال فى أقوال متعددة ، منها :

١- أن النهي ورد قبل أن يعلم النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه

سيد ولد آدم وأفضل الأنبياء فلما علم أخبر به ، وأن النبى
(٢)
عن التفضيل منسوخ بالقرآن .

إلا أن فى هذا القول نظر كما يقول ابن كثير ، قال : " لأن هذا

(٣)
من رواية أبى سعيد وأبى هريرة ، وما هاجر أبو هريرة لإعمام

حينئذ متأخراً ، فيبعد أنه لم يعلم بهذا إلا بعد هذا والله
(٤)

أعلم " ، وهو كما قال ، بل والقول بالنسخ مردود ، فإن

(١) أخرجها مسلم فى صحيحه ١٨٤٦/٤ .

(٢) انظر الشفا ٢٢٦/١ ، وتفسير القرطبى ٢٦٢/٣ ، وشرح النووى لمسلم ٣٨/١٤ ، وفتاوى النووى ص ١٩٦ . وفتح البارى ٤٥٢/٦ وتفسير ابن كثير

• ٣٠٥/١

(٣) يعنى حديث قصة لطم الأنصارى لليهودى المتقدم ذكرها .

(٤) البداية والنهاية ٢٨٥/١ .

التفاضل بين الأنبياء وفضل أولى العزم من الرسل منهم
وتفضله صلى الله عليه وسلم على يونس، كل ذلك قد ورد في الآيات
المكية في سورة الإسراء والأحقاف والقلم وقصة حديث أبي سعيد
وأبي هريرة وقعت في المدينة، وكذلك الحديث الآخر في يونس
عليه السلام ورد من رواية أبي هريرة وابن عباس، وابن عباس
من صغار الصحابة توفي النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث
عشرة سنة وقد ورد أيضا من رواية عبدالله بن مسعود.

٢- أن النهي من باب التواضع وهضم النفس ونفي الكبر والتعجب.^(١)
قال القاضي عياض: " وهذا لا يسلم من الاعتراض " . وهذا التوجيه^(٢)
لا يتناسب مع قوله صلى الله عليه وسلم " فقد كذب " في رواية
" من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب " إن حمل الحديث
على أن المراد بقوله (أنا) رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا^(٣)
حمل على أن المراد به من سواه صلى الله عليه وسلم، فإن لهذا
التوجيه وجهه، خاصة مع قوله - صلى الله عليه وسلم " إن الله

(١) انظر تأويل مختلف الحديث ص ٧٩، والشفاء ٢٢٧/١، وشرح صحيح مسلم للنووي
٣٨/١٤ ، وتفسير القرطبي ٢٦٢/٣، وتفسير ابن كثير ٣٠٥/١ وفتح
البارى ٤٥٢/٦، ومعالم السنن بهامش المختصر - ٤١/٧.

(٢) الشفاء ٢٢٧/١.

(٣) انظر تحفة الأحوذى ١١٩/٩.

أوصى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد^(١) . ويكون مناسب أيضا مع قوله " ولا فخر " فـ في حديث " أنا سيد ولد آدم ولا فخر " المتقدم ذكره .

٣ - أن النهي عن تعيين المفضل ، أما تفضيل بعضهم على بعض في الجملة دون تعيين المفضل فهو دلالة النصوص ، قاله ابن عطية واستشهد له بقول صلى الله عليه وسلم " أنا سيد ولد آدم " بإطلاق دون تعيين . ونقل القرطبي قول من قال : (إن النهي اقتضى منع إطلاق اللفظ لamenع اعتقاد ذلك المعنى ، فإن الله أخبر بأن الرسل متفاضلون ، فلاتقول : نبينا خير من الأنبياء ، ولا من فلان النبي) اجتنابا لما نهى عنه ، وتادبا به وعملا باعتقاد ما تضمنه القرآن من التفضيل^(٢) " .

إلا أن في هذا التوجيه نظر لما الله عز وجل لما أخبر أنه فضل بعض النبيين على بعض في آية الإسراء ، وبعض الرسل على بعض في آية البقرة ، جعل يُعيّن في الآيتين بعض المتفاضلين

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٢١٩٩/٤ .

(٢) انظر المحرر الوجيز ٢٧٠/٢ ، وابن عطية هو عبدالحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربى الغرناطى مفسر فقيه أندلسى ، ت ٥٤٢ هـ .

انظر الأعلام ٢٨٢/٣ ومعجم المؤلفين ٩٣/٥ .

(٣) تفسير القرطبي ٢٦٢/٣ .

ويذكر بعض الوجوه التي فضلوا بها، فعم ثم خص كما هو

(١)

ظاهر من لفظ الآيتين وقد تقدم ذكرهما مرارا .

وقد عين الله عز وجل أولى العزم بالذكر وفضلهم على بقية

الأنبياء - كما تقدم -، والرسول أفضل من الأنبياء كما دل عليه

الدليل واتفق عليه العلماء، فالرسول أفضل من النبي وفي هذا

تعيين كما هو ظاهر، أما الإجمال في قوله - صلى الله عليه وسلم -

" أناسيد ولد آدم " فهو دال على التعيين أيضا، إذ شـبـوت

كونه - صلى الله عليه وسلم - أفضل من الأنبياء جملة دليل كونه

أفضل من كل واحد منهم مفصلا، هذا مع قيام دليل على التعيين

فلقد استدل العلماء بقوله تعالى " ولاتكن كصاحب الحـسـوت "

على أن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من يونس، وهذا شاهد

على التعيين، فالمراد بالنهي إذا غير هذا الوجه .

٤ - أن المراد بالنهي المنع من التفضيل من جهة النبوة التي هي خـلـة

واحدة لاتفاضل فيها فهم متساوون فيها وإنما التفاضل بالخصائص

(٢)

والمنع ونحوها . قال القرطبي : " وهذا قول حسن فإنه جمع بين

(٣)

الآي والأحاديث من غير نسخ " .

(١) انظر تفسير القرطبي ٢٦٤/٣ .

(٢) انظر الشفا ٢٢٧/١ وتفسير القرطبي ٢٦٢/٣، وشرح النووي لمسلم ٢٨/١٤

وفتاوى النووي ١٩٦ وعون المعبود ٤٢٥/١٢ .

(٣) تفسير القرطبي ٢٦٢/٣ .

وقال ابن قتيبة في حديث " لا ينبغي لعبدان يقول أنا خير من يونس بن متى " : " ويجوز أن يريد لا تفضلوني عليه في العمل فلعله أكثر عملا مني ولا في البلوى والامتحان فإنه أعظم (١) مني محنة " .

٥ - أن المراد بالنهي منع التفضيل من عند أنفسنا لأن مقام التفضيل إنما هو إلى الله . (٢) وروى عن أحمد بن حنبل - رحمه الله - أنه كان يمنع من المفاضلة بين الأنبياء مع قوله بأن بعضهم أفضل من بعض وأن محمدا أفضلهم لكنه يقول ليس تعيين التفضيل إلى أحد منّا . (٣)

٦ - أن المراد بالنهي منع التفضيل بمجرد الآراء والعصية . (٤) وهذا قد يؤول إلى سابقه .

٧ - أن المراد بالنهي منع التفضيل الذي يؤدي إلى الخصومة والتشاجر (٥) وذلك في مثل الحال التي تحاكم فيها اليهودي مع الأنصاري عند النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث أبي

(١) تأويل مختلف الحديث ٧٩ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣٠٥/١ وعون المعبود ٤٢٤/١٢ .

(٣) انظر طبقات الحنابلة ٣٠٦/٢ .

(٤) تفسير ابن كثير ٣٠٥/١ .

(٥) انظر شرح النووي لمسلم ٣٨/١٤ وفتاوى النووي ١٩٦ وتفسير ابن

كثير ٣٠٥/١ .

سعيد وأبى هريرة فهذا التوجيه ملائم لسبب ورود الحديث .

٨ - أن المراد بالنهي منع التفضيل الذى يؤدى الى توهم النقص

فى المفضول أو الغرض منه والإزراء به .^(١)

قال الخطابى فى النهي الوارد : " معنى هذا ترك التخيير
بينهم على وجه الإزراء ببعضهم ، فإنه ربما أدى ذلك
إلى فساد الاعتقاد فيهم والإخلال بالواجب من حقوقهم
وبغرض الإيمان بهم ، وليس معناه أن يعتقد التسوية بينهم
فى درجاتهم فإن الله سبحانه قد أخبر أنه قد فاضل
بينهم " ^(٢) وممن قال بهذا التوجيه ابن تيمية رحمه الله

وعليه حمل حديث أبى سعيد وأبى هريرة المذكور،^(٣)
وهو لاثق بحديث: " ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من
يونس بن متى " .

فقد ذكر أهل العلم أنه إنما خص يونس عليه السلام بالذكر
لما يخشى على من سمع ما قصه الله علينا من شأنه
وما كان من قلة صبره ، ونهي نبينا - عليهما الصلاة والسلام -
- عن أن يكون مثله ، من أن يقع فى نفسه تنقيص له ، فبالغ
- صلى الله عليه وسلم - فى ذكر فضليونس عليه السلام لسدد

(١) انظر الشفا ٢٢٧/١ ، وتفسير القرطبى ٢٦٢/٣ ، وشرح مسلم للنووى

٣٨/١٤ وفتاوى النووى ١٩٦ .

(٢) معالم السنن - بهامش مختصر سنن أبى داود - ٣٨/٧ - ٣٩ .

(٣) انظر الفتاوى ٤٣٦/١٤ .

(١)

هذه الذريعة . إلا أن هناك من خرج بهذه العلة للنهي عن
حدها فأطلق حكم النهي لمطلق هذه العلة ، فجعل النهي
مطلقاً لهذه العلة ، فقال كما نقل القرطبي : " لا يقال : النبي أفضل
من الأنبياء كلهم ولا من فلان ، ولا خير ، كما هو ظاهر النهي ، لما يتوهم
من النقص في المفضول ، لأن النهي اقتضى منع إطلاق اللفظ لا منع
اعتقاد ذلك المعنى ، فإن الله تعالى لما أخبر بأن الرسل متفاضلون
فلا تقول : نبينا خير من الأنبياء ، ولا من فلان النبي ، اجتناباً لما نهى
عنه وتاديباً به وعملاً باعتقاد ما تضمنه القرآن من التفضيل " .
(٢)

وظاهر هذا الكلام أن المراد من النهي - عند قائله - هو منح تعيين
المفضول ، لا تفضيل بعض النبيين على بعض في الجملة كما فُـسـِـي
آخر النقل ، وهذا مرده إلى القول الذي ذكرناه برقم (٣) ، ثم جعل
العلة من عدم تعيين المفضول هي دفع توهم نقص المفضول كما فُـسـِـي
أول النقل ، وظاهر هذا جعل تعيين المفضول موهماً نقصه ، هكذا
بهذا الإطلاق وهو خطأ ، ويكفي في الجواب عن القول بالأيقـُـال
النبي أفضل من الأنبياء أن يورد حديث أبي هريرة في الصحيح
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " فضلت على الأنبياء بسـُـت " .
(٣)
الحديث . والله أعلم .

(١) انظر الشفا ٢٢٧/١ ، ومعالم السنن - بهامش المختصر - ٤١/٧ ، وفتح

البارى ٤٥٢/٦ .

(٢) تفسير القرطبي ٢٦٢/٣ .

(٣) سبق تخريجه وهو في صحيح مسلم .

الفصل الثاني

الطفا، فتذكر بيني للأنبياء وبقية البشر

الفصل الثاني : المفاصلة بين الأنبياء وبالية البشر :

المبحث الأول : منزلة الأنبياء في البشر قبل نبواتهم :

لقد كان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم خيار أقوامهم وأفضلهم ، لهم فيهم المنزلة الأثيرة ، والدرجة الرفيعة من قبل نبواتهم ، إذ قد عصمهم الله عن القبائح والرذائل وعمّا يزيل الحشمة والوقار ويوجب الإزراء والتعيير ، ولذلك لم يحك الله عن المشركين المعادين للأنبياء أنهم عيروا أنبياءهم المبعوثين فيهم بمسبة ، أو ازدروهم بقبيح أو نسبوه إلى نقيصة ، مع شدة ما كانوا عليه من الحرص على النيل من الأنبياء والسخرية بهم ، وشدة حرصهم على تطلب ما يبرر رد نبواتهم ، بل لقد ذكر الله في كتابه أن قوم شعيب قالوا له عليه السلام : " أملاكك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء " ، إنك لانت الحليم الرشيد " هود ٨٧ ، فاعترفوا له بالرشد والحلم وقالوا : أنت حليم رشيد ، فلم تنهانا أن نفعل في أموالنا ما نشاء ؟ (١)

وحكى سبحانه قول قوم صالح : " يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا " هود ٦٢ أي كنا نرجو أن تكون فينا سيذا قبيل

(١) انظر زاد المسير ١٥٠/٤ ، وتفسير القرطبي ٨٧/٩ ، وذكر القرطبي أن

هذا - الذي ذكرته - هو أحسن ما قيل في تفسير الآية .

النبوة، وذكروا أنهم كانوا أرادوا تنصيبه ملكا عليهم ،^(١)
ولا يسؤدوه وفيه ما يقدح .

وكان مما قالوه أيضا لصالح عليه السلام كما حكى الله عنهم :
" إن نقول إلا اعتراك بعض آلہتنا بسوء " هو ٥٤ ومعنى
اعتراك : ألم بك بعد إذ لم يكن فيك ، فبرؤؤوه أن يكون فيه
قبل ذلك سوء في عقله ، فهو وصف منهم له بالرشد وكمال
العقل ، وهكذا الأنبياء كانوا في تمام عقل وكمال رشد من
قبل نبواتهم ، وقد قال سبحانه وتعالى في ابراهيم عليه السلام :
" ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنابه عالمين " الأنبياء
٥١ قال القرطبي : " أى من قبل النبوة " قال : وعليه أكثر أهل
التفسير ، قال : " (وكنابه عالمين) أى إنه أهل لإيتاء الرشده
(٢)
وصالح للنبوة " وقال ابن كثير : " يخبر تعالى عن خليله ابراهيم
عليه السلام أنه آتاه رشده من قبل ، أى من مغره ألهمه الحق
(٣)
والحجة على قومه " وقال ابن سعدى فى الآية أيضا : " أى أعطيناه
رشده واختصناه بالرسالة والخلة واصطفيناه فى الدنيا والآخرة

(١) انظر تفسير الطبرى ٢٨/١٢ ، وتفسير القرطبي ٥٩/٩ .

(٢) تفسير القرطبي ٢٩٦/١١ .

(٣) تفسير ابن كثير ١٨٢/٣ .

لعلمنا أنه أهل لذلك وكفه له لركائه وذكائه^(١)

وقال سبحانه في إبراهيم والأنبياء من ذريته عليهم السلام

" وجعلنا لهم لسان صدق عليا " مريم ٥٠ أي رزقناهم الثناء

الحسن والذكر الجميل من الناس^(٢) . ونحو هذا قوله سبحانه :

" واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار،

إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار " ص ٤٥ - ٤٦ قيل في معنى

قوله " إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار " : إن المراد بالدار:

الدنيا ، والمعنى : لتخلصهم^(٣) بالثناء الحسن عليهم .

وقال سبحانه : " واذكر اسماعيل وإسحاق والكفل وكل من الأخيار

ص ٤٨ - قال ابن سعدى : " يقول الذين لهم كل خلق كريم

وعمل مستقيم " . وهذا عام مطلق شامل لحالهم قبل النبوة وبعدها ،^(٤)

وقال صلى الله عليه وسلم عن نفسه : " ما هممت بقبيح مما كان أهل

الجاهلية يعملون به إلا مرتين من الدهر كلتاهما عصمتي الله

فيهما ، قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاية غنم

أهلنا ، فقلت لصاحبي : أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر

فيها كما يسمر الفتيان ، فقال : بلى ، قال : فدخلت حتى

(١) تيسير الكريم الرحمن ١١٩/٥ .

(٢) تفسير الطبري ٧٠/١٦ .

(٣) تفسير القرطبي ٢١٨/١٥ .

(٤) تيسير الكريم الرحمن ١٤/٧ .

إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفا بالغرابيل والمزامير،
فقلت : ما هذا ؟ فقيل : تزوج فلان فلانة ، فجلست أنظر، وضرب
الله تعالى على أذني ، فوالله ما أيقظني إلا من الشمس
فرجعت الى صاحبي ، فقال : ما فعلت ؟ قلت : ما فعلت شيئا ،
ثم أخبرته بالذي رأيت ، ثم قلت له ليلة أخرى :
أبصر لي غنمي حتى أسمر بمكة ، ففعل فدخلت فلما
جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة ، فسألت ، فقيل :
فلان نكح فلانة ، فجلست أنظر وضرب الله على أذني ، فوالله
ما أيقظني إلا من الشمس " قال صلى الله عليه وسلم : " فوالله
ما هممت بعدهما بسوء مما يعمله أهل الجاهلية حتى أكرمني
(١)
الله بنبوته " .

وفي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينقل الحجارة
مع قومه للكعبة وعليه إزاره فقال له العباس يا ابن أخي لو طلت
إزارك فجعلته على منكبيك دون الحجارة - وكان القوم يفعلون
ذلك - ، فحلَّ صلى الله عليه وسلم إزاره فجعله على منكبيه ، فسقط
مغشيا عليه ، فما رثي بعد ذلك عريانا طليسي الله عليه

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ، انظر الإحسان ٥٦/٨ ، والبزار ، انظر كشف
الاستار ١٢٩/٣ وقال الهيثمي " رجاله ثقات " مجمع الزوائد ٢٢٦/٨ ، وكذا
أخرجه أبونعيم في الدلائل ص ١٨٦ ، والبيهقي في الدلائل ٣٣/٢ ، وقال ابن حجر :
" هو حديث حسن متصل ورجاله ثقات " المطالب العالية ١٧٨/٤ وانظر الخصائص
الكبرى ٨٨/١

(١)
وسلم.

فأله عز وجل قد عصم أنبياءه من قبل النبوة عما يُصْغَرُ
أقدارهم ، ولذا كانت لهم في أقوامهم المنزلة السامية، ولهم
فيهم الذكر الحسن والثناء الجميل .

ولاغرو، فإن الله صنعهم على عينه، واصطنعهم لنفسه، كما قال
سبحانه في موسى عليه السلام : " ولتصنع على عيني " طه ٣٩ ، وقال :
" واصطنعتك لنفسى " طه ٤١ ، وهذا وإن كان في موسى إلا أن النبوة
جنس واحد .

ولقد أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن في أهل الجاهلية خيارا
وقال : " الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام
إذا فقهوا " قال النووي : " معناه أن أصحاب المروءات ومكارم
الخلائق في الجاهلية إذا أسلموا وفقهوا فهم خيار الناس " فـ (٣)
كان في الجاهلية قبل ظهور النبوة خيار ، فلا ريب أن الأنبياء
خير الناس قبل نبواتهم لا يوازيتهم في خيريتهم أحد منهم
ذلك أن الله قد اصطفاهم من بين سائر الناس للنبوة ، وقد قال
سبحانه : " الله أعلم حيث يجعل رسالته " الأنعام ١٢٤ ، والله لا يجعل

(١) انظر صحيح البخارى مع الفتح ٤٧٤/١ و٤٣٩/٣ و١٤٥/٧، وصحيح مسلم ٢٦٨/١

(٢) أخرجه البخارى انظر صحيحه مع الفتح ٥٢٥/٦ وانظر ٣٨٧/٦ و ٤١٤

و ٣٦٢/٨، وصحيح مسلم ١٨٤٧/٤

(٣) شرح النووي لمسلم ١٣٥/١٥

رسالته إلا في المواضع الشريفة ، ولا ينيطها إلا بالأطهار ، قال
أبو نعيم : " إن الأحسن في سير الملوك ، والأحمد في حكمهم ، أنهم
لا يرسلون مبلغاً عنهم إلا الأفضل ، المستقل بأثقال الرسالة ، قد
ثقت به خدمته وخرجته أيامه ، والعقول تشهد أن مثله مقيضاً
مرتاداً عند المرسل لمثله في الإبلاغ والتأدية عنه ، قاله الحكيم
القدير لا يختار للرسالة إلا المتقدم على المبعوث إليهم ، المزين بكل
المناقب ، ولهذا لم يوجد نبي قط به عاهة في بدنه أو اختلاط
في عقله ، أو دناءة في نسبه ، أو رداءة في خلقه ، وإليه رجع
(١)
قوله عز وجل " الله أعلم حيث يجعل رسالته " وقال ابن القيم :
(٢)
" فالله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وميراثاً ، فهو أعلم
بمن يصلح لتحمل رسالته فيؤديها إلى عباده بالأمانة والنصيحة
وتعظيم المرسل والقيام بحقه والصبر على أوامره والشكر لنعمه والتقرب
(٣)
إليه ومن لاصح لذلك " .

فالأنبياء هم خيار الناس من قبل نبواتهم .

(١) دلائل النبوة ص ٣٤ - ٣٥ .

(٢) يقصد بالميراث وراثة الرسل والقيام بحمل ما بلغوه عن ربهم وخلافتهم فيه .

(٣) طريق الهجرتين ص ٩٧ .

المبحث الثانى : حقيقة النبوة :

النبوة منزلة سامية لاتبلغها فى فضلها منزلة
مما يهبه الله لعباده ، فإنها إنباء عن الله وواسطة
بينه وبين خلقه فى تبليغهم مراده وشرعه ، وحقيقة النبوة
أنها نعمة من الله يمن الله بها على من يشاء من عباده
باختياره سبحانه واصطفائه ، قال تعالى : " أولئك الذين أنعم
الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية
ابراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبننا " مريم ٥٨ ، وقال تعالى :
" الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس " الحج ٧٥ ، وقال تعالى :
" وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار " ص ٤٧ ، وقال سبحانه فى
ابراهيم عليه السلام : " ولقد اصطفيناه فى الدنيا " البقرة ١٣٠
وقال فى موسى عليه السلام : " انى اصطفيتك على الناس برسالاتى
وبكلامى " - الأعراف ١٤٤ ، وقال تعالى : " إن الله اصطفى آدم ونوحا
وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين " آل عمران ٣٣ ، وقال تعالى
لموسى عليه السلام : " وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى " طه ١٣ .
فالنبوة اختيار من الله واصطفاء واجتباء وهبة منه سبحانه
يهبها من يشاء " الله أعلم حيث يجعل رسالته " الأنعام ١٢٤ .

فلا يبلغها أحد باكتساب ولا بكشف ولا برياضات ، ولا ترجع الى
جسم النبي ولا الى صفة من صفاته^(١) بل ولا الى علمه بكونه
نبيا ، قال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم : " وكذلك أوحينا
إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان " -
الشورى ٥٢ ، فالنبي يجهل كونه نبيا حتى يطلع الله على
ذلك . بل إن النبي لا يطمع قبل النبوة أن يكون نبيا ، قال
سبحانه : " وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة
من ربك " القصص ٨٦ ، فلا تُبلغ النبوة بطمع فيها بل هي رحمة
من الله بمن اختاره لها ، وفوق ذلك فإن النبي لا يضمن بقضاء
الوحي محفوظا لديه بعد النبوة ، قال سبحانه : " ولئن شئنا
لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لاتجد لك به علينا وكيلا ،
إلا رحمة من ربك إن فضل الله كان عليك كبيرا " الاسراء ٨٦ -
٨٧ ، يقول ابن جرير فى تفسيرها : " يقول تعالى ذكره : ولئن
شئنا لنذهبن يا محمد بالذى أوحينا إليك ولكنه لا يشاء
ذلك رحمة من ربك وتفضلا منه عليك إن فضل الله كان عليك كبيرا
باصطفائه إياك لرسالته وإنزاله عليك كتابه وسائر نعمه

(١) انظر فتح البارى ٦/٣٦١ .

(١) التى لاتحصى " . والنبوة كذلك ليست تجارة يتاجر بها من شاء
ولذلك نفى الله عن أنبيائه طلب الأجر على الدعوة فى نحو
قوله : " وماتسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين "
يوسف ١٠٤ ، وكان كل نبي يقول لقومه : " ما أسألكم عليه
من أجر " (٢) فالنبوة إذا محض اختيار من الله واصطفاء
واجتباء ، ولذلك رد الله زعم المشركين أن النبوة
لاتليق إلا برجل عظيم من الأثرياء حين قالوا - فيما حكاه
الله عنهم - : " لو أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين
عظيم " الزخرف ٣١ رد عليهم سبحانه قائلا : " أ هم يقسمون
رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا
ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات " الزخرف ٣٢ . يقول ابن كثير
فى تفسيرها : " أى ليس الأمر مردودا إليهم بل إلى الله
عز وجل ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، فإنه لا ينزلها إلا على

(١) تفسير الطبرى ١٥/١٠٦ .

(٢) انظر الآيات رقم ١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٨٠ من سورة الشعراء ،
والآية ٩٠ من سورة الأنعام ، والآية ٧٢ من سورة يونس ، والآية
٥١ من سورة هود ، والآية ٥٧ من سورة الفرقان ، والآية ٢٣ من سورة
الشورى والآية ٤٦ من سورة القلم .

أزكى الخلق قلبا ونفسا وأشرفهم بيتا وأطهرهم أصـ^(١)لا
 فبيتن سبحانه في رده زعمهم: أن النبوة رحمة منه يخص
 بها من يشاء من عباده، وأنها منزلة رفيعة يرفع الله
 بها عبده فوق خلقه درجات .

ثم إن النبوة قد انقطعت بعد محمد صلى الله عليه وسلم فلانبي
 بعده البتة ، قال تعالى : " ما كان محمد أبـا أحد من رجالكم
 ولكن رسول الله وخاتم النبيين " الأحزاب ٤٠ وقال صلى الله عليه
 وسلم : " بى ختم النبيون " وقال صلى الله عليه وسلم " أنا خاتم^(٢)
 النبيين " وقال صلى الله عليه وسلم " إنه لـنبي بعدى " وفى الجملة^(٣)
 فإن كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأنه لـنبي بعده^(٤)
 ثابت بالتواتر من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . كما هو^(٥)

ثابت بالقرآن أيضا . فلامطمع لأحد فى هذه المنزلة بعده صلى الله عليه وسلم ،
 ولم يبلغها من البشر الا هو ومن تقدمه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم
 فلا يبلغها غيرهم الى قيام الساعة

(١) تفسير ابن كثير ١٢٨/٤

(٢) متفق عليه، وقد تقدم .

(٣) متفق عليه من حديث أبى هريرة - انظر البخارى مع الفتح ٥٥٨/٦
 وصحيح مسلم ١٧٩١/٤ .

(٤) أخرجه البخارى انظر صحيحه مع الفتح ٤٩٥/٦ .

(٥) انظر نظم المتنـاشر ص ١٣٢ .

المبحث الثالث: الأنبياء أفضل البشر:

الأنبياء هم أفضل البشر على الإطلاق، هذه هي دلالة الكتاب والسنة والإجماع والنظر الصحيح.

أما الكتاب:

فقد قال سبحانه وتعالى مبينا مراتب أوليائه: "ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والمديقين والشهداء والمالحين وحسن أولئك رفيقا" النساء ٦٩.

فالله قدر تب عباد السعداء المنعم عليهم أربع مراتب وبدأ بالأعلى منهم وهم النبيون^(١)، وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أن بعض الصحابة رضوان الله عليهم قد شق عليهم أن النبي صلى الله عليه وسلم - في الجنة يرفع مع النبيين في الدرجات العلى فتكون منزلتهم دون منزلته فلا يطلون إليه ولا يرونه ولا يجالسونه، فنزلت الآية مبينة^(٢) أن من أطاع الله ورسوله يكون من نعيمه في الجنة أن يتمكن من مجالسة الأنبياء ورؤيتهم وزيارتهم، فلا يفوته

(١) انظر تفسير القرطبي ٢٧٣/٥ والفتاوى ٢٢١/١١.

(٢) انظر تفسير الطبري ١٠٤/٥، وحلية الأولياء ٢٤٠/٤ و ١٢٥/٨ وأسباب

النزول للواحد ٩٤ و ٩٥، وانظر الدر المنثور ١٨٢/٢، ولباب النقول

- بهامش الجلالين - ١٧٤.

ذلك ولذلك قال سبحانه : " مع الذين أنعم الله عليهم " وقال
 " وحسن أولئك رفيقا " وهذه المعية والرفقة لاتعنى تساويهم
 فى الدرجة بل هم متفاوتون لكنهم يتزاورون ويتجالسون
 ويأنسون بقربهم كما كانوا فى الدنيا، وهذا بفضل الله
 لاتباعهم الأنبياء واقتدائهم بهم .
 (١)

فالآية نص فى تفضيل الأنبياء على البشر فهم أفضل أولياء
 الله وأرفعهم درجة على الإطلاق .

- وذكر سبحانه جملة من الأنبياء فى آيات من سورة الأنعام
 ثم قال فى آخرها " وكلا فضلنا على العالمين " الأنعام ٨٦ ،
 قال ابن سعدى فى تفسير الآية : " وكلا من هؤلاء الأنبياء
 والمرسلين فضلنا على العالمين ، لأن درجات الفضائل أربع وهى
 التى ذكرها الله بقوله : (ومن يطع الله والرسول فأولئك
 مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء
 والمالحين) فهؤلاء من الدرجة العليا " .
 (٢)

- وقال سبحانه وتعالى : " إن الله اصطفى آدم ونوحا
 وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين " آل عمران ٣٣ . قال

(١) انظر تفسير الرازى ١٧١/١٠ ، وتفسير القرطبي ٢٧٢/٥ ، وتفسير الخازن

٥٥٧/١

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٢٠٠/٢ .

الرازي مبينا وجه الترابط بين هذه الآية والآيات

قبلها : " أعلم أنه تعالى لما بين أن محبته لاتتسم إلا

بمتابعة الرسل بين علو درجات الرسل وشرف مناصبهم^(١)"

وقال في معرض تفسيره للآية : " بين تعالى أنه اصطفى آدم

وأولاده من الأنبياء على كل العالمين^(٢) ."

فالآية في ذكر الأنبياء خاصة وإن قيل في تفسير

لفظ " الأول " فيها بأن المقصود به سائر المؤمنين من ذرية

إبراهيم وعمران أنبياء وغير أنبياء ، ويشهد لتخصيمها

الأنبياء فقط وأنهم هم المعنيون بتفضيلهم على العالمين

دون غيرهم أمور:

١ - قوله سبحانه " إن الله اصطفى " والمراد الاصطفاء

بالنبوة كما قاله الحسن وغيره^(٣) ، وكذا قد ورد الاصطفاء

مراداً به الاصطفاء بالنبوة في عدد من آيات الكتاب

عند ذكر النبيين ، كقوله سبحانه " الله يطفى من

الملائكة رسلاً ومن الناس " الحج ٧٥ ، وقوله في موسى:

(١) تفسير الرازي ١٩/٨ .

(٢) تفسير الرازي ٢٠/٨ .

(٣) انظر تفسير الطبري ١٥٧/٣ .

" إننى اصطفتك على الناس برسالاتى وبكلامى " الأعراف ١٤٤ ،

وقوله " وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار " .

٢- أنه قد أطلق سبحانه وتعالى وصف الاصطفاء وعننى به

الرسالة خاصة فى قوله " قل الحمد لله وسلام على

عباده الذين اصطفى " النمل ٥٩ ، والرسالة هم المصطفون

من عباد الله الذين سلم عليهم فى العالمين كما بينه

سبحانه فى كتابه جملة وتفصيلا كقوله سبحانه : " وسلام

على المرسلين والحمد لله رب العالمين " الصافات ١٨١ - ١٨٢ —

فقوله " سلام على المرسلين " كقوله : " سلام على عباده

الذين اصطفى " - وقال سبحانه : " سلام على نوح فى

العالمين " - الصافات ٧٩ وقال : " وتركنا عليه فى الآخرين .

سلام على ابراهيم " الصافات ١٠٨ - ١٠٩ ، وقال : " وتركنا

عليهما فى الآخرين . سلام على موسى وهارون " الصافات

١١٩ - ١٢٠ .

فكما أطلق سبحانه الاصطفاء فى آية النمل وهو مقيّد

فى الاصطفاء بالنبوة فكذا فى آية آل عمران هذه .

٣- أن الله قد ذكر فى الآية النبیین آدم ونوحا ثم ذكر

آل ابراهيم وآل عمران وفيه اشارة الى أن المراد بالآل

الأنبياء خاصة من ذرية ابراهيم وذرية عمران لاعامة المؤمنين.

٤- أن الله قد ذكر آل ابراهيم وآل عمران لأن الأنبياء بعد ابراهيم لم يكونوا الامن ذريتهما، فجمع ذكرهم في لفظ الآل، وهو سبحانه قد ذكر آل ابراهيم وآل عمران فقط، ويكون في المؤمنين من ليس من ذريتهم، مما يشهد بأن الآية خاصة بالنبیین.

٥- أن الله قد خص آل عمران بالذكر مع كونهم من ذرية ابراهيم في شملهم ذكر آل ابراهيم، وذلك لأن النبوة أكثر ما وقعت وأكثر ما كان الأنبياء من آل عمران خاصة من ذرية ابراهيم، ولم يكن من الأنبياء من ذرية ابراهيم من سوى آل عمران إلا اسماعيل واسحاق ويعقوب ويوسف ومحمد عليهم الصلاة والسلام، في حين كان من ذرية عمران موسى وسائر أنبياء بنى اسرائيل الى عيسى عليهم السلام وهم كثرة كاثرة كما هو معلوم من دلالات الكتاب والسنة فتخصي آل عمران بالذكر فيه تنبيه الى أن المراد بالآية الأنبياء من ذرية ابراهيم دون غيرهم من سائر المؤمنين.

٦- أن قوله سبحانه " على العالمين " شاهد على أن المراد بالآية

الأنبياء من بين سائر المؤمنين ،ذلك أن اصطفاء المؤمنين
وتفضيلهم على الكافرين أمر ظاهر ظهوراً يُستغنى
به عن الذكر، فكيف بتفضيل النبيين واصطفائهم على
الكافرين، والنبيون معنيون في الآية بلا خلاف ، فإن يكون المراد
اصطفاء النبيين وتفضيلهم على سائر المؤمنين أولى ، والله أعلم .
هذا ، وقد قال بعض المفسرين بأن المراد بآل ابراهيم وآل عمران
الأنبياء منهم ، وقال بعضهم المراد بآل ابراهيم - ابراهيم
(١)
نفسه .

والحاصل فإن الآية نص في تفضيل الأنبياء على البشر سواء
كانت في الأنبياء خاصة وهو الأظهر ، أو كانت فيهم وفي أتباعهم
من المؤمنين عامة فإنه إذا كان المؤمنون أفضل البشر قد
اصطفاهم الله على العالمين فالأنبياء هم الأفضل إطلاقاً بطريق
الأولى .

أما السنة : فمن أدلتها على أن الأنبياء أفضل البشر :
- قوله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن أشد الناس بلاء قال :

(١) انظر زاد المسير ١/ ٣٧٤ .

(١)

" الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل " وهذا مريح في أن الأنبياء
أمثل البشر.

- وقال صلى الله عليه وسلم في أبي بكر وعمر : " هذان سيदा كهـول
أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين "، وفي هذا
(٢)

-
- (١) أخرجه أحمد في المسند ١٧٢/١ وقال أحمد شاكر في ترتيبه ٤٥/٣ ،
"إسناده صحيح " وأخرجه الدارمي ٣٢٠/٢ وابن ماجه ١٤٣٤/٢ ،
والترمذي ٥٢٠/٤ وقال الترمذي " هذا حديث حسن صحيح " والطيالسي
ص ٣٠ ، والحاكم ٤١/١ وقال الحاكم : " وهذا حديث صحيح على شرط
الشيخين " ، وانظر صحيح الجامع الصغير ٤٨/٢ والفتح الرباني ١٢٨/٩ .
- (٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ١١/١٢ ، وابن ماجه ٣٦/١ و٣٨/١ والترمذي
٥٧٠/٥ - ٥٧١ ، وعبدالله بن أحمد في فضائل الصحابة ١٢٣/١ ، و ١٨٩
٣٧٧ ، وفي زيادات المسند ٨٠/١ وقال أحمد شاكر في ترتيبه
٣٧/٢ : " إسناده صحيح " ، وأخرجه الدولابي في الكنى ١٢٠/١ و٩٩/٢
وابن حبان في صحيحه انظر الإحسان ٢٥/٩ وموارد الظمآن ٥٣٨ ،
وانظر مجمع الزوائد ٥٣/٩ ، والحديث له طرق منها الحسن لذاته
ومنها الضعيف قال الألباني فيه : " وجملته القولان الحديث
بمجموع طرقه صحيح بلاريب ، الامن بعض طرقه حسن لذاته
كما رأيت وبعضه يستشهد به " سلسلة المحيحة ٤٩٢/٢ .
وانظر الفردوس ٥٣٠/١ .

الاستثناء الدليل على أن الأنبياء أفضل الأولين والآخرين.

- وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله اختار

أصحابي على العالمين سوى النبيين والمرسلين" (١).

- واستدل ابن تيمية رحمه الله على فضل الأنبياء على سائر الناس

بحديث: "ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين

(٢)

أفضل من أبي بكر الصديق".

أما الإجماع ،

فقد قال ابن تيمية رحمه الله: "وقد اتفق سلف الأمة

وأئمتها وسائر أولياء الله تعالى على أن الأنبياء أفضل من

(٣)

الأولياء الذين ليسوا بأنبياء".

وقال: "الأنبياء أفضل الخلق باتفاق المسلمين وبعدهم المديقون

(٤)

والشهداء والمالكون" وذكر رحمه الله أن تفضيل بعض الفرق غير

(٥)

النبي على النبي مخالف لإجماع الأمة.

(١) أخرجه البزار - كشف الاستار ٢٨٨/٣، وقال الهيثمي في المجمع ١٦/١٠:

رجاله ثقات وفي بعضهم خلاف.

(٢) الفتاوى ٣٣٩/٤، و٢٢١/١١، والحديث أخرجه أبونعيم في الحلية

٣٢٥/٣ وقال أبونعيم: "غريب من حديث عطاء عن أبي الدرداء تفرد به

عنه ابن جريح". وأخرجه البغدادى في التاريخ ٤٣٨/١٢ وفيه ابن جريح

وعطاء يد لسان وقد روياه بالعنعنة، انظر التقريب ٥٢٠/١ و٢٣/٢

وتعريف أهل التقديس ٩٥، ولا ريب أن الحديث صحيح المعنى.

(٣) الفتاوى ٢٢١/١١.

(٤) منهاج السنة ٤١٧/٢.

(٥) انظر الفتاوى ٢٦٤/١١.

أما النظر الصحيح :

فإن العقل يقضى بكون الأنبياء خير الخلق وأفضلهم، لأنهم
رسل الله والواسطة بينه وبين خلقه فى تبليغهم شرعه
ومرادهم من عبادته ، وشرف الرسول من شرف المرسل وشرف الرسالة ،
وهم المصطفون من عباد الله اصطفاهم الله واختارهم واجتباهم ولا يختار
سبحانه من الخلق إلا أكرمهم عليه وأفضلهم عنده وأكملهم
لديه ، قال ابن القيم رحمه الله : " ويكفى فى فضلهم وشرفهم
أن الله سبحانه وتعالى اختصهم بوحيه ، وجعلهم أمناء على
رسالته ، وواسطة بينه وبين عبادته ، وخصهم بأنواع كراماته
فمنهم من اتخذ خليلاً ، ومنهم من كلمه تكليماً ، ومنهم
من رفعه مكاناً علياً على سائرهم درجات ، ولم يجعل لعباده
وصولاً إليه إلا من طريقهم ، ولا دخولاً إلى جنته إلا خلفهم ، ولم
يكرم أحداً منهم بكرامة إلا على أيديهم فهم أقرب
الخلق إليه وسيلة وأرفعهم عنده درجة وأحبهم إليه
وأكرمهم عليه ، وبالجملة فخير الدنيا والآخرة إنما نالها
العباد على أيديهم وبهم عرف الله وبهم عبد وأطيع وبهم
(١)
حملت محابه تعالى فى الأرض .

(١) طريق الهجرتين ٣٥٠ .

وأعلى منازل الخلق؛ فى تحقيق العبودية لله عز وجل،
ولقد حقق الأنبياء عبوديتهم لله فكانوا عباد الله المخلصين الذين
بين سبحانه أنهم هم الذين ينجون من السيئات التى يزينها
الشيطان، قال الشيطان x "رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى
الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين " الحجر
٣٩ - ٤٠ وقال : " فبعرتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم
المخلصين " ص ٨٢ - ٨٣ ، وقد قال الله فى حق يوسف عليه
السلام " كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا
المخلصين " يوسف ٢٤ ، فالأنبياء من المخلصين الذين أخلصهم
الله واصطفاهم من خلقه فحققوا العبودية له سبحانه
ولذلك نعتهم الله بالعبودية التى حققوها فكانوا خير
الخلق فيها وبها ، قال سبحانه : " واذكر عبادنا إبراهيم
وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار إنا أخلصناهم بخالصة
ذكرى الدار وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار " ص ٤٥ - ٤٧ ،
وقال سبحانه : " واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه آوab " ص ١٧ ،
وقال عن سليمان : " نعم العبد إنه آوab " ص ٣٠ ، وعن أيوب
" إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه آوab " ص ٤٤ ، وعن
نوح : " إنه كان عبدا شكورا " الاسراء ٣٠ ونعت سبحانه
خير خلقه بالعبودية فى المقامات الشريفة فقال فى الاسراء

" سبحانه الذى أسرى بعبده " الاسراء ، وقال فى الدعوة
" وأنه لما قام عبدالله يدعوه " الجن ٩ وقال فى الوحى
" فأوحى إلى عبده ما أوحى " النجم ١٠ ، ولقد قام صلى
الله عليه وسلم صلى لله حتى تورمت قدماه ، وتفطرتا ،
ف قيل له : يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم
من ذنبك وما تأخر؟ قال صلى الله عليه وسلم : " أفلا أكون
عبدا شكورا " فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد حققوا
العبودية لله فهم أتم الخلق عبودية لله ولذلك فهم أكمل
الخلق وأفضلهم .

وقد اتضح فى المبحثين السابقين أمران ظاهرا الدلالة
على أفضلية الأنبياء على البشر وهما :

أولا .. أن الأنبياء كانوا خيار أقوامهم قبل نبواتهم فقد
عصمهم الله عما يضر أقدارهم .

(١) متفق عليه من حديث عائشة والمغيرة بن شعبة ، انظر صحيح البخارى

مع الفتح ١٤/٣ ، ٥٨٤/٨ ، وصحيح مسلم ٢١٧١/٤ و ٢١٧٢ .

ثانيها .. أن النبوة اختيار من الله واصطفاء لا تبلغ بكسب
ولا بغيره . فجمع الله الأنبياء الفضل من
أطرافه ميزهم على خلقه من قبل النبوة ثم
زادهم فضلا عليهم بالنبوة ، فلا يبلغ أحد
منزلتهم .

وبينت أيضا أن النبوة قد انقطعت وختمت
بمحمد صلى الله عليه وسلم فلا تكون فضيلة
النبوة ومنزلة الأنبياء لأحد بعده البتة ، وعليه
فمنزلة النبوة وفضلها مخصوص في عدد محصور
من الخلق وهم الأنبياء ، لا يشاركهم فيه أحد .

المبحث الرابع : عرض المقالات الباطنية في هذا الباب :

(١) القول بجواز أن يكون في البشر من يوازي الأنبياء، وجواز أن

يكون فيهم من هو أفضل من الأنبياء :

حكى ابن حزم القول بجواز أن يكون في البشر من يوازي الأنبياء عن الجبائي، وحكى القول بجواز أن يكون فيهم من هو أفضل من الأنبياء عن الباقلاني فقال : " إن الجبائي قال :^(أ)
جائز إن طال عمر امرئ أن يعمل ما يوازي عمل نبي من الأنبياء، وقال الباقلاني : جائز أن يكون في الناس من هو أفضل من رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث بعث بالنبوة^(١)
إلى أن مات " .

(١) الفصل ١١٤/٤ ، ولم أجد فيما بين يدي من مراجع قول الجبائي ولا استبعده منه فإن له شئنا أشد من مثل هذا كثيرة ، وكذا لم أقف على قول الباقلاني هذا في ما بين يدي من كتبه أو من المراجع غيرها ، وإنما نقل ابن حزم كلامه بواسطة ولم يقف عليه كما صرح به في ١٦٤/٤ و ٢٢٥ في الفصل .

(أ) هو محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي ، أحد أشعة المعتزلة ، ورأس الطائفة الجبائية ، ت ٣٠٣ هـ - انظر البداية والنهاية ١١/١٢٥ .

(ب) هو محمد بن الطيب ، أبو بكر القاضي ، رئيس الأشاعرة في عصره

، كان ذكيا حسن الجواب ، ت ٤٠٣ هـ - انظر تاريخ بغداد ٥/٣٧٩

وهذا قول مردود على من قال به ، وليس ———
المفاضلة بين الأنبياء والبشر مذكور، فإنه ان وقع أن عاش أحد
أكثر من النبي وعمل عملاً أكثر منه في مجموع حياته، فإنَّى
له أن يدرك فضل النبوة ومنزلتها ، وكذا إن كان عمله أكثر
في صورته فإنَّى له أن يدرك فضل أصل عمل النبي ، فعمل
النبي طاعة لله وتشريع لأمته، وعمل غيره طاعة لله
ومتابعة للنبي ، ثم إن ركعة من نبي، بل ومع نبي، خير من ركعة
من غيره أو مع غيره ، فإنَّى لعامل أن يدرك فضل عمل النبي
وقد قال صلى الله عليه وسلم لصحابته : " قد علمتم أننى أتقاكم
لله وأصدقكم وأبركم" .
(١)

(٢)
وقال : " أما والله إننى لأتقاكم لله وأخشاكم لله
(٣)
وقال : " إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا " فالنبي أعلم
بالله من سواه وأتقى لله وأخشى له وأصدق وأبر، وما أساس

(١) متفق عليه من حديث جابر ، البخارى مع الفتح ٣٢٧/١٣، ومسلم ٨٨٢/٢ .

(٢) أخرجه البخارى عن أنس انظره مع الفتح ١٠٤/٩، ومسلم عن عمر بن سلمة

٧٧٩/٢ .

(٣) أخرجه البخارى ، انظر الصحيح مع الفتح ٧٠/١ .

التفاضل في الأعمال إلا هذا لا مجرد صورة العمل، وإذا كان
سميد بن زيد - رضى الله عنه - وهو أحد العشرة المبشرين
بالجنة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقسم فقال
لأهل الكوفة في صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والله
لمشهد شهده الرجل منهم يوما واحدا في سبيل الله مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من عمل أحدكم ولو عمر
عمر نوح" (١) فهذا قول من يعتد بقوله ويؤخذ به في العمل
مع النبي فكيف بالعمل من النبي نفسه . وقال ابن تيمية رحمه الله
الله: "قال غير واحد من الأئمة: إن من صحب النبي صلى الله
عليه وسلم أفضل ممن لم يصحبه مطلقا، وعينوا ذلك في مثل
معاوية وعمر بن عبدالعزيز مع أنهم معترفون بأن سيرة عمر بن عبدالعزيز
أعدل من سير معاوية، قالوا: لكن ما حصل لهم بالمحبة من الدرجة
أمر لا يساويه ما حصل لغيرهم بعلمه" فهذا فيمن صحب النبي فكيف
بالنبي نفسه . وذلك التجويز من أولئك المتكلمين وأمثالهم إنما

(١) أخرجه بن شعبة في المصنف ١٢/١٢، وأحمد في المسند ١٨٧/١، وقال
أحمد شاكر في ترتيبه ١٠٨/٣ "إسناده صحيح"، وأبو داود في السنن
٢١٢/٤، وقال المنذر "في مختصر سنن أبي داود ٢٩/٧": "وأخرجه
النسائي وابن ماجه"، وأخرجه أبونعيم في الحلية ٩٥/١.

مبناه عندهم الجواز العقلي لا الشرعي، بناءً على ما أطلقوه من أن الله
يجوز أن يفعل كل ممكن، وإلا فهم متفقون على أن الأنبياء
أفضل الخلق لكن يقولون : هذا لم يعلم بالعقل بل علم
(١)
بالسمع .

٢ : ملالة تفصيل الولي على النبي :

لقد كان أول من تكلم بهذه المقالة غلطاً ، الحكيم
الترمذي أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن أحد الأئمة الحفاظ
المحدثين ، فقد كان يفضل الولاية على النبوة فأنكر عليه
ذلك وأخرج من ترمذ ، وشهدوا عليه بالكفر^(٢) ، وإنما أُتي
بغفر الله له - فيما يبدو - من جهة الاستنباط الخاطئ وسوء
الفهم ، فقد قال في قوله صلى الله عليه وسلم في المتحابين في
الله : " يغبطهم النبيون والشهداء " في رواية بزيادة : " بمكانهم
من الله " ، وفي رواية : " يغبطهم بمكانهم النبيون والصديقون "

(١) انظر منهاج السنة النبوية ٤١٩/٢ .

(٢) انظر سير أعلام النبلاء ٤٤١/١٣ ، وتذكرة الحفاظ ٦٤٥/٢ وطبقات الشافعية

الكبرى ٢٠/٢ ، ولسان الميزان ٣٠٨/٥ ، الصفدية ٢٤٨/١ .

(١)

وفى رواية " ليسوا بأنبياء ولا شهداء " .

(٢)

قال الحكيم الترمذى : " لو لم يكونوا أفضل منهم لم يغبطوهم " .

وهذا بُعد فهم ، وهم فى الاستنباط ، فإنه لا يلزم من غبطة الأنبياء

(١) . انظر روايات هذا الحديث عن معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت

وأبوهريرة وأبومالك الأشعرى ، أخرجه عن معاذ : الترمذى فى سننه

٥١٦/٤ وقال : " هذا حديث حسن صحيح " ، والحاكم فى مستدركه

٤٢٠/٤ وقال : " هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه " وقال

الذهبى : " صحيح " ، وأخرجه عن معاذ وعبادة أحمد فى المسنده / ٢٢٩ و

٢٣٩ و٣٢٨ وقال الهيثمى فى المجمع ٢٧٩/١٠ : " رجاله رجال الصحيح " .

وابن حبان فى صحيحه انظر الإحسان ٣٩٢/١ وموارد الظمان ٦٢٢ ،

وأخرج حديث أبى هريرة : ابن حبان فى صحيحه ، انظر الإحسان

٣٩٠/١ وموارد الظمان ٦٢١ ، وقال المنذرى فى الترغيب ٢٠/٤

" رواه النسائى " ولم أعثر عليه فى السنن ، والبراز انظر كشف

الاستار ٢٢٨/٤ ، وأخرج حديث أبى مالك : أحمد فى المسنده / ٣٤١ ، ٣٤٢

٣٤٣ ، وقال الهيثمى فى المجمع ٢٧٧/١٠ " رواه أبويعلى ورجاله رجال

الصحيح غير حوشب وقد وثقه غير واحد " .

(٢) انظر المراجع فى الإحالة قبل السابقة .

والمديقين والشهداء لهم أن يكونوا أفضل منهم ، فإنه
قد يقع للمفضول من الفضل ما لا يكون للفاضل ، كما تقرر فيما
سبق وبينته ، فإذا غبَطَ الفاضلُ للمفضول تلك الفضيلة ، فلا يُنقص
ذلك من منزلته ، بل هو دال على تمام فضله ، وهذا الشهيد قد
كتب الله له من النعيم ، ما خصه به دون سائر المؤمنين وفيهم
من هو أفضل منه وهم الأنبياء والمديقون وقد قال صلى الله عليه
وسلم " ما من عبد يموت له عند الله خير يسره أن يرجع إلى
الدنيا وأن له الدنيا وما فيها إلا الشهيد لما يرى من فضل
الشهادة ، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى " (١)
وفي رواية أخرى قال صلى الله عليه وسلم : " ما أحد يدخل الجنة
يجب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد
(٢)
يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة "

ففي حصر النبي صلى الله عليه وسلم هذا التمني في الشهداء

(١) متفق عليه أنظر البخاري مع الفتح ١٥/٦ وصحيح مسلم ١٤٩٨/٣ .

(٢) متفق عليه أنظر البخاري مع الفتح ٢٢/٦ وصحيح مسلم ١٤٩٨/٣ .

(١)
 من بين سائر الموتى من المؤمنين دليل مجمل على اختصاص
 الشهيد ببعض النعيم من أن فيهم من هو أفضل منه ،
 ولقد تمنى النبي صلى الله عليه وسلم - الشهادة فقال : " والذي
 نفس بيده لو ددت أنى أقتل فى سبيل الله ثم أحيأ ثم أقتل
 ثم أحيأ ، ثم أقتل ثم أحيأ ثم أقتل ثم أحيأ ثم أقتل " (٢)
 ومن ذا يقول أن الشهيد أفضل من النبي صلى الله عليه وسلم
 لأن النبي تمنى الشهادة ٠١١؟ والحكيم الترمذي كان قد صنف
 مصنفاً غلط فيه فى مواضع كما قال ابن تيمية ، وهو كتابه (٣)

(١) وقد وردت أحاديث فيها شيء من التفصيل لبعض ما اختص به
 الشهيد كالحديث الصحيح الذى فيه أن أرواح الشهداء فى جوف طير
 خضر وأن لها قناديل معلقة بالعرش تسرح فى الجنة حيث شاءت
 ثم تآوى الى تلك القناديل وفى الحديث الصحيح الآخر أن نسمة
 المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة ، فخص الشهيد بأن روحه فى جوف
 طير فى حين أن أرواح سائر المؤمنين تطير بأنفسها .

(٢) متفق عليه انظر البخارى مع الفتح ١٦/٦ وصحيح مسلم ١٤٩٦/٣-١٤٩٧ .

(٣) انظر الفتاوى ٠٢٢٣/١١

" ختم الولاية " الذى نُفي من ترمذ وأخرج منها وشهد عليه

(١)

أهلها بالكفر بسبب تصنيفه وقد قال الترمذى الحكيم عن نفسه :

" ما صنعت شيئا عن تدبير ولا لأن ينسب إليّ شيء منه ولكن كان إذا

(٢)

أشدد على وقتى كنت أتسلى بمصنفاتى " وهذا كاف فى توهيـن

مقالاته فى هذه المسألة وأنها منه نزعة اصطادها قلمه عن

(١) انظر سير أعلام النبلاء ٤٤١/١٣ ، وتذكرة الحفاظ ٦٤٥/٢ وطبقات الشافعية

الكبرى ٢٠/٢ ولسان الميزان ٣٠٨/٥ ، وكتاب ختم الولاية أو الأولياء

لا يوجد منه سوى عناوين فصوله وشرح لبعض فصوله كتبه مجهول - كما

فى تاريخ الأدب العربى ٧٠/٤ وقال محقق الجزء ١٣ من كتاب سـيـر

أعلام النبلاء ص ٤٤١ " لم يمل اليـنـا مستقلا إلا أن ابن عربى الحاتمي

حفظ لنا صورة عنه فى كتابه الفتوحات المكية فى مجموعة المائـة

والخمس والخمسين سؤالا " ، ولكن ابن عربى لم ينص على كتاب الحكيم

هذا بل قال : " اعلم أن دعاوى لما استطال لسانها فى هذا الطريق

من غير المحققين قديما وحديثا جرد الامام صاحب الذوق التام محمد

بن على الترمذى الحكيم مسائل تمحيص واختبار وعددها مائة وخمسة

وخمسون سؤالا لا يعرف الجواب عنها الا من علمها ذوقا وشربا " الى

ان قام : " فجعلت هذا الباب مجلاها " وسرد الاسئلة وأجاب عنها فى

مائة صفحة الفتوحات المكية ٣٩/٢ - ١٣٩ وزعم الشعراى كما فى بغية

المستفيد ص ١٩٣ أن الحكيم ألقى كتابيه فى الختم وفى علل الشريعة

لما شنوا عليه بما فىهما من تفضيل الولاية على الولاية على

النبوة ألقاهما فى البحر فابتلعتهما سمكة ثم لفظتهما وانتفع بهما "

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٤١/١٣ - ٤٤٢ ولسان الميزان ٣٠٨/٥

غير فقه ولا تدبير ، وقد زعم في كتابه ذلك أن للأولياء خاتم كما أن للأنبياء خاتم ، ولم يتكلم أحد من المشايخ المتقدمين بمثل ما تكلم به ، قال ابن تيمية - رحمه الله - : " وخاتم الأولياء كلمة لا حقيقة لفضلها ومرتبتهما وإنما تكلم أبو عبد الله الترمذي بشيء من ذلك غلطاً لم يسبق إليه ولم يتابع عليه ولم يستند فيه إلى شيء " قال رحمه الله : " وهو من غلطاته فإن الغالب على كلامه الصحة " . وكما قال ابن تيمية رحمه الله لم يتابع الترمذي الحكيم على مقالتيه ، فانتهتنا حيث ابتدأتنا ، كلمات في مصنف تسلى بها أصحابه ، ما كانت عن تدبير ولا يريد هو أن ينسب إليه شيء منها ، حتى جاءت طائفة من المتأخرين منتحلي التصوف فطاروا بالمقالتين ، وسعوا بهما في الناس بخيلهم ورجلهم ، نادوا بها ودعوا إليها ومنفوا فيها ، فصارت فضيل الولي على النبي ، ودعوى أن الأولياء خاتم هو أفضلهم كما أن للأنبياء خاتم هو أفضلهم ، صار ذلك عقيدة عند طائفة من المتصوفة وبخاصة غلاتهم أهل وحدة الوجود ، وكان ممن تولى كبر هذه العقيدة ابن عربي الحاتمي أحد رؤوس الاتحادية ، وقد صرح في مواضع من كتبه بأن الولاية أعظم من النبوة ، ثم النبوة أعظم

(١) بغية المرتاد ص ٣٩٢ .

(٢) الفتاوى ٣٦٣/١ وانظر الصفدية ٢٤٨/١ .

من الرسالة ، فجعل الولي أفضل من الرسول والنبي ، وفضله على

الرسول أعظم من فضله على النبي ، وكان مقالته في ذلك :

(١)

سما النبوة في برزخ . . . فويثق الرسول ودون الولي

ولذلك قدم في فتوحاته الكلام في معرفة مقام الولاية ثم مقام

(٢)

النبوة ثم مقام الرسالة ، وقال في مقام الولاية :

من صورة الحق لنا من ولايته . . . جميعها فلنا في الحرب إقدام

(٣)

لنا الخلافة في الدنيا محققه . . . وماله في جنان الخلد أحكام

فالأولياء عنده - وقد جعل نفسه منهم - نالوا جميع ولاية الله

ولهم الخلافة على الخلق محققة ، وقال : " فالحق لأصحاب المقامات

من الأولياء مطيع ، ولكلامهم سميع ، لهم جميع المقامات والأحوال

وهم ذكرا ن الرجال لا يلحقهم عيب ولا يقوم بهم فيما هم فيه

ريب ، لهم الآخرة مخرجة كما هي لله ، ولهم الدنيا ممتزجة كما هي

(٤)

لسيدهم ، فهم بصفات الحق ظاهرون ولذلك جُهلوا " وقال : " للأولياء

التفريع والإقبال ولهم الستور والحجاب ، إذا قُرِبَ منهم صانهم

وسترهم وخباهم فُجِهُوا ، وإذا عاقبهم وليسوا بأنبياء أظهر

(٤)

عليهم خرق العوائد فُعرفوا ، فحجبوا الخلق عن الله " فعقاب

الله للأولياء عنده بأن يجري لهم الخوارق ، وغمزا لأنبياء

(١) لطائف الأسرار ص ٤٩ .

(٢) الفتوحات المكية ٢/٢٤٨ - ٢٥٢ - ٢٥٦ .

(٣) الفتوحات المكية ٢/٢٤٨ .

(٤) الفتوحات المكية ٢/٢٤٩ .

(١)

والولي اسم باق لله " . فمن حماقات هؤلاء الاتحادية أن
الولاية أفضل من النبوة لأنها لاتنقطع كالنبوة ولأن الله سمّى
نفسه " الولي " ولم يسم نفسه " النبي " ، فهي شنع مفتـررة
وجرأة على الله ورسوله .

ولما كانت الولاية أفضل من النبوة عند هؤلاء كانت ولاية
النبي عندهم أفضل من نبوته ، يقول ابن عربى : " ان الرسول
من حيث هو ولي أتم من حيث هو نبي ورسول " (٢) .

ثم الولاية عندهم متفاضلة ، وأفضلها : منزلة خاتم الأولياء ،
فإن للأولياء فى اعتقادهم خاتماً كما أن للأنبياء خاتماً ، ولا يقدح
عندهم فى مقام خاتم الأولياء كونه تابعاً لخاتم الرسل فى
التشريع ، يقول ابن عربى : " وإن كان خاتم الأولياء تابعاً
فى الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع فذلك لا يقدح
فى مقامه ولا يناقض ما ذهبنا إليه ، فإنه من وجه يكون
أنزل كما أنه من وجه يكون
أعلى " (٣) وعلق على حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذى مثّل فيه

(١) فصوص الحاكم بشرح القاشانى ص ٢٠٤ .

(٢) فصوص الحاكم بشرح القاشانى ص ٢٠٤ .

(٣) الفصوص بشرح القاشانى ص ٤٢ .

بقوله " وليسوا بأنبياء " فهذا عقاب خاص للأولياء عنده
لا يدركه الأنبياء ، ثم لما تكلم بعد مقام الولاية عن مقام النبوة
افتتح بقوله :

(١)

بين الولاية والرسالة برزخ . . فيه النبوة حكمها لا يجهل .

فصرح بأن النبوة منزلة متوسطة بين الولاية قبلها والرسالة
بعدها .

ويقول ابن عربي في فصوصه " اعلم أن الولاية هي الفلك
المحيط بالعالم، ولهذا لم تنقطع، ولها الأنبياء العام وأما التشريع
والرسالة فمنقطعة " . ويقول عن إخبار النبي صلى الله عليه
وسلم بأنه لاني بعدة : " وهذا الحديث قصم ظهور أولياء الله
لأنه يتضمن انقطاع ذوق العبودية الكاملة التامة فلا ينطلق
عليها اسمها الخاص بها " .
(٢)

يقول : " والله لم يتسم بنبي ولا رسول وتسمى بالولي
واتصف بهذا الاسم فقال " الله ولي الذين آمنوا " وقال :
" وهو الولي الحميد " ويقول معقبا على كون الرسالة منقطعة :
(٢)
" والولاية ليست كذلك، إذ لو انقطعت من حيث هي كما انقطعت الرسالة
من حيث هي، وإذا انقطعت من حيث هي لم يبق لها اسم،

(١) الفتوحات المكية ٢/٢٥٢ .

(٢) فصوص الحكم بشرح القاشاني ص ٢٠٣ .

حاله مع الأنبياء بالقصر الذى ترك فيه موضع لبنة فكان هو صلى الله عليه وسلم تلك اللبنة فقال ابن عربى: "ولمامثل النبي صلى الله عليه وسلم بالحائط من اللبن وقد كمل سوى موضع لبنة فكان صلى الله عليه وسلم تلك اللبنة، غير أنه صلى الله عليه وسلم لا يراها إلا كما قال لبنة واحدة، وأما خاتم الأولياء فلا بد له من هذه الرؤيا، فيرى مأمثله به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويرى فى الحائط موضع لبنتين، واللبن من ذهب وفضة، فيرى اللبتين اللتين ينقص الحائط عنهما ويكمل بهما لبنة فضة ولبنة ذهب، فلا بد أن يرى نفسه تنطبع فى موضع تينك اللبتين فيكون خاتم الأولياء تيك اللبتين فيكمل الحائط بهما" (١) وهذا صريح فى رد إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بانقطاع الوحى وإكمال الرسالات به صلى الله عليه وسلم، ولقد غمز ابن عربى فى مقام النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "غير أنه لا يراها إلا كما قال لبنة واحدة، وأما خاتم الأولياء فيراها لبنتين"، فأى فجور بعد هذا فلكانه يصرح بأن قول النبي صلى الله عليه وسلم بحسب علمه ورؤيته المحدودة ليست كروية خاتم الأولياء وعلمه فنعود بالله من الزيغ والشنائع، وزاد ابن عربى الأمر إيضاحاً مبيناً وجه كون خاتم الأولياء يراها

(٢) الفصوص بشرح القاشانى ص ٤٣.

لبننتين وزاعما أن متابعة خاتم الأولياء لخاتم الرسل فى
التشريع إنما هى فى الظاهر فقط فيقول : " والسبب الموجب
لكونه رآها لبننتين أنه تابع لشرع خاتم الرسل فى الظاهر وهو
موقع اللبنة الغضبية، وهو ظاهره وما يتبعه فيه من الأحكام ، كما
هو آخذ عن الله فى السر ما هو بالصورة الظاهرة متبع
فيه ، لأنه يرى الأمر على ما هو عليه فلا بد أن يراه هكذا، وهو
اللبنة الذهبية فى الباطن فإنه آخذ من المعدن الذى يأخذ
(١)
منه الملك الذى يوحى به الى الرسل " .

فخاتم الأولياء عند هؤلاء الاتحادية تابع للنبي صلى الله
عليه وسلم فى الظاهر فقط ولكنه فى الباطن وعلى التحقيق يأخذ
من ذات المصدر الذى يأخذ منه النبي صلى الله عليه وسلم فهو
مستغن عنه بل هو أفضل منه - تنزهه صلى الله عليه وسلم
عما يقوله الكافرون - فإن النبي يأخذ عن الملك/ أما الولي
فيأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك/ أى عن الله مباشرة -
تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا - ويقول ابن عربى: " الولي
لا يأخذ النبوة من النبي إلا بعد أن يرثها الحق منهم ثم يلقيها
الى الولي ليكون ذلك أتم فى حقه حتى ينتسب فى ذلك الى الله
(٢)
لا إلى غيره " .

(١) الفصوص بشرح القاشانى ص ٤٣ .

(٢) الفتوحات المكية ٢/٢٥٣ .

وأهل وحدة الوجود عندما يتكلمون بخاتم الأولياء ويفضلونه على الأنبياء ويدعون أنه يأخذ عن الله بغير واسطة الملك إنما يريدون بذلك تمرير مذهبهم في وحدة الوجود واتخاذ الوسيلة لدفع الناس للإيمان بوحدة الوجود، ولذلك يقول ابن عربي في الولي ومذهب وحدة الوجود: " وهذا هو أعلى عالم بالله وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء، وما يراه أحد من الأنبياء والرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة السولي الخاتم ^(١) " بل يزعم أن الرسل إنما تأخذ العلم بالله ومعرفته سبحانه من مشكاة الولي فيقول: " حتى أن الرسل لا يرونه متى رأوه إلا من مشكاة خاتم الأولياء " ويعلل ذلك فيقول: " فإن الرسالة والنبوة أعنى نبوة التشريع ورسالته تنقطعان والولاية لا تنقطع أبدا، فالمرسلون من كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء فكيف من دونهم من الأولياء ^(١) " بل وخاتم الرسل أيضا يأخذ عن خاتم الأولياء عندهم لأن نسبته إليه نسبة الأنبياء يقول ابن عربي: " فخاتم الرسل من حيث ولايته نسبته مع الخاتم للولاية نسبة الأنبياء والرسل معه فإنه السولي والرسول النبوي، وخاتم الأولياء الولي الوارث الأخذ من الأصل المشاهد للمراتب ^(٢) " .

(١) الفصوص بشرح القاشاني ص ٤٢ .

(٢) الفصوص بشرح القاشاني ص ٤٤ وانظر الشرح .

فإذا استقر في عقيدة شخص أن الأنبياء والرسل يأخذون معرفة الله من مشكاة خاتم الأولياء سلم نفسه ومعتقده لهذا الخاتم يأخذ عنه مايقوله في الله، فإذا قال له أن الله هو كل شيء تقع عليك عنك ويدركه حرك - تعالى الله عمايقول الظالمون علوا كبيرا - آمن وسلم فإن هذا كلام المشكاة التي يأخذونها الأنبياء فكيف لا يأخذ به هو، وهكذا يدرك أهل وحدة الوجود غايتهم ليجد مذهبهم في الناس قبلوا إذ بغير هذا قد استيقنت أنفسهم سفالة مذهبهم عند الناس وأنه غير مقبول ولا مسموع.

ولقد ادعى جماعة من هؤلاء الاتحادية القائلين بوحدة الوجود كل واحد منهم أنه هو خاتم الأولياء، يقول أحدهم هؤلاء الصوفية صاحب بغية المستفيد: "وقد ادعى هذا المقام أعنى مقام الختم الأكبر جماعة من الصادقين في الأحوال قاله الشعراني رضي الله عنه، ومن ادعاه وظن أنه له حين

(١) هو (سيدى محمد العربى السائح الشرقى العمرى التيجانى) وكتابه هذا شرح لمنظومة " منية المريد " في معتقد التيجانية وإثبات أن التيجانى هو القطب الأكبر. وهو صاحب منزلة خاتم الأولياء، وهذا المؤلف كان شيخ الطريقة التيجانية، انظر ترجمته في الأعلام ٢٦٥/٦.

(١)
 رآه الشيخ محي الدين رضي الله عنه وادعاه له أيضاً
 بعد وفاته جماعة لما رأوا له نشرًا ونظمًا من الكلام الحاثم
 حول ذلك المقام " قال : " وممن أدعاهما أيضاً الأستاذ سيدي
 علي وفا لوالده الأستاذ سيدي محمد وفا رضي الله عنهما حسبما
 نقله الشعراني رضي الله عنه " قال : " وادعاهما أيضاً الإمام
 الجليل سيدي محمد بن سليمان الجزولي مؤلف دلائل الخيرات وكذلك
 الشيخ العارف بالله الصفي القشاشي حسبما حكاه في
 الرحلة العياشية " ثم قال : " وقد تقدم لنا مما في
 طي رمز أول الكلام على أبيات هذه المنظومة أن الخاتم الأكبر
 المحمدي هوشبخنا وسيدنا وأستاذنا وإمامنا الشيخ الكامل
 والقطب الشامل مولدنا أبو العباس التجاني رضي الله عنه
 فقد ثبت عنه رضي الله عنه من طريق الأثبات من ملازميه
 وخاصته أنه أخبر تصريحاً على الوجه الذي لا يحتمل التأويل
 أن سيد الوجود طي الله عليه وسلم أخبره بقطعة
 بأنه هو الخاتم المحمدي المعروف عند جميع الأقطاب والمديقين

(١) يعني ابن عربي .

وبأن مقامه لامقام فوقه فى بساط المعرفة بالله" (١).

ولما ذكر ابن تيمية رحمه الله تكلم طائفة من الصوفية فى "خاتم الأولياء" وتعظيمهم أمره قال رحمه الله: "وادعى جماعة كل واحد أنه هو كابن عربى" قال ابن تيمية: "وربما قيّده بأنه ختم الولاية المحمدية أو الكاملة أو نحو ذلك لئلا يلزمه أن لا يخلق بعده لله ولي" (٢).

والحاصل أن غلط الحكيم الترمذى كان مقدمة لفضال هؤلاء الصوفية وفتح لهم الكلام فى تفضيل الولي على النبي وفى خاتم الأولياء فتعلقوا به واستندوا إليه وأتوا - كما يقول ابن تيمية - بالعظام التى لم يسبق إليها الترمذى ولا غيره (٣) ولكن متكلمة الصوفية هؤلاء كابن عربى وغيره وإن اعتمدوا (٤)

(١) بغية المستفيد ص ١٩٣ - ١٩٤. وإذا علمت أن ابن عربى توفى سنة ٦٣٨هـ وأن التجانى توفى سنة ١٢٣٠هـ عرفت فشو هذه العقيدة وتداولها فى طبقات الصوفية باتصال. انظر ترجمة التجانى واسمه أحمد بن محمد فى الأعلام ١/٢٤٥.

(٢) الفتاوى ١١/٣٦٣ وانظر ص ٤٤٤.

(٣) انظر بغية المستفيد ص ١٩٢ - ١٩٣.

(٤) الصفدية ١/٢٤٨.

على كلام الترمذي في الظاهر إلا أنهم في الحقيقة سلكوا
مسلك ملاحدة الفلاسفة ووافقوهم في قولهم بتفضيل الفيلسوف
الكبير على النبي .^(١)

وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله أن طائفة من السعدية يفضلون
الولي على النبي أيضا .^(٢)

قال ابن تيمية رحمه في رد هذه الضلالات : " فأما الغلو
في ولي غير النبي حتى يفضل على النبي سواء سُمي وليا
أو إماما أو فيلسوفاً وانتظارهم المنتظر الذي هو محمد
ابن الحسن أو إسماعيل بن جعفر ، نظير ارتباط الصوفية على
الوثوق وعلى خاتم الأولياء ، فبطلانه ظاهر بما علم من نصوص
الكتاب والسنة وما عليه إجماع الأمة فإن الله جعل الذين
أنعم عليهم أربعة :

النبيين والمديقين والشهداء والمالحين ،

فغاية من بعد النبي أن يكون مديقا كما كان خير هذه الأمة بعد
نبيها مديقا ، ولهذا كانت غاية مريم ذلك في قوله : (ما المسيح
ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه مديقة)^(٣) .

(١) انظر الفتاوى ٢٢٧/١١ و ٣٦٣ ، والصفدية ٢٤٩/١

(٢) انظر الفتاوى ٣٦٤/١١ ، ولم أجد لهذه الطائفة بهذا الاسم ذكر

في كتب المقالات .

(٣) الفتاوى ٣٦٤/١١ ، والآية من سورة المائدة رتمها ٧٥ .

ورد رحمه الله على دعوى (خاتم الأولياء) قائلا : " هذه

تسمية باطلة لا أصل لها في كتاب ولا سنة ولا كلام مأثور ممن

هو مقبول عند الأمة قبولا عاما ، لكن يعلم من حيث الجملة

أن آخر من بقي من المؤمنين المتقين في العالم فهو آخر
(١)

أولياء الله " .

وأجاب رحمه الله على دعواهم أن خاتم الأولياء أفضل الأولياء ،

فقال : " وليس آخر الأولياء أفضلهم كما أن آخر الأنبياء أفضلهم

فإن فضل محمد صلى الله عليه وسلم ثبت بالنصوص الدالة
(٢)

على ذلك " وقال رحمه الله : " إن آخر الأولياء أو خاتمهم سواء

كان المحقق أو فرض مقدر ، ليس يجب أن يكون أفضل من غيره

من الأولياء فضلا عن أن يكون أفضلهم ، وإنما نشأ هذا من مجرد

القياس على خاتم الأنبياء ، لما رأوا خاتم الأنبياء هو سيدهم

توهموا من ذلك قياسا بمجرد الاشتراك في لفظ خاتم فقالوا :

خاتم الأولياء أفضلهم وهذا خطأ في الاستدلال ، فإن فضل خاتم

الأنبياء عليهم لم يكن لمجرد كونه خاتما بل لأدلة أخرى

دلت على ذلك ، ثم نقول : بل أول الأولياء في هذه الأمة وسابقهم

(١) الفتاوى ٣٦٥/١١

(٢) الفتاوى ٢٢٤/١١

هو أفضلهم ، فإن أفضل الأمة خاتم الأنبياء وأفضل الأولياء
سابقهم إلى خاتم الأنبياء ، وذلك لأن الولي مستفيد من النبي
وتابع له ، فكلما قرب من النبي كان أفضل وكلما بعد عنه
كان بالعكس ، بخلاف خاتم الأنبياء فإن استفادته إنما هي
من الله ، فليس في تأخره زمانا ما يوجب تأخر مرتبته
بل قد يجمع الله له ما فرقه في غيره من الأنبياء ، فهذا
الأمر الذى ذكرناه من أن السابقين من الأولياء هم خيرهم
هو الذى دل عليه الكتاب والسنة المتواترة وإجماع السلف " .
(١)

وذكر رحمه الله شبههم العقلية والذوقية والنقلية وفندها
بالتفصيل بما لا مزيد عليه .
(٢)

وأجاب رحمه الله على دعواهم أن الرسل يأخذون من مشكاة
خاتم الأولياء ، فقال : " هذا مناقض للعقل والدين كما يقال
في قول القائل : " فخر عليهم السقف من تحتهم " : لا عقل
ولا قرآن ، فإنسه من المعلوم بالعقل أن المتأخر يستفيد
من المتقدم دون العكس ومن المعلوم في الدين أن أفضل الأولياء
يستفيدون من الأنبياء " .
(٣)

(١) الفتاوى ٣٦٥/١١ - ٣٦٦ .

(٢) انظر الفتاوى ٣٦٦/١١ - ٣٧٢ .

(٣) المصذية ٢٤٧/١ .

وأجابه رحمه الله عن دعواهم أن خاتم الأولياء يأخذ عن
الله من غير حاجة للنبي فقال : " ومن ادعى أن من الأولياء
الذين بلغتهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم من الله
طريق إلى الله لا يحتاج فيه إلى محمد، فهذا كافر
ملحد ، وإذا قال أنا محتاج إلى محمد في علم الظاهر
دون علم الباطن أوفى علم الشريعة دون علم الحقيقة
فهو شر من اليهود والنصارى الذين قالوا : إن محمدا رسول إلى
الأميين دون أهل الكتاب ، فإن أولئك آمنوا ببعض وكفروا
ببعض فكانوا كفارا بذلك ، وكذلك هذا الذي يقول إن محمدا
بعث بعلم الظاهر دون علم الباطن آمن ببعض ما جاء به وكفر
ببعض فهو كافر ، وهو أكفر من أولئك لأن علم الباطن الذي
هو علم إيمان القلوب ومعارفها وأحوالها هو علم بحقائق
الإيمان الباطنية ، وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال
الإسلام الظاهرة ، فإذا ادعى المدعى أن محمدا صلى
الله عليه وسلم إنما علم هذه الأمور الظاهرة دون حقائق الإيمان

وأنه لا يأخذ هذه الحقائق عن الكتاب والسنة فقد ادعى
أن بعض الذى آمن به مما جاء به الرسول دون البعض الآخر
وهذا شر ممن يقول : أو من ببعض وأكفر ببعض ولا يدعى
أن هذا البعض الذى آمن به أدنى القسمين^(١) .

٣- ملالة الرافضة فى تفهيم أئمتهم على الأنبياء :

لرافضة فى أئمتهم ثلاثة أقوال :

- ١- أن الأئمة يساؤون الأنبياء فى المنزلة .
- ٢- أن الأئمة أفضل من الأنبياء إلا أولى العزم .
- ٣- أن الأئمة أفضل من جميع الأنبياء أولى العزم وغيرهم .

هذه أقوالهم فى الأنبياء عدا نبينا محمد صلى الله عليهم وسلم
فهم متفقون على أفضليته على سائر الخلق لأنه جد الأئمة ،
فقولهم فيه صلى الله عليه وسلم تبع لقولهم فى الأئمة . والثالث هو
الذى عليه المتأخرون من الرافضة وكان المذهب استقرار عليه ،
يقول صاحب الأنوار النعمانية^(٢) الرافضى : " أعلم أنه لا خلاف بين

أصحابنا رضوان الله عليهم فى أشرفية نبينا صلى الله عليه وسلم

(١) الفتاوى ٢٢٥/١١ - ٢٢٦ .

(٢) " الأنوار النعمانية " أحد كتب الروافض ومولفه من أكابر علماء الشيعة

ومحدثى الإمامية ، له عدد من المصنفات فى مذهب الرافضة وهو
نعمة الله بن عبد الله الجزائرى يزعمون أنه من ولد موسى الكاظم
توفى سنة ١١١٢ هـ - انظر مقدمة كتابه هذا ١/د - ل ، ونسبته الى
جزائر البصرة - انظر هدية العارفين ٢/٤٩٧ ومعجم المؤلفين ١٣/١١٠ والأعلام

على سائر الأنبياء عليهم السلام للأخبار المتواترة ، وإنما
 الخلاف بينهم في أفضلية أمير المؤمنين والأئمة الطاهريين
 عليهم السلام على الأنبياء ما عدا جدهم صلى الله عليه وسلم ،
 فذهب جماعة إلى أنهم أفضل باقى الأنبياء ما خلا أولى
 العزم فإنهم أفضل من الأئمة ، وبعضهم إلى المساواة ، وأكثر
 المتأخرين إلى أفضلية الأئمة عليهم السلام على أولى
 العزم وغيرهم " قال : " وهو الصواب " ثم ذهب يسرد جملة
 (١)
 من الأخبار الموضوعة والأكاذيب المفتراة ليدل على أن
 ذلك هو الصواب .

فالرافضة لم يفضلوا الأنبياء على الأئمة في أحد أقوالهم البتة
 إلا أولى العزم في قول المتقدمين ، ولقد صنف أحد أئمتهم وهو
 (١)
 المرتضى رسالة سماها " الرسالة الباهرة في فضل العترة
 الطاهرة " احتج فيه - قال الطبري (ب) : " بطريقة لم يسبقه

(١) الأنوار النعمانية ٢٠/١ - ٢١ .

(أ) هو أبو القاسم علي بن الحسين ، من أحفاد الحسين بن علي رضي الله عنهما
 واضح كتاب نهج البلاغة المكذوب على الإمام علي ، وكان يقول
 بالاعتزال ، ت ٤٣٦ هـ . انظر تاريخ بغداد ٤٠٢/١١ وميزان الاعتدال
 ١٢٤/٣

(ب) هو أحمد بن علي بن أبي طالب ، أحد فقهاء الرافضة في القرن السادس
 انظر هدية العارفين ٩١/١ ومعجم المؤلفين ١٠/٢

(١) إليها أحد" - لتفضيل الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم

(٢)
على جميع الخلق .

(١) وقد عقد المجلس بابا في كتاب الإمامة من كتابه الضخم
بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار " قال:
" باب تفضيلهم عليهم السلام على الأنبياء وعلى جميع الخلق
وأخذ ميثاقهم عنهم وعن الملائكة وعن سائر الخلق ، وأن أولى
العزم إنما صاروا أولى عزم بحبهم صلوات الله عليهم " ثم
ذكر تحته ثمان وثمانين رواية من شائع الأكاذيب الموضوعة
(٣)
المفتراة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الأئمة .

(١) الاحتجاج ٥٠٦/٢٠

(٢) انظر الاحتجاج ٥٠٦/٢ - ٥٠٩ ، وبحار الأنوار ٣٣٢/٢٧ - ٣٣٧

(٣) بحار الأنوار ٢٦٧/٢٥ - ٣١٩

(١) هو محمد باقر بن محمد تقى ، علامة الرافضة بل هو

عندهم ولي مشيخة الإسلام ، ت ١١١ هـ .

انظر : معجم المؤلفين ٩١/٩ والأعلام ٤٨/٦ .

وعقيد في ذات الكتاب بابا قال : " باب أنهم أعلم من
الأنبياء عليهم السلام " وأورد تحته ثلاث عشرة رواية من
(١)
أكاديبهم .

وتروى الرافضة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " قال لي
جبريل : يا محمد ، علي بن أبي طالب خير البشر ومن
(٢)
أبي فقد كفر " . وهكذا لم تكتف الرافضة باختلاق
الشنايع حتى نسبتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو
منها ومنهم براء .

ولقد قال الخميني زعيم الرافضة في العصر الحالي وقد
مات قريبا - : " إن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاما
(٣)
لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل " .

فمن ضروريات مذهب الرافضة كما يقول الخميني أن الأئمة
أفضل مقاما من الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين هكذا بهذا
الإطلاق من غير استثناء .

والرافضة تعتقد أن التفاضل بين الأنبياء إنما هو في حمل نور
الأئمة فمن حمل نور الأئمة من الأنبياء كان أفضل ممن لم يحمله ،

(١) بحار الأنوار ١٩٣/٢٥ - ٢٠٠ .

(٢) أمالي الصدوق ص ٧١ ، وبحار الأنوار ٣٠٦/٢٥ .

(٣) الحكومة الإسلامية ٥٢ ، وانظر كتابه " كشف الأسرار " ص ١٧٣ .

ولذلك فإن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى عليه السلام عندهم لأن موسى كان خاليا من نور الأئمة ولذلك خاف واضطرب لما رأى الحبال والعصى تسعى ، أما إبراهيم فلم يخف وكان مطمئنا حين وضع في المنجنيق وقذف به في النار لأنه مستند إلى مافى طبعه من أنوار حجج الله ولذائف إن من جعله الله من الطبقة العليا يعنى الأنبياء حامل أنوار محمد وآل محمد جعله أقوى طاقة وأفضل من الذى (١)
لم يجعله حامل أنوارهم من الأنبياء ."

وثمة مقياس آخر للتفاضل بين الأنبياء عند هؤلاء الرافضة ألا وهو حب آل البيت وولايتهم ، وفي الترجمة التى عقدها المجلسى لباب فى كتابه التى ذكرتها بنصها قريبا : " وأن أولى العزم إنما صاروا أولى العزم بحبهم طوات الله عليهم " ومن الروايات الموضوعة التى ذكرها فى ذلك الباب :
" مانبى نبي قط إلا بمعرفة حقنا وتفضيلنا على من سوانا " (٢) ، ورواية عندهم وقعت فى حديث الإسراء أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " فإذا ملك قد أتانى فقال : يا محمد

(١) انظر " نبوة أبى طالب " لمزمل حسين ص ١٤٨ .

(٢) بحار الأنوار ٢٨١/٢٥ و ٣٠٣ .

واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا: على ما بعثوا؟، فقلت :

معاشر الرسل والأنبياء على ما بعثكم الله قبلي ؟ قالوا :

على ولايتك وولاية علي بن أبي طالب ، وهو قوله تعالى :

(١)

واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا " . هذه عقيدة الرافضة أن

الأنبياء بعثوا بولاية الأئمة والله يقول : " واسأل من أرسلنا

من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون " الزخرف

٤٥ ، فالله ورسوله أخبرا أن الأنبياء بعثوا بالتوحيد، توحيد

الله في العبادة ، والرافضة تعتقد أنهم بعثوا بولائفة

الأئمة، وتنحل هذا الاعتقاد محمداً صلى الله عليه وسلم، ولقد

أخبر الله أن الحكمة من خلق الخلق هي توحيد الله :

" وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " الذاريات ٥٦ والرافضة

تقول : " لولا وجود الأئمة لما كان في خلقه البشر حكمة ولما ظهرت

(٢)

الفاضل " وينحلون النبي صلى الله عليهم وسلم أنه قال : " يا علي

لولا نحن ما خلق الله آدم ولا حواء ولا الجنة ولا النار ولا السماء

(٣)

ولا الأرض "

(١) بحار الأنوار ٣٠٧/٢٥ و ٣١٨ .

(٢) اثبات الإمامة للنيسابوري ص ٤١ .

(٣) عيون أخبار الرضا ٢٦٢/١ ، وغاية المرام وحجة الحضام ص ٩٠ .

فلا غرو إذاً - وهذه عقيدتهم في الأئمة أن الخلق خلقوا
لأجل ولايتهم وأنه لولا وجودهم لم تظهر الفضائل - لا غرو
أن يعتقدوا أن الأئمة خير من الأنبياء .

والرافضة أكذب خلق الله ، يقول ابن تيمية رحمه الله : " وقد اتفق
أهل العلم بالنقل والرواية والإسناد على أن الرافضة أكذب
الطوائف " والكذب فيهم قديم ولهذا كان أئمة الإسلام يعلمون
(١)
امتيازهم بكثرة الكذب " . وذكر رحمه الله جملة من
الآثار الثابتة عن الأئمة في تكذيبهم ، عن مالك والشافعي
والأعمش وأبو حنيفة ، ذكر قول الشافعي : " لم أر أحداً شهد
بالزور من الرافضة " .

وقول الأعمش : " أدركت الناس وما يسمونهم إلا الكذابين " وقول
شريك : " أحمل العلم عن كل من لقيت إلا الرافضة فإنهم يفعون
الحديث ويتخذونه ديناً " قال ابن تيمية : " وشريك هذا هو
شريك بن عبد الله القاضي ، قاضي الكوفة ، من أقران الثوري

(١) منهاج السنة ٥٩/١

وأبى حنيفة ،وهو من الشيعة الذى يقول بلسانه : أنا من الشيعة ،وهذه شهادته فيهم ^(١) " وذكر رحمه الله أن أصحاب الصحيح كالبخارى وغيره لم يرووا عن خيار الشيعة القدماء مع أنهم خيار الشيعة لاتفاق العلماء على أن الكذب فى الشيعة أظهر منه فى جميع الطوائف وأكثر ^(٢) . وذكر رحمه الله أن البدع متنوعة وأن الخوارج على مروقهم من الدين إنما كانت بدعتهم عن جهل وضلال فى معرفة معانى الكتاب قال رحمه الله : " وأما الرفض فاصل بدعتهم عن زندقة وإلحاد ،وتعمد الكذب كثير فيهم ،وهم يقولون بذلك حيث يقولون : ديننا التقية وهو أن يقول أحدهم بلسانه خلاف ما فى قلبه ،وهذا هو الكذب والنفاق ،ويدعون مع هذا أنهم هم المؤمنون دون غيرهم من أهل الملّة ويمفون السابقين الأولين بالردة والنفاق ،فهم فى ذلك كما قيل : رمتنى بدائها وانسلت ^(٣) ، إذ ليس فى المظهرين للإسلام أقرب إلى النفاق

(١) منهاج السنة ٦١/١ وانظر ترجمة شريك فى : سير أعلام النبلاء

٢٠٠/٨ ، وتهذيب التهذيب ٣٣٣/٤ .

(٢) منهاج السنة ٦٦/١ - ٦٧ .

(٣) هذا مثل تضربه العرب فيمن يعيتر غيره بما فيه هو ، انظر

قصة هذا المثل فى مجمع الأمثال ١٠٢/١ و ٢٨٦ .

والردة منهم ، ولا يوجد المرتدون والمنافقون في طائفة
أكثر مما يوجد فيهم ، واعتبر ذلك بالغالبية من النصيرية
وغيرهم ، وبالملاحدة الإسماعيلية وأمثالهم " قال : " وعمدتهم
في الشرعيات ما نقل لهم عن بعض أهل البيت ، وذلك النقل
منه ما هو صدق ومنه ما هو كذب عمدا أو خطأ وليسوا
(١)
أهل معرفة بصحيح المنقول وضعيفه كأهل المعرفة بالحديث " .

(١) منهاج السنة ٦٨/١ - ٦٩ .

الفصل الثالث

فُضِّلَ الصَّحَابَةُ وَالْمَقَامُ عَلَيْهِمُ

الفصل الثالث: (فعل الصحابة والمفاطلة بينهم) .

المبحث الأول : تعريف المحبة وبيان فعلها وتفاظلها .

المحبة في اللغة :

المحبة مشتقة من الفعل حب وهو أصل في اللغة يدل على مقارنة شيء ومقاربتة ، فيشتق من هذا الأصل لكل أمر فيه معنى المقارنة والمقاربة ، ومنه قولهم : أصحب الرجل إذا انقاد ، وكل شيء لأم شيئا فقد استمحبه .^(١)

والمحابب المعاشر وفيه معنى المقارنة ، وقال سبحانه :
" فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم " الداريات ٥٩ .
يعنى ، بالذين ظلموا شركى مكة وبأصحابهم الذين أهلَكُوا المذكورين في الآيات قبلها قوم لوط وفرعون وقومه وعاد وثمود وقوم نوح ، فسامهم أصحابا مع بعد ما بينهم فى الزمن لمقاربتهم لهم فى الحال .
ففى اطلاق اسم المحبة فى أصل اللغة توسيع إذ تطلق على أدنى ملاينة . والمحبة ، إجماع صاحب - أو اسم جمع له - ، بمعنى الأصحاب فتقول : هؤلاء محبة^(٢)

(١) انظر معجم مقاييس اللغة ٣/٢٣٥ .

(٢) انظر المرجع السابق وتهذيب اللغة ٤/٢٦٢ والمصاح ٢/١٦٢ .

(٣) لسان العرب ١/٥١٩ .

(٤) انظر زاد المسير / ٤٤٠ .

(٥) انظر اللسان ١/٥٢٠ والمصاح ٤/٢٦١ .

(١)
فسلان يعنى أصحابه أو مصدر قولك محب يحب .

(١)
فى (الكفاية) للخطيب البغدادى أن الباقلانى قال : " لا خلاف
بين أهل اللغة فى أن القول (صحابي) مشتق من الصحبة ، وأنه
ليس بمشتق من قدر منها مخصوص بل هو جار على كل من محب
غيره قليلا كان أو كثيرا ، كما أن القول مُكَلَّم ومخاطب
وفسارب مشتق من المكالمة والمخاطبة والضرب وجار على
كل من وقع منه ذلك قليلا كان أو كثيرا ، وكذلك جميع
الأسماء المشتقة من الأفعال ، وكذلك يقال صحبت فلا ناحولا ،
ودهرا ، وسنة ، وشهرا ، ويوما ، وساعة ، فيوقع اسم المصاحبة
بقليل ما يقع منها وكثيره ، وذلك يوجب في حكم اللغة
إجرا هذا على من محب النبي صلى الله عليه وسلم ولو ساعة
من نهار ، وهذا هو الأصل فى اشتقاق الاسم " .

(٢)

(١) تهذيب اللغة ٢٦٢/٤ .

(٢) الكفاية ١٠٠ (وانظر تدريب الراوى ٢١١/٢)

(١) هو أحمد بن على بن ثابت البغدادى " أبوبكر " أحد الحفاظ المحدثين

المؤرخين ، له تصانيف مبتكرة فى مصطلح الحديث ، ت ٤٦٣ هـ .

انظر سيرة أعلام النبلاء ٢٧٠/١٨ ، وطبقات الشافعية ١٢/٣ .

المحبة في الاصطلاح:

المحبة في الاصطلاح هي: "لقيا النبي صلى الله عليه وسلم مع الإيمان به والموت على الإسلام سواء طالبت مجالسة من لقيه أو قصرت أوراؤه من غير مجالسة أولم يره أصلا لعارض كالعمى وسواء روى عنه أولم ير أو غزى معه أولم يغز" هذا أصح ما قيل في تعريف المحبة، كما يقول حجر^(١)، وقال: "هذا التعريف مبني على الأصح المختار عند المحققين كالبخاري وشيخه أحمد بن حنبل ومن تبعهما". وهذا^(٢) التعريف هو قول جمهور العلماء سلفا وخلفا، كما يقول ابن كثير^(٣)، وهو المعروف من طريقة أهل الحديث، كما يقول ابن الصلاح، وقال: "بلغنا عن أبي المظفر السمعاني المروزي أنه قال: أصحاب الحديث يطلقون اسم الصحابة على كل من روى عنه

(١) الإصابة ٧/١.

(٢) الإصابة ٨/١، وانظر قول الإمام أحمد في الكفاية ص ٩٩

وقول البخاري في صحيحه مع الفتح ٣/٧.

(٣) اختصار علوم الحديث - مع الباعث الحثيث - ١٥٥.

(أ) هو عثمان بن عبد الرحمن الكردي، من فقهاء الشافعية ومن فضلاء عصره في الحديث ورجاله وعلومه، يقول ابن العماد: "وإذا أطلق الشيخ في علماء الحديث فالمراد به هو"، ت ٦٤٣ هـ. انظر سير أعلام النبلاء

١٤٠/٢٢ وشذرات الذهب ٢٢١/٥.

حديثاً أو كلمة، ويتوسعون حتى يعدون من رآه رؤية ممن

المحابة^(١)، قال ابن حجر في اسم المحبة: "ويطلق^(٢)

أيضاً على من رآه رؤية ولو على بعد" قال ابن كثير:

"قد نص على أن مجرد الرؤية كاف في إطلاق المحبة: البخاري

وأبوزرعة وغير واحد ممن صنف في أسماء المحابة كابن عبد

البر وابن منده وأبوموسى المدينى وابن الأثير^(٤) قال الامام

أحمد: "كل من صحبه - (يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم) - سنة

أوشهراً أو يوماً أو ساعة أو رآه فهو من أصحابه له من المحبة

على قدر ما صحبه وكانت سابقته معه وسمع منه ونظر اليه نظيرة^(٥)

وكذا قال على بن المدينى رحمه الله^(٦) وقال مالك نحو ذلك^(٧).

(١) مقدمة ابن الصلاح ١٤٦.

(٢) فتح الباري ٣/٧.

(٣) انظر الاستيعاب - بهامش الإصابة - ١٣/١.

(٤) اختصار علوم الحديث - مع الباعث الحثيث - ٥١ - ١٥٢.

(٥) رواه عن أحمد بسنده اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد ١٦٠/١.

(٦) انظر المرجع السابق ١٦٧/١.

(٧) انظر الفتاوى ٢٩٨/٢٠.

قال ابن حجر: " القول بالتعميم هو الذى صرح به الجمهور وهو المعتبر، والله سبحانه وتعالى أعلم، وقد كان تعظيم الصحابة ولو كان اجتماعهم به صلى الله عليه وآله وسلم قليلا مقررًا عند الخلفاء الراشدين وغيرهم، فمن ذلك ما قرأت في كتاب أخبار الخوارج تأليف محمد بن قدامة المروزي بخط بعض من سمعته منه في سنة سبع وأربعين ومائة" ونقل ابن حجر سند المؤلف حتى قوله: " عن نبيج العنزى عن أبي سعيد الخدري قال: كنا عنده وهو متكئ، فذكرنا عليا ومعاوية، فتناول رجل معاوية فاستوى أبو سعيد الخدري جالسا ثم قال: كنا ننزل رفاقا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكانا في رفقة فيها أبو بكر فنزلنا على أهل أبيات وفيهم امرأة حبلى ومعنا رجل من أهل البادية فقال للمرأة الحامل: أيسرك أن تلدى غلاما؟ قالت: نعم، قال: إن أعطيتنى شاة ولدت غلاما، فأعطته، فسجع لها أسجعا، ثم عمد إلى الشاة فذبحها وطبخها، وجلسنا نأكل منها ومعنا أبو بكر، فلما علم بالقصة قام فتقيا كل شيء أكله، قال: ثم رأيت ذلك البدوي أتيت به عمر بن الخطاب وقد هجا الأنصار، فقال لهم عمر: لولا أن له صبة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أدري مانال فيها لكفيتكموه ولكن له

صحبة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم " قال ابن حجر:

(١)

" رجال هذا الحديث ثقات " .

قال الخطيب البغدادي : " قال ابن عمرو : رأيت أهل العلم

يقولون : كل من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أدرك الحلم

وأسلم وعقل أمر الدين ورضيه فهو عندنا ممن صحب النبي

صلى الله عليه وسلم ولو ساعة من نهار ولكن أصحابه على

(٢)

طبقاتهم وتقدمهم في الإسلام " .

وقال ابن تيمية : " الصحبة اسم جنس تقع على من صحب النبي صلى

الله عليه وسلم قليلا كان أو كثيرا ، لكن كل منهم له من الصحبة

بقدر ذلك ، فمن صحبه سنة أشهر أو يوما أو ساعة أو آه

(١) الإصابة ١١/١ - ١٢ .

(٢) الكفاية ٩٩ ، وفي هذا اشتراط التمييز فيمن رأى النبي صلى الله

عليه وسلم لصحة الصحبة وثبوتها ، وقد قال ابن حجر

في الفتح ٣/٧ - ٤ : " هل يشترط في الراى أن يكون بحيث يميز

مارآه أو يكتفى بمجرد حصول الرؤية ؟ محل نظر ، وعمل من

صنف في الصحابة يدل على الثانى ، فإنهم ذكروا مثل محمد

ابن أبى بكر الصديق وإنما ولد قبل وفاة النبي صلى الله عليه

وسلم بثلاثة أشهر وأيام كما ثبت في الصحيح أن أمه أسماء

(١)

مؤمننا فله من الصحة بقدر ذلك "

== بنت عميس ولدته في حجة الوداع قبل أن يدخلوا مكة
وذلك في أواخر ذي القعدة سنة عشر من الهجرة " ،وقد اختار رحمه
الله في الإصابة ٨/١ حمل إطلاق العلماء أن من رأى النبي صلى
الله عليه وسلم فهو صحابي على اشتراط التمييز، لأنه لاتصح نسبة الرواية
الى غير المميز ، إلا أنه استثنى من غير المميزين من رآه النبي صلى
الله عليه وسلم فقال بثبوت صحبته لرواية النبي صلى الله عليه وسلم له
لا لروايته هو النبي، واعتبره تابعيا من حيث الرواية ، ونص عبارته
في الإصابة : " وأطلق جماعة أن من رأى النبي صلى الله عليه وسلم فهو
صحابي وهو محمول على من بلغ سن التمييز اذ من لم يميز لاتصح
نسبة الرواية إليه ، نعم يصدق أن النبي صلى الله عليه وسلم رآه فيكون
صحابيا من هذه الحثية ومن حيث الرواية يكون تابعيا " فيكون بهذا
قد أثبت رحمه الله لمن حاله ما ذكر اسم الصحة دون ما يتبع الاسم من
حكم ، لأن التابعي حكمه البحث عن عدالته عند الرواية أما الصحابي فعادل
لا يبحث عن عدالته - كما سيأتي بيانه - ، والظاهر والله أعلم رجحان
اشتراط التمييز في صحة الصحة مطلقا . أما اشتراط بلوغ الحلم في صحة
الصحة فقد عده ابن حجر في الإصابة ٨/١ قولا شاذا .

وقال ابن حجر في الفتح ٤/٧ : " هذا كله فيمن رآه وهو في قيد الحياة
الدنيوية أما من رآه بعد موته وقبل دفنه فالراجح أنه ليس بصحابي وإلا
لعد من اتفق أن يرى جسده المكرم وهو في قبره المعظم ولو في هذه الأعصار "

وقول الجمهور هو المتعين الذي لا ينبغي العدول عنه لقيام النص عليه ، فلقد قال صلى الله عليه وسلم : " يأتى على الناس زمان يغزو فئام من الناس فيقال لهم : فيكم من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : نعم ، فيفتح لهم ، ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم : فيكم من رأى من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم " الحديث ، وهذا نص صريح ^(١) باعتبار الصحة بمجرد الرواية فقد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه يقال للفئام الذين يغزون : " فيكم من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم " هكذا " رأى " ، ثم أنه يقال لمن بعدهم : " فيكم من رأى من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم " هكذا " صحب " والمعنى به المقول فيهم سابقا " من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم " .

فالمحابي من رأى النبي صلى الله عليه وسلم مؤمنا به وإن قلت صحبته . قال ابن حجر رحمه الله بعد أن ذكر التعريف المتقدم في مصدر هذه المسألة وأنه مبني على الأصح المختار عند المحققين قال : " ووراء ذلك أقوال أخرى شاذة كقول من قال لا يعد

(١) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري واللفظ لمسلم ، البخارى مع الفتح

٨٨/٦ و٦٦١/٧ و٣/٧ ، ومسلم ١٩٦٢/٤ .

(٢) انظر الفتاوى ٢٠/٢٩٨ .

صحابيا إلا من وصف بأحد أوصاف أربعة: من طالت مجالسته
أوحفظت روايته، أو ضبط أنه غزا معه، أو استشهد بين يديه
وكذا من اشترط في صحة الصحبة: بلوغ الحلم، أو المجالسة ولو قصرت ^(١)
وذكر رحمه الله من الاعتراضات على من اشترط الملازمة أو الفزو
أو نحو ذلك أنه يخرج كثيرا من المشهورين بالصحبة والرواية
عن الحكم بالعدالة، كوائل بن حجر ومالك بن الحويرث وعثمان
بن أبي العاص وغيرهم ممن وفد عليه صلى الله عليه وسلم
ولم يقم عنده إلا قليلا وانصرف، وكذلك من لم يعرف إلا برواية
الحديث الواحد ولم يعرف مقدار إقامته من أعراب القبائل . ^(٢)
ونقل السيوطي في "التدريب" من "النكت" : " ولا يشترط البلوغ
على الصحيح، وإلا لخرج من أجمع على عده في الصحابة كالحسن
والحسين وابن الزبير ونحوهم. ^(٣)
هذا، وينبغي أن يعلم أن لفظ " الصحبة " فيه عموم وخصوص
فعمومها يندرج فيه كل من رآه مؤمنا به صلى الله عليه وسلم
وقد يخصص بعض الصحابة بما يتميز به في الصحبة عن غيره، ولذلك
لما كان لأبي بكر رضي الله عنه من الصحبة ما يتميز به على جميع الصحابة

(١) الإصابة ٨/١ وانظر تدريب الراوي ٢/٢١٢.

(٢) انظر الإصابة ١١/١ وتدريب الراوي ٢/٢١٦.

(٣) تدريب الراوي ٢/٢١٠.

خصه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : " هل أنتم تاركوا لى
صاحبى ؟ هل أنتم تاركوا لى صاحبى " (١) فى خبر المحاورة التى
وقعت بين أبى بكر وعمر رضى الله عنها ، وكذا لما كان لعبد
الرحمن بن عوف رضى الله عنه من الصبغة ما امتاز به هو ومن شاركه
فيه من السبق والإنفاق قبل الفتح خصهم النبي صلى الله عليه وسلم
باسم الصبغة فى قوله لخالدين الوليد رضى الله عنه - وكان
ممن أسلم بعد الفتح - " لاتسبوا أصحابى " (٢)

فضل الصبغة وتفاضلها :

إن للصبغة شرفا عظيما وفضلا فاضلا ولو لم تقع إلا بمجرد
الرؤية ، فإن رؤيته صلى الله عليه وسلم شرف لمن آمن به ،
ولقد قال صلى الله عليه وسلم : " يأتى على الناس زمان يغزو
فئام من الناس فيقال لهم : فيكم من رأى رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فيقولون : نعم ، فيفتح لهم ، ثم يغزو فئام من
الناس فيقال لهم : فيكم من رأى من صحب رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، فيقولون : نعم ، فيفتح لهم ، ثم يغزو فئام

(١) أخرجه البخارى انظر الصحيح مع الفتح ٣٠٣/٨ .

(٢) متفق عليه من حديث أبى سعيد الخدرى ، البخارى مع الفتح ٢١/٧ ومسلم
. وانظر الفتاوى ٢٥/٥٩ - ٦٢ .

من الناس ، فيقال لهم : هل فيكم من رأى من صحب من صحب

(١)

رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون : نعم ، فيفتح لهم ."

فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم فتح الله على المسلمين بسبب

من رآه مؤمناً به ، وكفى به دلالة على شرف رؤيته صلى الله

عليه وسلم وعظيم فضلها ، قال ابن تيمية رحمه الله في هذا

" وهذه خاصية لا تثبت لأحد غير الصحابة ولو كانت أعمالهم أكثر

(٢)

من أعمال الواحد من أصحابه صلى الله عليه وسلم . " وقد قال صلى

الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه في صحابته : " لو أن

(٣)

أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه "

وهذا لفضل المحبة ، قال النووي : " معناه لو أنفق أحدكم مثل

أحد ذهباً ما بلغ ثوابه في ذلك ثواب نفقة أحد أصحابي

مدا ولا نصف مد " قال : " وفضيلة المحبة ولو لحظة لا يوازيها عمل

(٤)

ولاتنال درجتها بشيء . " ولقد رأينا في الحديث الذي نقله

ابن حجر عن كتاب أخبار الخوارج - وتقدم قريباً - كيف كان

تعظيم الصحابة ولو كان اجتماعهم بالنبي صلى الله عليه وسلم قليلاً ، مقررًا

(١) تقدم تخريجه تقريباً .

(٢) الفتاوى ٤/٤٦٥ .

(٣) متفق عليه ، البخارى مع الفتح ٢١/٧ ، ومسلم ٤/١٩٦٧ .

(٤) شرح مسلم ١٦/٩٣ .

عند الخلفاء الراشدين وغيرهم حتى قال عمر رضى الله عنه
 فى الرجل صاحب السجج : " لولا أن له صحبة من رسول الله صلى الله
 عليه وسلم ما أدري ما نال منها لكفيتكموه ، ولكن له صحبة
 من رسول الله صلى الله عليه وسلم " قال ابن حجر رحمه الله :
 " وفى ذلك أبين شاهد على أنهم كانوا يعتقدون أن شأن الصحبة
 لا يعد له شيئاً " وعلى هذا جرى اعتقاد الأئمة رحمهم الله ، وفى
 عقيدة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان لا يتبرأ من من
 رأت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال رحمه الله : " فادناهم صحبة
 هو أفضل من القرن الذين لم يروه ولو لقوا الله بجميع الأعمال ،
 كان هؤلاء الذين صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم ورأوه وسمعوا
 منه ومن رآه بعينه وآمن به ولو سامة أفضل بصحبته من التابعين
 ولو عملوا كل أعمال الخير " وسبق نقل قول ابن تيمية رحمه
 الله : " قال غير واحد من الأئمة : إن كل من صحب النبي صلى
 الله عليه وسلم أفضل ممن لم يصحبه مطلقاً ، وعينوا ذلك فى مثل معاوية
 وعمر بن عبدالعزيز ، مع أنهم معترفون أن سيرة عمر بن عبدالعزيز
 أعدل من سيرة معاوية ، قالوا : لكن ما حصل لهم بالصحبة من الدرجة أمر
 لا يساويه ما يحصل لغيرهم بعلمه " .
 (١) الإصابة ٢/١
 (٢) انظر طبقات الحنابلة ٢/٣٠٢ .
 (٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/١٦٠ .
 (٤) الفتاوى ٤/٥٢٧ .

والأدلة الشرعية الناطقة بفضل الصحابة التي سنورد طرفاً منها في المبحث القادم إن شاء الله فيها البيان الواضح لفضل الصحبة وعظيم قدرها ، إلا أن الصحابة متفاضلون في الصحبة ، إذ لكل منهم من فضلها القدر الذي أدركه منها ، وكما سلف قريباً أن الصحبة فيها خصوص وعموم فهي وإن عمت جميع من رأى النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن فيهم من اختص من الصحبة بما استحق به التفضيل على غيره فامتاز به ، قال ابن حجر :
 "لأخفاء برجنان رتبة من لازمه صلى الله عليه وآله وسلم وقتل معه أو قتل تحت رايته على من لم يلزمه أولم يحضر معه مشهداً ، وعلى من كلمه يسيراً أو ماشاه قليلاً أو رآه على بعض أوفى حال الطفولة ، وإن كان شرف الصحبة حاصلاً للجميع ومن ليس له منهم سماع منه فحديثه مرسل من حيث الرواية وهم مع ذلك معدودون في الصحابة لما نالوه من شرف الرؤية" (١).

قال السفاريني : "وقسم الإمام ابن الجوزي الصحبة إلى ثلاث مراتب : الأولى : من كثرت معاشرته ومخالطته للنبي صلى الله عليه وسلم بحيث لا يعرف صاحبها إلا بها فيقال هذا صاحب فلان وخادمه لمن تكررت خدمته لا لمن خدمه مرة واحدة أو ساعة أو يوماً .

الثانية : من اجتمع به صلى الله عليه وسلم مؤمناً ولو مرة واحدة لأنه يصدق عليه أنه صحبه وإن لم ينته إلى الاشتهار به .

(١) شرح نخبة الفكر ص ٥٦ .

(١)

الثالثة : من رآه صلى الله عليه وسلم رؤية ولم يجالسه ولم يمشه.

فالحبة متفاضلة في ذاتها ولذلك يتفاضل الصحابة فيها،

وهو أمر ظاهر ويزيد في بيان ظهوره ما سيرد في المباحث

القادمة من أدلة تفاضل الصحابة، وقد رأى القرطبي - رحمه

الله - أن الصحابة مشتركون في الحبة بلاتباين ولاتفاضل وإنما

(٢)

وقع تباينهم في الفضائل بما منحهم الله من المواهب والوسائل .

وهو رأي لا أجد له وجهاً، إلا أن يكون مراده استواءهم في القدر الذي تحصل

به الحبة، وهو مجرد اللقاء اليسير القليل، والله أعلم.

(١) لوامع الأنوار البهية ٥٢/١.

(٢) انظر تفسير القرطبي ٢٦٤/٣.

المبحث الثاني : فضل الصحابة وتفضيلهم على الأمة :

لقد تضافرت الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وصحيح النظر على إثبات فضل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أن فضلهم لا يدركه أحد ممن بعدهم فهم أفضل الأمة ، وأطرق هنا أربعة مطالب لبيان فضل الصحابة :

- الأول - في عدالتهم ،
- الثاني - في تفضيلهم على الأمة .
- الثالث - في تفضيلهم على سائر المؤمنين أتباع الأنبياء مطلقا .
- الرابع - في الحقوق الواجبة لهم على المؤمنين .

المطلب الأول : عدالة الصحابة رضوان الله عليهم :

الصحابة رضوان الله عليهم كلهم عدول عدالتهم ثابتة معلومة بتعديل الله ورسوله لهم وثناء الله ورسوله عليهم ، فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله لهم وهو المطلع على بواطنهم إلى تعديل أحد من الخلق ، والأدلة الشرعية ناطقة بعدالتهم من كتاب الله وسنة رسوله واجماع أهل الاجماع وصحيح النظر .

فائدة الكتاب : الآيات الكثيرة في الثناء عليهم والإخبار عن

صدق إيمانهم ومنها :

قوله سبحانه : " محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا

سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة
ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى
على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين
آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا " الفتح ٢٩
ففي هذه الآية أمور :

١- شهادة الله سبحانه للصحابة بمعية رسوله صلى الله عليه
وسلم فقال واصفا لهم " والذين معه " ولهذه المعية من
الفضل الواسع فالمعناها من المنزلة ،

٢- ثناء الله عز وجل عليهم وإخباره بعفائهم التي يرتضيها
وشهادته لهم بأنهم أشداء على الكفار وأنهم رحماء بينهم
فهم أعداء أعداء الله/أولياء أولياء الله ، وهم يتعبدون
الله ركعا سجدا يبتغون فضل الله ورضوانه .

٣- إخباره سبحانه أنه مدحهم في كتبه السابقة التوراة والانجيل
وضرب لهم خير الأمثلة وأدلهما على فضلهم ، وجعلهم مثالا
يقتدى بهم .

٤- وعده سبحانه لهم بالمغفرة والأجر العظيم .
فأي فضل بعد ذلك ، وأي شهادة بعد شهادة الله وأي ثناء بعد
ثناءه سبحانه ، فرضوان الله عليهم ما أتم فضلهم وعدالتهم .

❖ وقال سبحانه : " يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين " الأنفال ٦٤ ففي الآية شهادة من الله لهم باتباع نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإخبار منه سبحانه بأنهم يكفون نبيه ، وقد عطف كفايتهم على كفايته هو سبحانه ، فأى ثناء بعد هذا وأى تعديل .

❖ وقال سبحانه بعد أن ذم المنافقين وأخبر أنه طبع على قلوبهم : " لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئكَ لهم الخيرات وأولئكَ هم المفلحون ، أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم " التوبة ٨٨ - ٨٩ . ففي الآيتين شهادة من الله لهم بالإيمان وأنهم مع رسوله وأنهم جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، ووعدُهم بالفوز العظيم دلالة على صدق إيمانهم وجهادهم وقبول الله له ، فأى تزكية بعد هذه .

❖ وقال سبحانه : " والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم " التوبة ١٠٠ ، ففي هذه الآية ثناء وتنويه بشأن كافة الصحابة بجميع فئاتهم السابقون من المهاجرين والأنصار

ومن اتبعهم وإخبار من الله أنه رضي عنهم ورضوا عنه

ووعده لهم بالفوز العظيم، فأي تزكية وأي تعديل بعدهذا.

■ ومثل هذه الآية في الدلالة قوله سبحانه: "للفقراء المهاجرين

الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا

وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون، والذين تبوءوا

الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون

في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم

خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون، والذين جاءوا

من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا

بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك

رؤوف رحيم " الحشر ٨، ٩، ١٠ ففيها ثناء من الله لجميع

الصحابة على تفاوت فضائلهم.

وغير تلك من الآيات كثير جدا، يُزكّي الله عز وجل فيها صحابة

رسوله ويشهد لهم بمحبة بواطنهم وطهارة ضمائرهم وصلاح

سرائرهم، ويخبر برضاه عنهم وبما أعدّه لهم من النعيم.

وفي السنة: أدلة كثيرة لا تحصى في تعديل الصحابة وتزكيتهم

فمن ذلك:

« قوله صلى الله عليه وسلم : " لاتسبوا أصحابي ، لاتسبوا أصحابي ،

فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً

ما أدرك مد أحدهم ولانصفه " ^(١) فهذه تزكية وتعديل من

النبي صلى الله عليه وسلم لصحابته اقترنت بيمينه صلى

الله عليه وسلم ، ففيها أشد التأكيد على عدالتهم .

« وقال صلى الله عليه وسلم : " خير أمتى قرنى ثم الذين يلونهم ... »

(٢)

الحديث . فهذا إثبات لخيرية الصحابة وتزكيتهم وتفضيلهم على

من بعدهم .

« وقال صلى الله عليه وسلم : " أصحابي أمانة لأمتى فإذا ذهب

(٣)

أصحابي أتى أمتى ما يوعدون " فهذه شهادة منه صلى الله عليه

وسلم أن أصحابه أمان لأمته من ظهور البدع واختلاف القلوب والفتن

(١) تقدم تخريجه وهو متفق عليه ، وهو وإن كان وروده فيمن أسلم قبل

الفتح وقاتل - كما تقدم بيانه - إلا أنه جرى في كلام أهل العلم

قاطبة على الأخذ بعموم لفظه من غير نظر إلى خصوص سببه .

واتفقوا على إيراد في ذكر فضل الصحابة جملة ، والخطاب فى

الحديث وإن كان للصحابة فإنه يتناول غيرهم من باب أولى لأن

نهيه صلى الله عليه وسلم صحابته عن سب بعضهم بعضاً نهى لغيرهم

أن يسبهم ، وفيه تعديل لهم وتزكية / رضوان الله عليهم .

(٢) متفق عليه ، البخارى مع الفتح ٣/٧ ، ومسلم ١٩٦١/٤ .

(٣) أخرجه مسلم ١٩٦١/٤ .

(١)
ونحو ذلك .

وغير ذلك من أدلة السنة في الصحابة جملة ، وقد ورد في خصوص
أفراد من الصحابة وطوائف منهم آيات وأحاديث سيأتي بعضها
في المبحث الثالث ان شاء الله .

وأما الإجماع : فإن الأمة مجمعة على عدالتهم لم يخالف إلا
من لا يعتد بخلافه من شذوذ المبتدعة الذين لا يقدر شذوذهم
في استقرار الإجماع وصحته ، ولقد تكاثر نقل الإجماع في العلماء
فقد نقله جمع كبير منهم ، كابن عبد البر^(٢) ، والخطيب البغدادي^(٣) ،
وابن الصلاح^(٤) ، والنووي^(٥) ، وابن كثير^(٦) ، وابن حجر وغيرهم^(٧) .
وهو إجماع منقول على عدالتهم وأنهم ليسوا بحاجة إلى تعديل
وأنه لا يسأل عن حالهم ولا ينظر في أحوالهم بحثا عن عدالتهم
فهم عدول قطعا وجزما رضي الله عنهم .

(١) انظر شرح مسلم للنووي ٨٣/١٦ .

(٢) انظر الاستيعاب - بهامش الإصابة - ٩/١ .

(٣) انظر الكفاية ٩٦ .

(٤) انظر مقدمته ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٥) انظر شرح مسلم ١٤٩/١٥ ، والتقريب مع شرح السيوطي ٢١٤/٢ .

(٦) انظر اختصار علوم الحديث - مع الباعث الحثيث - ١٥٤ .

(٧) انظر الإصابة ٩/١ .

وأما دلالة النظر الصحيح: على عدالتهم فكما قال الخطيب

البغدادى : " على أنه لو لم يرد من الله عز وجل ورسوله فيهم
شيء مما ذكرناه لأوجبت الحال التي كانوا عليها من
الهجرة والجهاد والنصرة وبذل المهج والأموال وقتل
الآباء والأولاد والمناصرة في الدين وقوة الإيمان واليقين القطع
على عدالتهم والاعتقاد لنزاهتهم وأنهم أفضل من جميع المعدلين
(١)
والمزكين الذين يجيئون من بعدهم أبد الأبدين " .

وكما قال ابن عبد البر : " ولا أعذل ممن ارتضاه الله لمحبة
نبيه صلى الله عليه وسلم ونصرتة ، ولا تزكية أفضل من ذلك
(٢)
ولا تعديل أكمل منها " .

(١) الكفاية ٠٩٦

(٢) الاستيعاب - بهامش الاصابة - ٢/١ .

المطلب الثانى : تفضيل الصحابة على سائر الأمة :

الصحابة رضوان الله عليهم هم أفضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وما ذكر من الأدلة فى المطلب الأول دليل على ذلك ، فليس أفضل ممن ركاهم الله وعدلهم وأثنى عليهم ورضي عنهم ، وقد أخبر صلى الله عليه وسلم أنهم أمان لأمتهم ما بقي منهم فيها أحد فإن هم ذهبوا أتى الأمة ما تعد ، وأقسم صلى الله عليه وسلم أن أحد من الأمة إن أنفق مثل أحد ذهباً لا يبلغ بذلك مد أحدهم ولا نصفه ، ولقد صرح صلى الله عليه وسلم بأنهم رضوان الله عليهم خير أمة فقال : " خير أمتى القرن الذين بعثت فيهم " (١) وقال صلى الله عليه وسلم : " خير هذه الأمة القرن الذين بعثت فيهم " . (٢)

قال الإمام أحمد رحمه الله : " فادناهم محبة هو أفضل من القرن الذين لم يروه صلى الله عليه وسلم ولو لقوا الله بجميع "

(١) أخرجه مسلم عن أبى هريرة ١٩٦٣/٤ .

(٢) أخرجه مسلم عن عمران بن حنين ١٩٦٥/٤ ، واتفق عليه البخارى

ومسلم عن عمران بلفظ " خيركم قرنى " .

صحيح البخارى مع الفتح ٢٥٨/٥ ومسلم ١٩٦٤/٤ .

الأعمال ، كان هؤلاء الذين صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم ورآوه
وسمعوا منه ومن رآه بعينه وآمن به ولوساعة أفضل بصحته
من التابعين ولوعملوا كل أعمال الخير ^(١) وقال ذلك على
^(٢) ابن المدينى أيضا .

المطلب الثالث : تفضيل الصحابة على سائر البشر بعد الأنبياء .

الصحابة أفضل أتباع الأنبياء على الإطلاق دل على ذلك كتاب
الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : " كنتم خير
أمة أخرجت للناس " آل عمران ١١٠ ، وقال سبحانه : " وكذلك جعلناكم
أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم
شهيدا " البقرة ١٤٣ .

وفسر لفظ الأمة فى الآيتين بأن المراد به الصحابة فهو عام
مخصوص وقيل بل هو وارد فى الصحابة دون غيرهم أى أنه
لاعموم فى اللفظ ، وعليه فاللفظ ظاهر الدلالة على أن الصحابة
أفضل الناس بعد الأنبياء .

وفسر اللفظ بأن المراد به أمة محمد صلى الله عليه وسلم عامة ، وهو ^(٣)

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١٦٠/٢ وطبقات الحنابلة ٢٤٣/١ - ٢٤٤ .

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١٦٧/٢ .

(٣) انظر الكفاية ٩٣ ، وزاد المسير ٤٣٨/١ .

(٤) انظر زاد المسير ٤٣٨/١ .

دال على ما ذكر أيضا لأن أصل الخطاب لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان عاما في أمته فهم المخاطبون أصلا به وهم يدخلون في عموم اللفظ دخولا أوليا ، وقد ثبت كونهم أفضل الأمة فهم أفضل الأمة التي هي خير الأمم ، فهم أفضل الأمم على الإطلاق .

(١)
وقال صلى الله عليه وسلم : " خير الناس قرني " ، وسأله رجل :
أي الناس خير ؟ قال صلى الله عليه وسلم : " القرن الذي أنا فيه " .
(٢)
وقال صلى الله عليه وسلم " بعثت من خير قرون بني آدم قرنا فقرنا
حتى كنت من القرن الذي كنت منه " .
(٣)

فهذا دال على أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أفضل أصحاب الأنبياء ، أفضل بني آدم بعد الأنبياء ، رضى الله عنهم وأرضاهم .

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود ، انظر البخاري

مع الصحيح ٢٥٩/٥ .

(٢) أخرجه مسلم ١٩٦٥/٤ .

(٣) أخرجه البخاري - الصحيح مع الفتح ٥٦٦/٦ .

وقال صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى " كنتم خير أمة

أخرجت للناس " : " إنكم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها

(١)

وأكرمها على الله " وهذا ظاهر الدلالة على ما ذكرنا .

قال ابن تيمية رحمه الله : " ومن نظر فى سيرة القوم بعلم

وبصيرة وما من الله عليهم به من الفضائل علم يقينا أنهم

خير الخلق بعد الأنبياء ، لا كان ولا يكون مثلهم ، وأنهم

(٢)

الصفوة من قرون هذه الأمة التى هى خير الأمم وأكرمها على الله .

(١) أخرجه أحمد فى المسند ٤/٤٤٧ و ٣/٥ ، ٥ ، والدرامى فى سننه ٢/٣١٣ ،

وابن ماجة فى سننه ٢/١٤٣٣ ، والترمذى وحسنه ٥/٢١١ ، والحاكم فى

المستدرک ٤/٨٤ ، وقال الحاكم : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه "

ووافقه الذهبى ، قال الألبانى فى تخريج المشكاة ٣/١٧٧٢ :

" إسناده حسن " .

(٢) العقيدة الواسطية - ضمن المجموعة العلمية السعودية - ص ٨٩ .

المطلب الرابع : الحقوق الواجبة لهم على الأمة :

يجب لمحاببة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أوجبتهم
النصوص وأجمع عليه المسلمون من حبهم والترضى عنهم والاستغفار
لهم ، وسلامة الصدور والألسن لهم ، قال الطحاوي : " ونحب
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نفرط في حب أحد منهم
ولا نتبرأ من أحد منهم ، ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم
ولا نذكرهم إلا بخير وحبهم دين وإيمان وإحسان وبغضهم كفر
(١)
ونفاق وطغيان " .

(١)
وعقد اللالكائي عنواناً فقال : " سياق ماروي في أن معرفة
(٢)
فضائل المحابة من السنة " وأسند تحته عدداً من الروايات
عن المحابة والتابعين والأئمة فيها تصريحهم بأن حب
المحابة سنة وكذا معرفة فضائلهم ، وعقد عنواناً آخر
فقال : " سياق ماروي عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحث على

(١) العقيدة الطحاوية - ضمن المجموعة العلمية السعودية - ص ٢٧ .

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٧/١٢٣٧ .

(١) هو هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي ، أبو القاسم
اللالكائي ، من حفاظ الحديث وفقهاء الشافعية له مصنفات

في العقيدة . ت ٤١٨ هـ .

انظر : تاريخ بغداد ٧٠/١٤ وتذكرة الحفاظ ٣/١٠٨٣ .

حب الصحابة وذكر محاسنهم والترحم عليهم والاستغفار
لهم والكف عن مساوئهم " وأسند عددا من الروايات عنه
صلى الله عليه وسلم في ذلك منها قوله صلى الله عليه وسلم :

" الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق فمن أحبهم
أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله " (٢) ، وعقد عنوانا فقال:
" سياق ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من النهي عن الغلو
في الحب والبغض في تفضيل الصحابة والاستغراق في الإطراء والذم
لهم " (٣) .

وقال أبو نعيم : " فالواجب على المسلمين في أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم إظهار ما مدحهم الله تعالى به وشكرهم عليه
من جميل أفعالهم وجميل سوابقهم وأن يفضوا عما كان منهم
في حال الغضب والإغفال وفرط منهم عند استئلال الشيطان إياهم ،
وناخذ في ذكرهم بما أخبر الله تعالى به فقال تعالى : " والذين
جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١٢٤١/٧ .

(٢) أخرجه البخاري انظر الصحيح مع الفتح ١١٣/٧ .

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١٣٩٤/٧ .

بالإيمان " الآية فإن الهسفوة والزلل والغضب والإفسراط

لا يخلو منه أحد ، وهو لهم غفور ، ولا يوجب ذلك البراءة منهم

ولا العداوة لهم ولكن يجب على السابقة الحميدة ويتولى للمنقبذة

(١)

الشريفة " . وقال ابن قدامة : " ومن السنة تولى أصحاب رسول الله

صلى الله عليه وسلم ومحبتهم وذكر محاسنهم والترحم عليهم

والاستغفار لهم والكف عن ذكر مساوئهم وما شرب بينهم واعتقاد

(٢)

فضلهم ومعرفة سابقتهم "

قال ابن تيمية رحمه الله : " ومن أصول أهل السنة والجماعة :

سلامة قلوبهم وألسنتهم لمحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم

كما وصفهم الله في قوله : (والذين جاءوا من بعدهم يقولون

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في

قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم) ، وطاعة النبي

صلى الله عليه وسلم في قوله : (لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي

بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه) ،

ويقبلون ما جاء به الكتاب والسنة والإجماع من فضائلهم ومراتبهم "

(١) الإمامة (٣٤١ - ٣٤٢ .

(٢) لمعة الاعتقاد . ٤٠ .

قال رحمه الله : " ويتبرأون من طريقة الروافض الذين يبغضون
المحابة ويسبونهم ومن طريقة النواصب الذين يؤذون أهل
البيت بقول أو عمل " إلى أن قال : " وهم مع ذلك
لا يتعقدون أن كل واحد من المحابة معصوم من كبائر
(١)
الإثم ومغائره " .

ذلك هو الواجب لمحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا غلو
ولا تقصير .

ولقد قام تعظيم محابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفوس
السلف الصالح رضوان الله عليهم حتى قد ورد في عقيدة الإمام أحمد
ابن حنبل رحمه الله أنه كان يعلم أحاديث فضائل المحابة
ولا ينصب عليها المعيار وينكر على من يقول : إن هذه الفضيلة
لأبي بكر باطلة ، وهذه الفضيلة لعلي باطلة لأن القوم أفضل
(٢)
من ذلك .

(١) العقيدة الواسطية - ضمن المجموعة العلمية السعودية - ص ٨٥-٨٨

(٢) طبقات الحنابلة ٣/٣٠٣ .

المطلب الخامس : الواجب فيما شجر بينهم :

الواجب على المسلم فيما شجر بين الصحابة رضوان الله عليهم من النزاع في موقعة الجمل وموقعة صفين الإمساك عن ذلك والكف عن ذكره وذكرهم رضوان الله عليهم بسوء واعتقاد أن ما شجر بينهم غير قاذح في عدالتهم، فالله قد عد لهم وهو أعلم بما سيقع منهم، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذكرهم بسوء فقال: " لا تسبوا أصحابي " وهو نهى عام مطلق لا يقيده شيء عن السب وما في حكمه، فالنيل من واحد منهم لما شجر بينهم داخل في هذا النهي، قال الإمام أحمد رحمه الله: " النبي عليه السلام قد نهى عن ذكر أصحابه وأن ينتقص أحد منهم وقد علم النبي صلى الله عليه وسلم ما يكون بعده من أصحابه، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نبياً بذلك، فلاقتداء برسول الله والكف عن ذكر أصحابه فيما شجر بينهم والترحم عليهم، ونقدم من قدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، نرضى بمن رضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد موته " .

(١)

(١) السنة للخلال ص ٤٨١ .

فالنبي صلى الله عليه وسلم قد نهى عن سبهم، وأثنى عليهم

وعدلهم مع إخباره عما سيقع بينهم من الشجار، روي عن ابن

عباس قوله: "لاتسبوا أصحاب محمد فإن الله قد أمر بالاستغفار

لهم وهو يعلم أنهم سيقتلون".^(٢)

(١) قال صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه: "انه سيكون بينك

وبين عائشة أمر، قال: أنا يا رسول الله؟ قال: نعم" الحديث

أخرجه أحمد في المسند ٣٩٣/٦، والبزار، انظر كشف الاستار ٩٣/٤،

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٣٤/٧: "رواه أحمد، والبزار

والطبراني ورجاله ثقات"، وحسن ابن حجر الحديث في الفتح ٥٥/١٣،

فهذا إخبار عن موقعة الجمل.

وقال صلى الله عليه وسلم: "لاتقوم الساعة حتى تقتتل فئتان

عظيمتان يكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة" أخرجه

البخاري انظر صحيحه مع الفتح ٨١/١٣ ومسلم، والمراد بالفئتين

طائفة علي وطائفة معاوية - انظر فتح الباري ٢٠٣/١٢ و ٨٥/١٣،

فهذا إخبار عن موقعة صفين.

(٢) الحديث أخرجه أحمد في فضائل الصحابة ٥٩/١ و ٩١٠/٢، وقال

ابن تيمية في المنهاج ٢٢/٢: "وروي ابن بطة بالإسناد الصحيح"

وذكر الحديث بسنده.

قد قال سبحانه : " والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم " الحشر ١٠ .

(أ) قال ابن بطّة رحمه الله : " نكف عما شجر بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد شهدوا المشاهد معه وسبقوا الناس بالفضل فقد غفر الله لهم ، وأمرنا بالاستغفار لهم والتقرب إليه بمحبتهم وفرض ذلك على لسان نبيه وهو يعلم ما سيكون منهم وأنهم سيقتلون ، وإنما فظنوا على سائر الخلق لأن الخطيئة والعمد قد وضع عنهم وكل ما شجر بينهم مغفور لهم ، ولا ينظر في كتاب مفين والجمل ووقعة الدار وسائر المنازعات التي جرت بينهم ، ولا تكتبه لنفسك ولا لغيرك ، ولا ترويه عن أحد ولا تقرأه على غيرك ولا تسمعه ممن يرويه ، فعلى ذلك اتفق سادات علماء هذه الأمة من النهي عما وصفناه ، منهم : حماد بن زيد ويونس بن عبيد ، وسفيان الثوري ، وسفيان بن عيينة ، وعبد الله بن إدريس ، ومالك بن أنس ، وابن أبي ذئب ، وابن المنكدر ،

(أ) هو عبد الله بن محمد بن محمد بن حمدان ، أبو عبد الله العكبري ، من كبار الحنابلة في عصره وأحد علماء الحديث ، رحل في طلب الحديث ، ثم لزم بيته أربعين سنة صنف فيها كتباً كثيرة تزيد على مائة ، ت ٣٨٧ هـ انظر : سير أعلام النبلاء ٥٢٩/١٦ وطبقات الحنابلة ١٤٤/٢ .

وابن المبارك ، وشعيب بن حرب ، وأبو اسحاق الفزاري ، ويوسف

بن أسباط ، وأحمد بن حنبل ، وبشر بن الحارث ، وعبد الوهاب الوراق

كل هؤلاء قد رأوا النهي عنها والنظر فيها والاستماع إليها

وحذروا من طلبها والاهتمام بجمعها ، وقد روي عنهم فيمن

فعل ذلك أشياء كثيرة بألفاظ مختلفة متفقة المعاني على

(١)

كراهية ذلك والإنكار على من رواها واستمع إليها " .

وخير ما يقال فيما شجر بين الصحابة ما قاله الإمام أحمد

لما سئل عن ذلك فقراً : " تلك أمة قد دخلت لها ما كسبت ولكم

ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون " البقرة ١٤١ ، قال

ابن كثير بعد ذكره جواب أحمد هذا : " وكذا قال غير واحد

(٢)

من السلف " وقد قال عمر بن عبد العزيز لما ذكروا اختلاف

أصحاب محمد عنده : " أمر أخرج الله أيديكم منه ما تعلمون

(٣)

السننكم فيه " ، وقال : " تلك دماء طهر الله منها يدي

(٤)

فلا أحب أن أخضب بها لساني " .

(١) الشرح والإبانة ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٢) البداية والنهاية ١٣٠/٨ .

(٣) الطبقات الكبرى ٣٨٢/٥ .

(٤) منهاج السنة ٢٥٤/٦ .

وإن من أصول أهل السنة كما نقل ابن تيمية : أنهم " يتبرءون
من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبونهم ومن طريقة
النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل ، ويمسكون
عما شجر بين الصحابة ، ويقولون : إن هذه الآثار المروية
في مساوئهم منها ما هو كذب ، ومنها ما قد زيد فيها ونقص
وغير عن وجهه ، والمحيح منه هم فيه معذرون : إما مجتهدون
مصيبون وإما مجتهدون مخطئون ، وهم مع ذلك لا يعتقدون أن كل
واحد من الصحابة معصوم عن كبائر الإثم وفنائه ، بل يجوز عليهم
الذنوب في الجملة ، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة
ما يصدر منهم إن صدر ، حتى إنه يغفر لهم من السيئات ما لا يغفر
لمن بعدهم وقد ثبت بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنهم خير
القرون ، وإن المدمن أحدهم إذا تمرد به كان أفضل من جبل أحد
ممن بعدهم ، ثم إذا كان قد صدر من أحدهم ذنب فيكون قد تاب
منه ، أو أتى بحسنات تمحوه ، أو غفر له بفضل سابقته ،
أو بشفاعته محمد صلى الله عليه وسلم الذي هم أحق الناس بشفاعته ،
أو ابتلى ببلاء في الدنيا كفر به عنه ، فإذا كان هذا في الأمور
المحققة فكيف بالأمور التي كانوا فيها مجتهدين إن أصابوا

فلهم أجران وان أخطأوا فلهم أجر واحد والخطأ مغفور
لهم ، ثم القدر الذى ينكر من فعل بعضهم قليل نزرهممور
فى جنب فضائل القوم ومحاسنهم من الإيمان بالله ورسوله
والجهاد فى سبيله .

والهجرة والنصرة والعلم النافع والعمل الصالح^(١) . ولعل الشأن
فيهم رضى الله عنهم كما قال صلى الله عليه وسلم فى أهل بدر
" وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر ، فقال:
أعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " ، ولقد كان فى الشجار الذى
وقع بينهم رضوان الله عليهم جماعة من أهل بدر .

(١) العقيدة الواسطية - ضمن المجموعة العلمية السعودية ص ٨٧ - ٨٩ .

(٢) متفق عليه من حديث على رضى الله عنه ،

انظر البخارى مع الفتحة ١٤٣/٦ ، وصحيح مسلم ١٩٤١/٤ .

المبحث الثالث : تفاضل الصحابة :

المطلب الأول : أدلة وقوع التفاضل بين الصحابة :

لقد دلت أدلة الشرع من نصوص الكتابة والسنة على وقوع

التفاضل بين الصحابة رضوان الله عليهم ،

فمن أدلة الكتاب : قوله تعالى : " لا يستوى منكم من أنفق من قبل

الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد

وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى " الحديد ١٠ ، ففي الآية تفضيل

طائفة من الصحابة وهم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا

على طائفة منهم وهم الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا مع

اثبات الفضل للجميع والتنبيه على أن تفضيل بعضهم على بعض

لا يفضى الى تنقيص المفضول إذ " كلا وعد الله الحسنى " .

وقال سبحانه : " والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار

والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه " الآية - التوبة ١٠٠ ،

ففي الآية الثناء على الصحابة أجمعين مع تخصيص السابقين

الأولين بالذكر وهذا التخصيص ثم التعميم دليل على تفضيل

المخصصين بالذكر على العموم .

وقال سبحانه وتعالى : " يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن

اتقيتن " الأحزاب ٣٢ .

قال ابن عباس : " يريد : ليس قدركم عندي مثل قدر غيركم

(١)

من النساء الصالحات أنتن أكرم عليّ وثوابكن أعظم " ففي الآية

دلالة على تفضيل نساء النبي صلى الله عليه من الصحابييات على

سائرهن .

ومن السنة : ما اتفق عليه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد

الخدري رضي الله عنه - قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا تسبوا

أصحابي ، فلوان أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ، ما بلغ مد أحدهم

(٢)

ولانصيفه " وجاء في رواية لمسلم بيان سبب ورود الحديث : أنه

كان بين خالد بن الوليد وبين عبدالرحمن بن عوف شيء فسه خالد ،

فقال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك . وفيه دليل على تفضيل

بعض الصحابة على بعض إذ فيه تفضيل عبدالرحمن وطبقته ممن أسلم

قبل الفتح وقاتل على خالد وطبقته ممن أسلم بعد الفتح وقاتل .

كما تقدم ذكره -

■ وقال ابن عمر - رضي الله عنهما - : " كنا نخير بين الناس في زمن

النبي صلى الله عليه وسلم فنخير أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان

(٣)

بن عفان " .

(١) زاد المسير ٣٧٨/٦ ، وتفسير البغوي ٥٢٧/٣ .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، انظره مع الفتح ١٦/٧ .

وفى رواية : " كنا نقول ورسول الله حي : أفضل أمة النبي

(١)

صلى الله عليه وسلم أبوبكر ثم عمر ثم عثمان " زاد فى رواية :

(٢)

" فيسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فلا ينكره "

فهذا إقرار رسول الله صلى الله عليه وسلم التفاضل بين الصحابة ،

وفيه تفضيل آحاد بأعيانهم على من سواهم وتفضيل واحد بعينه

على صاحبه وهو تفضيل أبى بكر على عمر وعمر على عثمان ،

وقد قال ابن عبد البر : " فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة

من أصحابه بفوائد خصى كل واحد منهم بفضيلة وسمه بها وذكره

فيها " قال : " ولم يأت عنه عليه الصلاة والسلام أنه فضل منهم

واحدا على صاحبه بعينه من وجه يصح " قلت : لعله يريد أنه

لم يصح ذلك عنه صلى الله عليه وسلم من قوله لامن إقراره وإلا

فحديث ابن عمر صحيح ، ثم قال ابن عبد البر : " ولكنه ذكر

من فضائلهم ما يستدل به على مواضعهم ومنازلهم من الفضل

والدين والعلم وكان صلى الله عليه وسلم أحلم وأكرم معاشرة وأعلم

(١) أخرجه أبوداود فى سننه ٢٠٦/٤ .

(٢) أخرجه الطبرانى كما قال الهيثمى فى المجمع ٥٨/٩ وابن حجر فى

الفتح ١٦/٧ ، قال الهيثمى : " فى الأوسط " وأخرجه ابن أبى عاصم

فى السنة ٥٦٨/٢ وصححه الألبانى وأخرجه اللالكائى فى الشرح ١٣٦٥/٧ .

بمحاسن الأخلاق من أن يواجه فاضلا منهم بأن غيره أفضل منه فيجد من ذلك في نفسه ، بل فضل السابقين منهم وأهل الاختصاص به على من لم ينل منازلهم فقال لهم : " لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه ، وهو من معنى قول الله تعالى : " لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا " ، ومحال أن يستوى من قاتله صلى الله عليه وسلم مع من قاتل عنه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض من لم يشهد بدرا وقد رآه يمشى بين يدي أبي بكر : " تمشى بين يدي من هو خيرك منك " وهذا لأنه كان أعلمنا ذلك في الجملة لمن شهد (١)

(١) روى عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أمشى أمام أبي بكر فقال : " أتمشى أمام أبي بكر ؟ ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أحد أفضل من أبي بكر " أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/٣٢٥ البغدادى في تاريخ بغداد ٤٣٨/١٢ بلفظ : " يا أبا الدرداء ، أتمشى أمام من هو خير منك في الدنيا والآخرة ؟ ما طلعت الشمس .. " ، وقد تقدم الكلام فيه ص ٤٧ في هامش وأن فيه مدلسين رووا بالعنعنة ، والحديث أخرجه الطبرانى أيضا بسندين في أحدهما كذاب وفي الآخر مدلس ، ذلك ذلك الهيثمى في المجمع ٩/٤٤٠

بدرا والحديبية ، ولكل طبقة منهم منزلة معروفة وحال
(١)
موصوفة".

قلت : ثبوت تفضيل طائفة موصوفة من الصحابة على طائفة
بالكتاب والسنة دليل قوى للقطع بتفضيل واحد بعينه من الطائفة
الفاضلة على واحد بعينه من الطائفة المفضولة ، وحديث أبي
سعيد دليل لمحة هذا المأخذ فإن سبب وروده نزاع بين واحد
بعينه من طائفة فاضلة وهو عبدالرحمن بن عوف ممن أسلم قبل
الفتح وقاتل وآخر بعينه من طائفة مفضولة وهو خالد بن الوليد
ممن أسلم من بعد وقاتل ، فقال صلى الله عليه وسلم ما قال مما يدل
على تفضيله عبدالرحمن على خالد ، والله أعلم ، وهذا الحديث وإن
لم يذكر فيه النبي صلى الله عليه وسلم المحابين باسميهما
إلا أنه كالتنصيص منه صلى الله عليه وسلم بتفضيل واحد بعينه
على صاحبه ، لدلالة سبب الورود على ذلك ولكنه صلى الله عليه
وسلم - كما قال ابن عبدالبر - أكرم وأحلم وأتم خلقا
وأحسن معاشرة من أن يسمى الفاضل والمفضول تسمية مريجة في
مثل هذه الحال ، والله أعلم .

(١) الاستيعاب - بهامش الإصابة - ٩/١ .

وهنا مسألة : وهي : التفاضل ثابت بين الصحابة رضوان الله

عليهم فهل نفاضل بينهم ؟

روى البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما
قال : " كنا فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم لانعدل بأبى
بكر أحدا ، ثم عمر ثم عثمان ، ثم نترك أصحاب النبي
(١)
صلى الله عليه وسلم لانفاضل بينهم " ففى هذا اللفظ حصر
المفاضلة فى الثلاثة دون غيرهم ، ولكن قد ثبت بالكتاب
والسنة تفضيل بعض الصحابة على بعض - كما تقدم طرف
منه وكما سيأتى بيانه - ولا بد من تفضيل من فضله الله
واعتقاد ذلك ، ولذا قال ابن حجر : " قد اتفق العلماء
على تأويل كلام ابن عمر هذا لما تقرره عند أهل السنة قاطبة من
تقديم علي بعد عثمان ومن تقديم بقية العشرة المبشرة على
غيرهم ومن تقديم أهل بدر على من لم يشهدا وغير ذلك
فالظاهر أن ابن عمر إنما أراد بهذا النفي أنهم كانوا
يجتهدون فى التفضيل فيظهر لهم فضائل الثلاثة ظهورا بينا
(٢)
فيجزمون به ولم يكونوا حينئذ أطلعوا على التنصيص " .

(١) البخارى مع الفتح ٥٤/٧

(٢) فتح البارى ٥٨/٧

فمذهب أهل السنة والجماعة تفضيل الصحابة بعضهم على بعض

بمقتضى دلالات النصوص .

المطلب الثاني : أوجه التفاضل بين الصحابة :

لقد دل الكتاب والسنة على أوجه حكما بها في المفاضلة

بين الصحابة، وجماع هذه الأوجه هو ما سلف من كل واحد منهم

من أعمال البر والطاعات التي تتفاضل منزلتها عند الله .

« فمن أوجه التفاضل بينهم: السبق إلى الإسلام فالسابق إلى

الإسلام أفضل من المسبوق ، أفاده قوله سبحانه : " والسابقون

الأولون من المهاجرين والأنصار .. " الآية ١٠٠ التوبة ،

« ومن أوجه التفاضل بينهم: الإنفاق والجهاد قبل الفتح فمن أنفق

من قبل الفتح وقاتل أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد

وقاتلوا ، أفادته آية سورة الحديد .

« ومن أوجه التفاضل بينهم: شهود بدر كما أفاده قول صلى الله عليه

وسلم " لعل الله أن يكون اطلع على أهل بدر فقال :

(١)

أعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم "

(١) سبق تخريجه وهو متفق عليه .

❖ ومن أوجه التفاضل بينهم: شهادة رسول الله صلى الله عليه

وسلم بالجنة فمن شهد له بها أفضل - كما سيأتى بيانه .

❖ ومن أوجه التفاضل بينهم شهود بيعة الرضوان فمن شهدها

أفضل كما سيأتى بيانه .

❖ ومن أوجه التفاضل بينهم تخصيص الرسول صلى الله عليه

وسلم أحدهم بمنقبة .

وغير ذلك من وجود التفاضل بينهم رضوان الله عليهم ، وينبغى

الانتباه الى ما سبق أن بينته فى الباب الأول من كون المفضل

قد يختص بفضيلة لا توجد فى الفاضل إلا أن ذلك لا يقتضى تفضيله

(١)

بها مطلقا، فعثمان بن عفان رضى الله عنه لم يحضر بدرا،

ولكنه أفضل بعد أبى بكر وعمر من جميع المحابة ممن

حضر بدرا ومن لم يحضر.

(١) انظر المغازى ١٥٤/١، والسيرة النبوية ٧٢٠/٢.

المطلب الثالث : فضل الشيعيين أبى بكر وعمر :

لقد دلت الأدلة الشرعية على تقديم أبى بكر المديق
فى الفضل على سائر الصحابة/ ثم من بعده عمر رضى الله
عنهما ، واختص هذان الشيخان رضى الله عنهما بفضل بعد رسول
الله عليه صلى الله عليه وسلم - لا يشاركهما فيه أحد فهما أفضل
الامة بعد نبيها وهما أفضل الخلق بعد الأنبياء .

« قال تعالى : " إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين
كفروا ثاني اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه
لا تحزن إن الله معنا " التوبة ٤٠

" إذ يقول لصاحبه " يعنى النبى صلى الله عليه وسلم يقول
لصاحبه أبى بكر ، وفى حديث أبى بكر قال رضى الله عنه : " قلت
للنبى صلى الله عليه وسلم وأنا فى الغار لو أن أحدهم نظرت تحت
قدميه لأبصرنا ، فقال : (ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله
ثالثهما " (١) فذكر أبى بكر رضى الله عنه بوصف المحبة فى
القرآن دليل على أنه تميز فى صحبته على جميع الصحابة ،

(١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح ٨/٧ ،

ومسلم ١٨٥٤/٤ .

وكذا خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بوصف المحببة
كما في حديث أبي الدرداء قال : " كانت بين أبي بكر وعمـ
محاوره فأغضب أبوبكر عمر فانصرف عنه عمر مغضبا فاتبعه
أبوبكر يسأله أن يستغفر له فلم يفعل حتى أغلق بابـه في
وجهه ، فأقبل أبوبكر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقـال
أبو الدرداء : ونحن عنده - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
أما صاحبكم فقد غامر ، قال : وندم عمر على ما كان منه ، فأقبل
حتى سلم وجلس الى النبي صلى الله عليه وسلم وقص على رسول
الله صلى الله عليه وسلم الخبر ، فقال أبو الدرداء : وغضب رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وجعل أبوبكر يقول : والله يا رسول الله
لأنا كنت أظلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أنتم
تاركوا لى صاحبى ، هل أنتم تاركوا لى صاحبى ؟ إني قلت :
يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ، فقلتم كذبت وقال
أبوبكر : صدقت ^(١)

ففي هذا الحديث من الدلائل الظاهرة على فضل أبي بكر وتفضيله
على عمر وسائر الصحابة ما لا يحتاج معه الى بيان .

(١) أخرجه البخارى في صحيحه وقال : " غامر : سبق بالخير "

« وقال صلى الله عليه وسلم : " ان من آمنَّ الناس عليَّ في محبته
وماله أبابكر ولو كنت متخذا خليلا من أمتي لاتخذت أبا بكر،
إلا خلة الإسلام ، لا يبقين في المسجد خوخة إلا خوخة
(١)
أبي بكر " . »

« ومن حديث جبير بن مطعم قال : أتت امرأة النبي صلى الله عليه
وسلم فامرها أن ترجع إليه ، قالت : أرايت إن جئت ولم أجدك؟
كانها تقول الموت ، قال عليه السلام : " إن لم تجدينني
(٢)
فاتى أبابكر " . »

« ومن حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه
وسلم بعثه على جيش ذات السلاسل فأتيته فقلت : أي الناس
أحب إليك ؟ قال : " عائشة " فقلت : من الرجال ؟ قال : " أبوها "
(٣)
قلت : ثم من ؟ قال : " عمر بن الخطاب " فعد رجالا . فهذا بين
الدلالة على تفضيل أبي بكر ثم عمر على جميع الصحابة . »

« ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : صلى رسول الله صلى
الله عليه وسلم صلاة الصبح ثم أقبل على الناس ، فقال : " بيننا

(١) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ، البخارى مع الفتح ٢٢٧/٧ ،

ومسلم ١٨٥٤/٤ - ١٨٥٥ .

(٢) متفق عليه ، البخارى مع الفتح ١٧/٧ ، ومسلم ١٨٥٦/٤ - ١٨٥٧ .

(٣) متفق عليه ، البخارى مع الفتح ١٨/٧ ، ومسلم ١٨٥٦/٤ .

رجل يسوق بقرة إذ ركبها ففريها ، فقالت : إنا لم نخلق
لهذا ، إنما خلقنا للحرث " فقال الناس : سبحان الله ، بقرة تكلم ؟
فقال : " فإني أومن بهذا أنا وأبوبكر وعمر " وماهما ثم
، وبينما رجل في غنمه إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة ،
فطلب حتى كأنه استنقذها منه ، فقال له الذئب : هذا استنقذتها
منى فمن لها يوم السبع يوم لأراعى لها غيرى ؟ " فقال الناس :
سبحان الله ذئب يتكلم ؟ قال : " فإني أومن بهذا أنا وأبوبكر
(١)
وعمر " وماهما ثم .

« وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو واقف على عمر فى
سرير موته بعد أن ترحم عليه : " ما خلفت أحدا أحب إليّ أن
ألقي الله بمثل عمله منك ، وأيم الله إن كنت لأظن أن يجعلك
الله مع صاحبك وحسبت أنى كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه
وسلم يقول : " ذهب أنا وأبوبكر وعمر ، ودخلت أنا وأبوبكر
(٢)
وعمر ، وخرجت أنا وأبوبكر وعمر " .

(١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح ٥١٢/٦ ، ومسلم ١٨٥٧/٤ - ١٨٥٨ .

(٢) متفق عليه من حديث ابن عباس ، البخارى مع الفتح ٤١/٧ ، ٤٢ ، ومسلم

فهذه نتفة من جملة أحاديث فيها فضيلة ظاهرة لأبى بكر
وعمر رضى الله عنهما وفيها الدلالة الساطعة فى تفضيلهما
على جميع الصحابة .

وقد اتفق أهل السنة والجماعة على ذلك ، يقول ابن تيمية رحمه
الله : " أما تفضيل أبى بكر ثم عمر على عثمان وعلي فهذا متفق
عليه بين أئمة المسلمين المشهورين بالإمامة فى العلم والدين :
من الصحابة والتابعين وتابعهم ، وهو مذهب مالك وأهل المدينة
والليث بن سعد وأهل مصر ، والأوزاعى وأهل الشام ، وسفيان
الثورى وأبى حنيفة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة ، وأمثالهم من
أهل العراق ، وهو مذهب الشافعى وأحمد وإسحاق وأبى عبيد ،
وغير هؤلاء من أئمة الاسلام الذين لهم لسان صدق فى الأمة " قال :
" وحكى مالك إجماع أهل المدينة على ذلك فقال : ما أدركت أحدا
ممن أقتدى به يشك فى تقديم أبى بكر وعمر " (١)

(١) الفتاوى ٤٢١/٤ ، وانظر الرواية عن مالك بمانقله ابن تيمية
فى شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٣٦٨/٧ .
وانظر منهاج السنة ٧٢/٢ - ٧٣ .

المطلب الرابع : تفصيل الخلفاء الراشدين والتفاضل بينهم :

أولا . ذكر تفضيلهم على سائر الأمة :

المقصود بالخلفاء الراشدين: أبوبكر الصديق، وعمر بن الخطاب

وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم .

وهؤلاء الأربعة هم أفضل الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم

بإجماع الصحابة وأتباعهم وإجماع أهل الإجماع من بعدهم حتى

يومنا هذا والآن تقوم الساعة بإذن الله لايزيغ عن ذلك إلا زائغ

ولقد قال صلى الله عليه وسلم : " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء

(١)

المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ " .

فوصفهم بالهدى والرشاد وجعلهم قدوة للأمة وقرن سنتهم بسنته

وفي حديث ابن عمر السابق ذكره قريبا اتفاق الصحابة رضوان

الله عليهم على تقديم أبي بكر وعمر وعثمان على سائر الناس

هذا والنبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم يقر ذلك بسكوته

عنه صلى الله عليه وسلم ، ولم يذكر ابن عمر في رواية الصحيح

عليه رضي الله عنه وقال : " ثم نترك أصحاب رسول الله صلى الله

عليه وسلم لانفاضل بينهم " ، وقد اتفق العلماء - كما ذكر

(١) أخرجه أحمد في المسند ١٢٦/٤ - ١٢٧ ، وابن ماجه في سننه ١٦/١ ،

وأبو داود في سننه ٢٠١/٤ ، والترمذي في جامعه ٤٣/٥ ، والدرامسى

قريباً - على تأويل كلام ابن عمر هذا فمما قالوه في ذلك:

أنه لا يلزم من تركهم التفاضل إذا ذاك أن لا يكونوا اعتقدوا

بعد ذلك تفضيل علي عليه من سواه ، قاله ابن حجر ^(١) ، ونقل عن

الكرمانى قوله : " ويحتمل أن يكون ابن عمر أراد أن ذلك كان

وقع لهم في بعض أزمنة النبي صلى الله عليه وسلم فلا يمنع ذلك
(٢)

أن يظهر بعد ذلك لهم " وقال الخطابي : " وجه ذلك والله

أعلم أنه أراد به الشيوخ وذوى الأسنان منهم الذين كان

رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ضرب به أمر شاورهم فيه وكان

علي رضوان الله عليه في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم

حديث السنن " قال : " ولم يُرد ابن عمر الإزراء بعلي رضي الله

عنه ولا تأخير له ودفعه على الفضيلة بعد عثمان ، وفضله مشهور

لا ينكره ابن عمر ولا غيره من الصحابة ، وإنما اختلفوا في تقديم

عثمان عليه ^(٣) " قال ابن حجر معقباً على الخطابي : " ما اعتذره

(٤)
من جهة السنن بعيد لا أثر له في التفضيل المذكور " ،

وقال ابن حجر : " الظاهر أن ابن عمر إنما أراد بهذا النفي أنهم كانوا

(١) فتح الباري ١٧/٧

(٢) فتح الباري ٥٨/٧

(٣) معالم السنن - بهامش المختصر - ١٨/٧

(٤) فتح الباري ٥٨/٧

يجتهدون في التفضيل فيظهر لهم فضائل الصحابة ظهوراً
بيناً فيجزمون به ولم يكونوا حينئذ اطلعوا على التنصيص " -
قال : " ويؤيده ما روى البزار عن ابن مسعود قال : (كنا نتحدث
أن أفضل أهل المدينة علي بن أبي طالب) رجاله موثقون ، وهو
محمول على أن ذلك قاله ابن مسعود بعد قتل عمر " . هذا ، وقد
جاء في بعض طرق حديث ابن عمر إقراره بتقديم علي على غيره
ففيها يقول ابن عمر رضي الله عنهما " كنا نقول في زمن رسول
الله صلى الله عليه وسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الناس ثم
أبو بكر ثم عمر ، ولقد أوتي ابن أبي طالب ثلاث خصال لأن يكون
لى واحدة مفهن أحب إليّ من حمر النعم ، زوجه رسول الله صلى
الله عليه وسلم ابنته وولدت له وسداً لأبواب الإلابة في المسجد

(١) انظر كشف الاستار ١٩٥/٣ ، وقال الهيثمي في المجمع ١١٦/٩ : " "

رواه البزار وفيه يحيى بن السكن ، وثقه ابن حبان وضعفه صالح

جزرة وبقية رجاله ثقات " ، وأخرجه الحاكم في المستدرک ١٣٥/٣

بلفظ " أقضى " وهو بهذا اللفظ في المطالب العالية ٥٧/٤ .

(٢) فتح الباری ٥٨/٧ .

(١)

واعطاه الراية يوم خيبر".

والحاصل أن هؤلاء الأربعة رضوان الله عليهم هم أفضل الأمة
بعد نبيها بإجماع الصحابة واتباعهم ، ومن حكى هذا الإجماع
الشافعي رحمه الله ، وعقد الخلال في السنة عنوانا فقال :^(٢)
التبعة على من قال : أبوبكر وعمر وعثمان وعلي في التفضيل
، والحجة فيه أن عليا أفضل من بقي بعد عثمان بإجماع أصحاب
محمد صلى الله عليه وسلم^(٣) .

(١) رواه أحمد في المسند ١٦/٢ قال ابن حجر في الفتح ١٥/٧

" إسناده حسن " ، وقال الهيثمي في المجمع ١٢٠/٩ :

" رواه أحمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح " ، وصح أحمد

شاكرا إسناده أحمد ، وأخرجه بن أبي عاصم في السنة

٥٦٩/٢ وقال الألباني : " إسناده جيد ، ورجاله رجال البخاري

غير هشام " .

(٢) انظر فتح الباري ١٧/٧ والاعتقاد ٣٦٩ .

(٣) السنة ٤٠٤ .

(١) هو أحمد بن محمد بن هارون ، من كبار الحنابلة ، وهو جامع علم أحمد

ابن حنبل ومرتبته ، ت ٣١١ هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٢٩٧/١٤ ، وتاريخ

بغداد ١١٢/٥ .

وقال أبو الحسن الأشعري بعد ذكره هؤلاء الأربعة الراشدين:

" وهؤلاء هم الأئمة الأربعة المجمع على عدلهم وفضلهم رضي الله عنهم أجمعين" ^(١).

وقال الصابوني ^(١) في بيان عقيدة السلف وأصحاب الحديث: " ويشهدون

ويعتقدون أن أفضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي" ^(٢).

وقال ابن تيمية رحمه الله: " خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر

ثم عمر كما تواتر ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب

موقوفا ومرفوعا وكما دل على ذلك الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة وأئمة العلم والسنة ،وبعدهما عثمان وعلي" ^(٣)

وقال رحمه الله في بيان أصول أهل السنة: " ويقرون بماتواتر

به النقل عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وعن غيره ممن أن

(١) الإبانة ٢٥٩.

(٢) عقيدة السلف وأصحاب الحديث - ضمن مجموعة الرسائل المنبرية ١٢٨/١

(٣) مجموعة الرسائل والمسائل ٤٦/١.

(١) هو اسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد ، أبو عثمان ، مقدم أهل الحديث

في خراسان ، وشيخ الاسلام ، من أئمة أهل السنة ت ٤٤٩ هـ. انظر

سير أعلام النبلاء ٤٠/١٨ ، وطبقات الشافعية ١١٧/٣.

خير هذه الأمة بعد نبيها أبوبكر ثم عمر ، ويثلاثون

(١)

بعثمان ، ويربعون علي رضي الله عنهم كما دلت عليه الآثار"

فالواجب اعتقاده تفضيل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله

عنهم على سائر الأمة بل على سائر الخلق بعد الأنبياء ، على نحو

ما تقدم بيانه .

ثانيا : ذكر تفاضل الأربعة رضوان الله عليهم :

أجمع الصحابة رضوان الله عليهم على تفضيل أبي بكر

وتقديمه على سائر الصحابة ثم تفضيل عمر بعده على عثمان

ثم عثمان بعد عمر على من بعده رضوان الله عليهم ، وكانوا

يتحدثون بذلك في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وهو يسمعهم

فلا ينكره - كما تقدم في حديث ابن عمر - ثم أجمعوا على تقديم

علي بعد عثمان فقدموه وبايعوه بالخلافة .

فالصحابة مجمعون على تفضيل أبي بكر على عمر ثم عمر

على عثمان ثم عثمان على علي رضي الله عنهم أجمعين ، ولقد اتفق

الناس - الصحابة وغيرهم - بعد مقتل عمر رضي الله عنه على

(١) العقيدة الواضحة - ضمن المجموعة العلمية السعودية ص ٨٦ .

تفضيل عثمان ،حكى هذا الاتفاق صاحباً رسول الله صلى الله عليه وسلم - عبدالرحمن بن عوف وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهما أماعبدالرحمن فقد قال في قصةبيعة عثمان رضي الله عنه لما اختاره للخلافة بعد عمر : " أمابعد ،ياعلى إنى قد نظرت في أمرالناس فلم أرهم يعدلون بعثمان " (١) وكان قد قال رضي الله عنه قبل ذلك للشيخين عثمان وعلي رضي الله عنهما حين التشاور: " أفتجعلونه - (يعنى أمر الاختيار) - الّى والله على أن لاآلو (٢) عن أفضلكم " وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه لما استخلف عثمان : " أمرنا خير من بقي ولم نأل " وقال رضي الله عنه : (٣)

(١) أخرجه البخارى انظره مع الفتح ١٩٤/١٣ ،وقد كان عبدالرحمن رضي الله عنه قد اجتهد غاية الاجتهاد قال ابن كثير في الباعث الحثيث ص ١٥٥ : " حتى سأل النساء في خدورهن والصبيان في المكاتب فلم يرهم يعدلون بعثمان أحداً " .

(٢) أخرجه البخارى انظره مع الفتح ٦١/٧ .
 (٣) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة ٤٦١/١ قال المحقق : "إسناده صحيح" وابن سعد في الطبقات ٦٣/٣ ،والفسوى في المعرفة والتاريخ ٧٦٠/٢ ،والخلال في السنة ص ٣٨٤ ،وقال الهيثمى في المجمع ٨٨/٩ : " رواه الطبرانى بأسانيد ورجال أحدهما رجال الصحيح " وأخرجه اللالكائى في الشرح ١٣٤٢/٧ .

: "إنا اجتمعنا أصحاب محمد فلم نال

(١)

عن خيرنا ذى فَوْقِ فبايعنا أمير المؤمنين عثمان "

وقال الإمام أحمد " لم يكن بين أصحاب رسول الله اختلاف إن

(٢)

عثمان أفضل من علي ."

ومضى اعتقاد أهل السنة والجماعة على ذلك إلا ما كان من خلاف

يسير في المفاضلة بين عثمان وعلي أيهما أفضل ؟ بعد أن

أجمعوا على تقديم أبي بكر وعمر عليهما في الفضل بلا خلاف

وتفضيل أبي بكر على عمر بلا خلاف .

قال الشافعي رحمه الله : " ما اختلف أحد من الصحابة والتابعين

في تفضيل أبي بكر وعمر وتقديمهما على جميع الصحابة وإنما

اختلف من اختلف منهم في علي وعثمان " . قال البيهقي - بعد ذكره

قول الشافعي هذا بسنده - : " وروينا من جماعة من التابعيين

(١) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة ٢٩٦/١ ، ٤٦٣ ، قال المحقق فني

ص ٢٩٦ / " رجال الاسناد ثقات " ، وقال في ص ٤٦٧ : " اسناده حسن "

وأخرجه ابن سعد في الطبقات ٦٣/٣ ، والفسوى في المعرفة والتاريخ

٧٦١/٢ ، وأخرجه اللالكائي في الشرح ١٣٤٢/٧ .

(٢) السنة للخلال ٣٩٢ .

(١) وأتباعهم نحو هذا" وقال يحيى بن سعيد القطان: "من أدركت من أصحاب النبي والتابعين لم يختلفوا في أبي بكر وعمر وفضلهم —
 (٢) إنما كان الاختلاف في علي وعثمان" والخلاف الذي وقع في ذلك خلاف يسير، وما وقع إلا في المفاضلة بينهما، وتقديم أحدهما على الآخر في الفضل دون الخلافة، فإنهم مجمعون بلا خلاف على تقديم عثمان على علي في الخلافة، وعلى صحة الخلافتين، ثم إن ذاك الخلاف قد انقضى واستقر أمر أهل السنة على تفضيل عثمان على علي ورجع بعض من قال بتقديم علي إلى تقديم عثمان، يقول ابن تيمية رحمه الله: "مع أن بعض أهل السنة كانوا قد اختلفوا في عثمان وعلي رضي الله عنهما بعد اتفاقهم على تقديم أبي بكر وعمر، أيهما أفضل، فقدم قوم عثمان وسكتوا وربعوا بعلي، وقدم قوم عليا، وقوم توقفوا" قال: "لكن استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان ثم علي، وإن كانت هذه المسألة - مسألة عثمان وعلي - ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة، لكن التي يضلل فيها هي مسألة الخلافة، وذلك أنهم

(١) الاعتقاد ٣٦٩.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١٣٦٧/٧.

(أ) هو يحيى بن سعيد بن فروخ القطان، من حفاظ الحديث وأئمة الجرح والتعديل، ثقة حجة من أهل البصرة، قال الامام أحمد: "لم ترعيني مثل يحيى القطان" ت ١٩٧ هـ . انظر تاريخ بغداد ١٤/١٣٥، وتهذيب التهذيب

٢١٦/١١

يؤمنون أن الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر
ثم عمر ثم عثمان ثم علي ، ومن طعن في خلافة أحد من هؤلاء فهو
أضل من حمار أهله " (١)

وقال ابن عبد البر بعد ذكره للخلاف الواقع بين أهل السنة في المفاضلة
بين عثمان وعلي " وأهل السنة اليوم على ما ذكرت لك من تقديم
أبي بكر في الفضل على عمر وتقديم عمر على عثمان وتقديم عثمان
على علي رضي الله عنهم " وقال ابن الصلاح : " وتقديم عثمان هو الذي
استقرت عليه مذاهب أصحاب الحديث والسنة " وقال ابن حجر : " الإجماع
انعقد بأخرة بين أهل السنة أن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم
في الخلافة " (٢)

وحاصل ما كان عليه أهل السنة في المفاضلة بين عثمان وعلي ثلاثة
مذاهب : الأول / تفضيل عثمان ثم علي - وكان مذهب الجمهور .
الثاني / تفضيل علي ثم عثمان - وكان قد ظهر في أهل الكوفة .
الثالث / التوقف من المفاضلة بينهما - وكان قد ظهر في أهل المدينة .

(٣)
فالمذهب الأول هو الذي عليه عامة أهل السنة كما قال ابن عبد البر

(١) العقيدة الواضحة - ضمن المجموعة العلمية السعودية - ص ٨٦ .

(٢) الاستيعاب - بهامش الإصابة - ٥٤/٣ .

(٣) المقدمة ص ١٤٩ .

(٤) فتح الباري ٣٤/٧ .

(٥) الاستيعاب ٥٤/٣ .

(١) والخطابي، وابن حجر وغيرهم، وفي هؤلاء من توقف في التفضيل
عند عثمان فقال بتفضيل عثمان بعد عمر وسكت على ذلك، مع
اعتقاده بالتربيع بعلي، وإنما قصد بالتوقف عند عثمان الاقتداء
بحديث ابن عمر المتقدم، وهم لا يقدمون على علي أحدا بعد الثلاثة،
ومن هؤلاء أحمد بن حنبل وصرح رحمه الله بأن التوقف عند عثمان إنما
هو عمل بحديث ابن عمر فقال: "نقول أبوبكر وعمر وعثمان ونسكت،
على حديث ابن عمر" (٢) وقال رحمه الله: "فإن قال قائل من بعد
عثمان؟ قلت: علي" (٣) وقال رحمه الله لمن سألته عن قال: أبوبكر
وعمر وعثمان وعلي، قال: "أذهب إليه، ويعجبني أن أقول أبوبكر
وعمر وعثمان وأسكت، وإن قال رجل: وعلي، لم أعنفه، ولا يعجبني
هذا القول قال ابن عمر: أبوبكر وعمر وعثمان، ونترك أصحاب رسول
الله صلى الله عليه وسلم لأنفضل بينهم" (٤) وقال رحمه الله: "من وقف
على عثمان ولم يربح بعلي فهو على غير السنة" (٥) وهذا المصنف مروي عن
(٦)

(١) معالم السنن - بهامش المختصر - ١٨/٧.

(٢) فتح الباري ١٦/٧.

(٣) السنة للخلال ص ٣٩٧.

(٤) السنة للخلال ص ٤٠٥.

(٥) السنة للخلال ص ٤٠٥.

(٦) طبقات الحنابلة ٣١٣/١.

جماعة من أئمة أهل السنة كيحيى بن معين وبشر بن الحارث

ويزيد بن زريع ومحمد بن عبيد وعبد الله المبارك ، وغيرهم ، وسبق^(١)

بيان أن ماورد في حديث ابن عمر من السكوت عن عثمان متأول

بأمور منها أن الإجماع المنعقد على تقديم علي بعد عثمان إنما

حدث بعد الزمن الذي قيده ابن عمر .

وأما المذهب الثاني وهو تفضيل علي ثم عثمان بعد أبي بكر

وعمر فهو مذهب عامة أهل الكوفة ، قال الخطابي : " ذهب أكثر أهل

الكوفة الى تقديمه - (يعنى عليا) - على عثمان رضي الله عنهما "

قال : " وحدثنى محمد بن هاشم حدثنا أبو يحيى بن أبي ميسرة عن

عبد الصمد قال : قلت لسفيان الثوري : " ما قولك في التفضيل؟

فقال : أهل السنة من أهل الكوفة يقولون : أبوبكر وعمر وعلي

وعثمان ، وأهل السنة من أهل البصرة يقولون : أبوبكر وعمر

وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، قلت : فما تقول أنت ؟ قال :

أنا رجل كوفي " قال الخطابي : " قلت : وقد ثبت عن سفيان أنه

(٢)

قال في آخر قوله : " أبوبكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم "

(١) انظر السنة للخلال ٣٩٧ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤١٠ ، وشرح أصول اعتقاد

أهل السنة ١٢٨٩/٧ ، ١٢٩٢ ، ١٣٦٩ .

(٢) معالم السنن - بهامش المختصر - ١٨/٧ .

وكما رجح سفيان الثوري رجح غيره من أهل الكوفة كما قال ابن

تيمية رحمه الله "إن سفيان الثوري وطائفة من أهل الكوفة

(١)

رجحوا عليا على عثمان، ثم رجح عن ذلك سفيان وغيره".

وقال ابن حجر: "ذهب بعض السلف إلى تقديم علي على عثمان،

وممن قال به سفيان الثوري، ويقال إنه رجح عنه، وقال به ابن

(٢)

خزيمة وطائفة قبله وبعده" هذا، وقد روى خلال بسنده عن يحيى

بن سعيد القطان أنه قال: "كان رأي سفيان الثوري: أبو بكر وعمر

(٣)

ثم يقف" وكان التوقف مذهب يحيى بن سعيد وقال الإمام أحمد:

"بلغني أن يحيى كان يقف عند ذكر عمر" قال "وكان يأخذه من

(٤)

سفيان" يعني الثوري، فلا أدري متى كان التوقف من سفيان؟ والله

أعلم.

وأما المذهب الثالث وهو التوقف عن المفاضلة بينهم، فهو

رواية عن مالك، ففي المدونة قال ابن القاسم: "وسألت مالكاً

عن خير الناس بعد نبيهم صلوات الله عليه، فقال: أبو بكر ثم

قال: أوفى ذلك شك؟ قال ابن القاسم: فقلت لمالك: فعلي

(١) الفتوى ٤٢٦/٤ وانظر منهاج السنة ٧٣/٢ - ٧٤.

(٢) فتح الباري ١٦/٧ وانظر الباعث الحثيث ص ١٥٦.

(٣) السنة ٣٧/٣ وقال المحقق "إسناده صحيح".

(٤) رواه خلال بسنده في السنة ص ٣٧٢ وقال المحقق "إسناده صحيح".

وعثمان أيهما أفضل فقال : ما أدركت أحدا ممن أقتدى به

(١)

يفضل أحدهما على صاحبه - يعني عليا وعثمان - ويرى الكف عنهما "

وروى ابن عبد البر

بسنده أن مالكا سئل : من تقدم بعد رسول الله ؟ قال أقدم

أب بكر وعمر لم يزد على هذا . وروى أيضا قول مالك : " ليس

(٢)

من أمر الناس الذي مضوا عليه أن يفاضلوا بين الناس " وروى اللالكائي

بسنده أن مالكا سئل عن علي وعثمان فقال : " ما أدركت أحدا

ممن يقتدى به إلا وهو يرى الكف عنهما ، يريد التفضيل

بينهما " فقل له : فأب بكر وعمر فقال : " ليس في أبي

(٣)

بكر وعمر شك ، يريد أنهما أفضل من غيرهما " وقد ذكر

ابن تيمية أن مالكا رجع عن التوقف إلى تفضيل عثمان ثم علي

فقال : " أما عثمان وعلي فكان طائفة من أهل المدينة يتوقفون

(٤)

فيهما وهي أحد الروايتين عن مالك " وقال في موضع آخر : " وبعض أهل

(١) المدونة ٤٥١/٦ .

(٢) الانتقاء ٣٥ - ٣٦ .

(٣) شرح أصول الاعتقاد ٣٦٨/٧ .

(٤) منهاج السنة ٧٣/٢ .

المدينة توقف في عثمان وعلي، وهي إحدى الروايتين عن مالك،
 لكن الرواية الأخرى عنه تقديم عثمان علي علي كما هو مذهب
 سائر الأئمة " وقد اعتمد ابن رشد في كلام له تقديم عثمان
 ثم علي مذهباً لمالك وقال: " وقيل: إنه الذي رجح إليه مالك
 بعد أن كان وقف في عثمان وعلي، فلم يفضل أحدهما على صاحبه
 على ظاهر ما وقع في كتاب الديات من المدونة " قال ابن
 رشد: " على أنه كلام محتمل للتأويل " وذكر السيوطي أنه قد
 " حكى القاضي عياض عن الإمام مالك أنه رجح عن التوقف إلى
 تفضيل عثمان قال القرطبي: وهو الأصح إن شاء الله " ولعل من
 وافق مالكا على التوقف قبل الرجوع يكون قد رجح إلى تفضيل عثمان
 علي علي كما رجح مالك موافقة له في الرجوع بعد موافقته في
 التوقف، ولقد روى خلال بسنده عن أيوب السخيتاني أنه قال:
 " دخلت المدينة والناس متوافرون القاسم بن محمد وسليمان
 وغيرهما فما رأيت أحدا يختلف في تقديم أبي بكر وعمر وعثمان " .
 (١) الفتاوى ٤/٤٢٦ .
 (٢) الجامع من المقدمات ١٧٤ وانظر حاشية المحققين رقم (٣) .
 (٣) تدريب الراوي ٢/٢٢٣ وانظر لوامع الأنوار ٢/٣٥٦ .
 (٤) السنة ص ٤٠٣ .

(١) هو أيوب بن أبي تيمية، تابعي من حفاظ الحديث، ثقة ثبت، ت ١٣١ هـ
 انظر تهذيب التهذيب ١/٢٩٧، وحلية الأولياء ٣/٣ .

وتوقف في المفاضلة بين عثمان وعلي من غير أهل المدينة
يحيى بن سعيد القطان من أهل البصرة وقد استغرب عبدالرحمن
بن مهدي ذلك فقال ليحيى : " بمن تقتدي في هذا وأهل
البصرة ليس هذا قولهم ؟! " ذكر ابن حجر أن يحيى القطان
تبع مالكا في التوقف ، ولكن قد سبق قبل قليل قول الإمام
أحمد أن يحيى أخذ التوقف عن سفيان الثوري ، ويحيى قد حكي
هذا القول عن سفيان فقد أخرج الخلال أن يحيى بن معين قال :
" قال يحيى بن سعيد : كان رأي سفيان الثوري : أبو بكر وعمر ثم
يقف ، قال يحيى بن معين : " وهو رأي يحيى بن سعيد " كأنه يشير
إلى أن ذلك منه موافقة لسفيان فيما رواه عنه . والله أعلم .

(١) السنة للخلال ص ٣٧٢ - ٣٧٣ .

(٢) فتح الباري ١٦/٧ .

(٣) السنة ص ٣٧٣ .

(١) هو عبدالرحمن بن مهدي بن حسان العبدي البصري اللؤلؤي ، أحد
كبار حفاظ الحديث ، قال فيه الشافعي : " لا أعرف له نظير فسي

الدنيا " ت ١٩٨ هـ .

انظر تاريخ بغداد ٢٤٠/١٠ ، وتهذيب التهذيب ٦٠ / ٢٧٩ .

والحاصل أن ماروي عن أئمة السلف من تقديم علي علي عثمان
أو التوقف فيهما قد رجعوا عنه واستقر مذهب أهل السنة علي
تفضيل عثمان ثم علي . وهذا هو المذهب الحق الذي لا يجوز العدول
عنه لثبوته بالأدلة الشرعية من السنة والإجماع وسبق بيانهما
من حديث ابن عمر واجماع الصحابة علي تقديم عثمان بعد أبي
بكر وعمر وجميع ذلك ثابت صحيح كما تقدم ، ولذلك قال الإمام
أحمد : " كل من قدم عليا علي عثمان فقد أزرى بالمهاجرين
والأنصار " (١) وكذلك قال حماد بن زيد (٢) وروى نحو ذلك عن جماعة
من الأئمة كسفيان الثوري والدارقطني وغيرهم . (٣) حتى أن الأئمة
قد تكلموا في تبديع من يقدم عليا علي عثمان علي قولين . (٤)
وروى عن بعضهم أنه قال : من قدم عليا علي عثمان فعليه لعنة
الله ، وبعضهم قال : فهو أحق . (٥)

(١) السنة للخلال ص ٣٩٢ .

(٢) شرح أصول الاعتقاد ١٣٧٠/٧ .

(٣) انظر السنة للخلال ٣٧٥ و ٣٩٢ والفتاوى ٤٢٢/٤ و ٤٢٦ و ٤٢٨ .

(٤) انظر السنة للخلال هي ٣٨٠ - ٣٨٢ ، والفتاوى ٤٢٦/٤ .

(٥) انظر شرح أصول الاعتقاد ١٣٧٠/٧ .

هذا ، وقد ذكر ابن حزم ^(١) عن بعض السلف من الصحابة وغيرهم
سمى بعضهم ، أن منهم من قال ، أفضل الناس بعد النبي صلى الله
عليه وسلم جعفر بن أبي طالب ومنهم من قال وبعد جعفر حمزة ،
وأن منهم من قال أن أفضل الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم
عبد الله بن مسعود ، وغير ذلك مما ذكره ابن حزم عن بعض
السلف من غير أن يذكر إسنادا لما رواه عنهم ، وقد قال
ابن تيمية رحمه الله : " وأما ما يحكى عن بعض المتقدمين من تقديم
جعفر وتقديم طلحة أو نحو ذلك فذلك فى أمور مخصوصة لا تقديما

(٢)

عاما وكذلك ما ينقل من بعضهم فى علي " ويشهد لما قاله ابن
تيمية من كلام ابن حزم نفسه قوله : " وروينا عن أم سلمة
أم المؤمنين رضى الله عنها أنها تذكرت الفضل ومن هو
خير فقالت : ومن هو خير من أبى سلمة أول بيت هاجر الى رسول

(٣)

الله صلى الله عليه وسلم " والمروي عن أم سلمة فى ذلك ما جاء فى سياق
قصة زواجها بالنبي صلى الله عليه وسلم من قولها : " فلما توفى
أبو سلمة استرجعت وقلت اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلفنى
خييرا منه " قالت : " ثم رجعت الى نفسى قلت : من أين لى خير

(١) انظر الفصل ١١١/٤ .

(٢) منهاج السنة ٧٤/٢ .

(٣) الفصل ١١١/٤ .

من أبى سلمة ، فلما انقضت عدتي استأذن على رسول الله صلى
الله عليه وسلم " فذكرت قصة خطبة النبي لها ثم زواجهما منه
على الله عليه وسلم حتى قولها : " فقد أبدلني الله بأبي سلمة
(١)
خيرا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم " وحمل ماورد في هذه
الرواية عن أم سلمة أنه مذهبها وقولها في أفضل الناس بعد
رسول الله - كما حمله ابن حزم - عجيب غاية العجب ، ولقد وردت أحاديث
في تفصيل أعيان من الصحابة كل واحد في أمر مخصوص كما في
حديث : " أرحم أمتي بأمتي أبوبكر ، وأشدهم في أمر الله عمر ،
وأصدقهم حياء عثمان وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل
وأفرضهم زيد بن ثابت وأقروهم أبي ولكل أمة أمين
(٢)
وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح " ونحو ذلك من
الأحاديث ومن قال من السلف مثلا أفرض الصحابة زيد فليس
هذا قول منه بأنه أفضل الصحابة بعد النبي وإن توهم الواهم ذلك.

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢٧/٤ - ٢٨ ، ٦٠ ، ٣١٣/٦ و ٣١٧ و ٣٢١ والحاكم
١٦/٤ وصححه ووافقه الذهبي ، وانظر الفتح الرباني ٦٧/٢١ ، ٦٨
وأصله في صحيح مسلم ٦٣٣/٢ .

(٢) أخرجه الترمذي ٦٢٣/٥ وابن ماجه ٢٥٥/١ ، وأحمد في المسند
١٨٤/٣ و ٢٨١ .

ومن قبيل ما ذكره ابن تيمية رحمه الله ما حكاه الخطابي عن بعض المتأخرين إذ قال : " وللمتأخرين في هذا مذاهب ، منهم من قال بتقديم أبي بكر من جهة المحابة وبتقديم علي من جهة القرابة " قال : " وكان بعض مشايخنا يقول : أبو بكر خير وعلي أفضل قال : وباب الخيرية غير باب الفضيلة ، قال : وهذا كما تقول : إن الحر الهاشمي أفضل من العبد الرومي والحشي ، وقد يكون العبد الحشي خيرا من هاشمي في معنى الطاعة لله والمنفعة للناس ، فباب الخيرية متعدد وباب الفضيلة لازم " (١) وهذا الذي حكاه الخطابي هو في معنى ما تقرّر من أنه قد تكون في المفضول فضيلة لا توجد في الفاضل من غير أن ينال ذلك من تفضيل الفاضل على المفضول . والله أعلم .

وكان ابن عبد البر قال : " اختلف السلف أيضا في تفضيل علي وأبي بكر " (٢) قال الزركشي " قد غلط في ذلك ووهم " (٣) كيف وهو نفسه ممن نقل اجتماع السلف والخلف على أن عليا أفضل الناس بعد عثمان . (٤)

(١) معالم السنن - بهامش المختصر - ١٨/٧ - ١٩ .

(٢) الاستيعاب - بهامش الاصابة - ٥٢/٣ .

(٣) الإجابة ص ٥٤ .

(٤) انظر الاستيعاب ٥٢/٣ .

المطلب الخامس : أفضل الصحابة بعد الأربعة :

جاء في عقيدة الإمام أحمد وعلى بن المديني اللتان رواهما
اللالكاشي بسنده عنهما أنه يلي الخلفاء الثلاثة أبي بكر
وعمر وعثمان في الفضل بقية أصحاب الشورى الخمسة : علي
(١)
وطححة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص
وهما لا يقدمان علي علي أحدا بعد الثلاثة بل قال هـذا
موافقة لحديث ابن عمر كما تقدم بيانه.

قال ابن تيمية رحمه الله : " مافى أهل السنة من يقول : إن طلحة
والزبير وسعدا وعبد الرحمن بن عوف أفضل منه - (يعنى من علي)
بل غاية ما يقولون السكوت عن التفصيل بين أهل الشورى
وهؤلاء أهل الشورى عندهم أفضل السابقين الأولين والسابقون
الأولون أفضل من الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا"
(٢)
والحاصل أن بقية أصحاب الشورى الذين جعل عمر رضى الله عنه

(١) شرح أصول الاعتقاد ١/٥٩ و١٦٧ وطبقات الحنابلة ١/٢٤٣.

(٢) منهاج السنة ٤/٣٩٧.

فيهم الأمر من بعده. يختارون أحدهم أفضل الصحابة بعد علي رضي الله عنه عند أهل السنة والجماعة، وقال الامام أحمد: " ثم من بعد أصحاب الشورى : أهل بدر من المهاجرين ثم أهل بدر من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على قدر الهجرة (١) والسابقة أولا فأولا ". وقد نقل جماعة من أهل العلم أن أفضل الصحابة بعد الأربعة بقية العشرة المبشرين بالجنة وهم أصحاب الشورى المذكورون وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وأبو عبيدة (٢) بن الجراح. ثم من بعد العشرة أهل بدر الذين قال فيهم صلى الله عليه وسلم : " لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " ، وفي لفظ " فقد وجبت لكم (٣)

(١) شرح أصول الاعتقاد ١/١٥٩.

(٢) انظر عقيدة الحافظ عبدالغنى المقدسى - ضمن المجموعة العلمية السعودية - ص ٣٥ ، والجامع من المقدمات ص ١٧٥ ، ومقدمة ابن الصلاح ١٤٩ ، والباعث الحثيث ص ١٥٦ ، وتقريب النواوى وشرحه التدريب ٢/٢٢٣ ، ولوامع الأنوار البهية ٢/٣٥٧ ، ومعارج القبول ٢/٥٨٤.

(٣) متفق عليه ، وقد سبق .

(١)

الجنة " وجاء جبريل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال:

ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : من أفضل المسلمين - أو كلمة

(٢)

نحوها - قال : وكذلك من شهد بدرا من الملائكة " ثم أهل

أحد ثم أهل بيعة الرضوان الذين قال الله فيهم:

" إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق

أيديهم " الفتح ١٠ ، وقال فيهم : " لقد رضي الله عن المؤمنين

إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة

عليهم وأثابهم فتحا قريبا " الفتح ١٨ ، وقال فيهم صلى

الله عليه وسلم : " لا يدخل النار ، إن شاء الله ، من أصحاب

(٣)

الشجرة أحد ، الذين بايعوا تحتها " .

(٤)

وقد كانوا أكثر من ألف وأربعمائة صاحبى كفاى الصحيح .

(١) البخارى مع الفتح ٣٠٥/٧

(٢) أخرجه البخارى ،

الصحيح مع الفتح ٣١٢/٧

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه ١٩٤٢/٤

(٤) صحيح البخارى مع الفتح ٤٤١/٧ ، ٤٤٣ ، ٤٥٣ .

ذكر هذا الترتيب في الفصل بعد العشرة النووى ، وابن الصلاح،^(١)

وابن كثير. وذكر السفاريني تقديم أهل بيعة الرضوان على^(٢)

أهل أحد بعد أهل بدر وقال هو الأصح ، وقال : " لأن الله تعالى

قال في أهل بيعة الرضوان (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ

يبايعونك تحت الشجرة " الفتح ١٨ ، وقال في أهل غزوة أحد :

(ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان

ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور رحيم)

آل عمران ١٥٥ ، وفي الآية الأخرى (ثم صرفهم عنكم يبتليكم

ولقد عفا عنكم) آل عمران ١٥٢ - فوصفهم في الموضعين بالعفو

ووصف أهل البيعة بالرضى وهو أعلى وأسنى وأفضل

من العفو " قال : " وهذا ظاهر والله تعالى أعلم " - والله^(٤)

أعلم .

(١) التقريب مع التدريب ٢/٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٢) المقدمة ١٤٩ .

(٣) اختصار علوم الحديث - مع الباعث الحثيث - ١٥٦ .

(٤) اللوامع ٢/٣٧٢ .

المطلب السادس : تفاضل جماعات الصحابة :

لقد دل كتاب الله على تفاضل جماعات الصحابة ،
فالله عز وجل فضل الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا
على الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، والمقصود بالفتح إما فتح
مكة أو صلح الحديبية ، والجمهور على الأول . قال سبحانه : " لا يستوي
منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة
من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى " الحديد
١٠ - وفضل الله السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار على
من دونهم ، فقال سبحانه : " والسابقون الأولون من المهاجرين
والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا
عنه .. " الآية - التوبة ١٠٠ .

وهذا نص على تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار
كما يقول القرطبي ، وقد اختلف في تعيين السابقين الأولين من
(٢)
المهاجرين والأنصار على أقسول :-
(٣)

(١) انظر زاد المسير ١٦٣/٨ .

(٢) انظر تفسيره ٢٣٦/٨ .

(٣) انظر تفسير الطبري ٦/١١ ، والاستيعاب - بهامش الاصابة - ٢/١ - ٢

وزاد المسير ٤٩٠/٣ - ٤٩١ - وتفسير القرطبي ٢٣٦/٨ والدر المنثور

٢٦٩/٣ ، ٢٧٠

أحدهم: أنهم الذين ملوا إلى القبلتين ،

الثاني: أنهم أهل بيعة الرضوان .

الثالث: أنهم أهل بدر .

الرابع: أنهم جميع الصحابة بلا استثناء وان الذين اتبعوهم

بإحسان هم تابعوهم من غير الصحابة .

هذه الأقوال المنقولة عن السلف من الصحابة والتابعين ، وزاد

المتأخرون قولان :

أحدهم: أنهم السابقون بالموت والشهادة قال ابن الجوزي:

(١)

" ذكره الماوردي "

الثاني: أنهم الذين أسلموا قبل الهجرة ، قال ابن الجوزي:

(٢)

" ذكره القاضي أبو يعلى "

قال القرطبي: " واتفقوا على أن من هاجر قبل تحويل القبلة

(٣)

فهو من المهاجرين الأولين من غير خلاف بينهم " ، والذي أرى فـ

اللفظ دلالة عليه أن المراد بالسابقين الأولين الذين سبقوا إلى الإسلام

والهجرة والنصرة وابتدروا ذلك قبل تمكن الإسلام وتتابع

الناس عليه ، ولا شك أن أول من يدخل في هؤلاء أوائل من أسلم

(١) زاد المسير ٣/٤٩٠ .

(٢) زاد المسير ٣/٤٩١ .

(٣) تقسيم القرطبي ٨/٢٣٦ .

(١)

من المهاجرين كالخلفاء الأربعة ومن الأنصار من الذين

أسلموا ليلتي العقبة . ولعل جميع من أسلم حتى غزوة

بدر من السابقين الأولين ، ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال

يوم بدر : " اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام

(٢)

لاتعبد في الأرض " فكان يوم بدر فتحا للإسلام والمسلمين

تتابع الناس بعده على الإسلام ، والله أعلم .

■ ودل كتاب الله على تفضيل المهاجرين على الأنصار فقد قدم

الله ذكرهم على ذكر الأنصار في كتابه ، قال سبحانه : " والذين

آمَنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك

هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم " الأنفال ٧٤ . فقدم ذكر

الذين هاجروا على الذين آووا ونصروا .

وقال سبحانه : " لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين

اتبعوه في ساعة العسرة " - التوبة ١١٧ ، فبدأ بذكر المهاجرين

(١) انظر سير أعلام النبلاء ١/١٤٤ - ١٤٥ - ففيه سرد أسماء واحد

وخمسين صحابياً من السابقين إلى الإسلام ذكرهم الذهبى تحت عنوان

" السابقون الأولون " .

(٢) أخرجه مسلم ٣/١٣٨٤ .

بعد النبي صلى الله عليه وسلم ثم بذكر الأنصار، وقال سبحانه :
 " للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون
 فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون
 والذين تبؤوا الدار والايمان من قبلهم " الحشر ٩٢٨، فبدأ
 بذكر المهاجرين ثم الأنصار ، وأفرد سبحانه ذكر المهاجرين في مواضع
 من كتابه كقوله : " فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في
 سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ١٠٠ الآية - آل عمران ١٩٥ -
 وقال سبحانه : " الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله
 بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون
 التوبة ٢٠ .

وقال سبحانه : " والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئناهم
 في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون الذين
 صبروا وعلى ربهم يتوكلون - النحل ٤١ - ٤٢ .
 قال ابن تيمية رحمه الله في بيان أصول أهل السنة : " ويفضلون
 من أنفق من قبل الفتح - وهو صلح الحديبية - وقاتل على من
 أنفق من بعده وقاتل ، ويقدمون المهاجرين على الأنصار " .
 (١)

وفي عقيدة الامام أحمد أنه " كان يقول : أفضل المحابة أهل بيعة
 الرضوان وخيرهم وأفضلهم أهل بدر ، والسابقون الأولون من المهاجرين
 والأنصار وأعيانهم الأربعون أهل الدار ، وخيرهم عشرة شهد
 لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة ومسات وهو

(١) العقيدة الواسطية - ضمن المجموعة العلمية ص ٨٥ .

عنهم راض وأعيانهم أهل الشورى الذين اختارهم عمر
(١)
ابن الخطاب رضي الله عنه للمسلمين وأفضلهم الخلفاء الأربعة:

وقد صنف العلماء الصحابة في طبقات اختلفوا في عددها،
قال السيوطي في شرح التقريب: " واختلف في عدد طبقاتهم - (يعنى
الصحابة) - باعتبار السبق إلى الإسلام أو الهجرة أو شهود
المشاهد الفاضلة ، فجعلهم ابن سعد خمس طبقات وجعلهم الحاكم
اثنتي عشرة طبقة " (٢)

قال أحمد شاكر: " وزاد بعضهم أكثر من ذلك ، والمشهور
(٤)
ما ذهب إليه الحاكم "

(١) طبقات الحنابلة ٢/٢٧٢.

(٢) تدريب الراي ٢/٢٢١.

(٣) الباعث الحثيث ص ١٥٦.

والمراتب التى جعلها الحاكم للمحاببة هى :-

- ١- قوم أسلموا بمكة .
 - ٢- أصحاب دار الندوة .
 - ٣- المهاجرة الى الحبشة .
 - ٤- أصحاب بيعة العقبة الأولى .
 - ٥ - أصحاب بيعة العقبة .
 - ٦- أول المهاجرين الذين وصلوا والنبي فى قباء قبل أن يدخلوا
المدينة ويبنى المسجد .
 - ٧- أهل بدر .
 - ٨- المهاجرة الذين هاجروا بين بدر والحديبية .
 - ٩- أهل بيعة الرضوان .
 - ١٠- المهاجرة بين الحديبية والفتح .
 - ١١- الذين أسلموا يوم الفتح .
 - ١٢- صبيان وأطفال رأوا النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح
(١)
وفى حجة الوداع وغيرها وعدادهم فى المحابة .
- ولعل المراتب السبع الأول هى مراتب السابقين الأولين من المهاجرين
والأنصار ، والله أعلم .

(١) معرفة علوم الحديث ٢٣ - ٢٤ .

أما الطبقات الخمس التي جعلها ابن سعد في كتابه للمصاحبة
 فالأمر فيها ما قاله أحمد شاکر : " لو كان المطبوع كاملاً
 (١)
 لاستخرجناها منه وذكرناها " وأظن أن الطبقات التي جعلها
 ابن سعد هي الطبقات التي صنف عليها ابن الجوزي في كتابه
 " صفة الصفوة " من ترجم له من الصحابة ، فإنه قال : " بدأت
 (٢)
 بذكر العشرة ثم ذكرت من بعدهم على ترتيب طبقاتهم " والطبقات
 التي ذكرها خمس هي :-

- ١- الطبقة الأولى على السابقة في الاسلام ممن شهد بدرا من المهاجرين
 (٣)
 والأنصار . وحلفائهم ومواليهم .
 - ٢- من لم يشهد بدرا من المهاجرين والأنصار وله إسلام قديم .
 (٤)
 (٥)
 ٣- من شهد الخندق وما بعدها .
 - ٤- من أسلم عند الفتح وفيما بعد ذلك .
 (٦)
 - ٥- الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أحداث الأسنان .
 (٧)
- وفي المطبوع من طبقات ابن سعد ذكر الطبقتين الأوليين على نفس الوصف
 (٨)
 الذي ذكره ابن الجوزي تماماً . والعلماء وإن أرادوا بهذا التقسيم معرفة
 المصاحبة لا ذكر التفاضل إلا أنهم قد اعتبروا وجوه الفضل والتفاضل في
 التقسيم ، والله أعلم .

(١) الباعث الحثيث ١٥٦	(٦) صفة الصفوة ١/٧٢٥
(٢) صفة الصفوة ١/٢٣٤	(٧) صفة الصفوة ١/٧٤٦
(٣) صفة الصفوة ١/٣٧٠	(٨) انظر طبقات ابن سعد ٣/٦ و ٤/٥٠
(٤) صفة الصفوة ١/٥٠٦	
(٥) صفة الصفوة ١/٦٥٠	

المطلب السابع : تفاضل الصحابييات :

لا ريب أن التفاضل كما أنه واقع بين الصحابة واقع بين الصحابييات أيضا ، ولقد ثبت في الكتاب والسنة تفضيل نساء النبي صلى الله عليه وسلم عامة وخديجة وعائشة خاصة وابنته فاطمة رضي الله عنهن على جميع الصحابييات .

« قال تعالى : " يانساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن " الأحزاب ٣٢ ، فهذا في تفضيل نساء النبي صلى الله عليه وسلم عامة وأنه لا يلحقهن في فعلهن إن اتقين الله أحد من النساء فهم أكرم على الله من غيرهن .

« وقال صلى الله عليه وسلم : " خير نساها مريم ابنة عمران ، وخير نساها خديجة " (١) فهذا في تفضيل خديجة رضي الله عنها .

« وقال صلى الله عليه وسلم : " فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام " (٢) فهذا في تفضيل عائشة رضي الله عنها .

« وقال صلى الله عليه وسلم : " يا فاطمة ألا تريين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين ، أوسيدة نساء هذه الأمة " (٣)

(١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح ٤٧٠/٦ ، ومسلم ١٨٨٦/٤ .

(٢) متفق عليه ، البخارى مع الفتح ١٠٦/٧ ، ومسلم ١٨٩٥/٤ .

(٣) متفق عليه ، البخارى مع الفتح ٧٩/١١ - ٨٠ ومسلم ١٩٠٥/٤ - ١٩٠٦ .

(١)

وفى لفظ: "أما ترضين أن تكونى سيدة نساء أهل الجنة"

(٢)

وقد اشتهر الخلاف فى خديجة وعائشة وفاطمة أيهن أفضل رضى الله

عنهن ، قال ابن تيمية: "أفضل نساء هذه الأمة خديجة وعائشة

(٣)

وفاطمة ، وفى تفصيل بعضهن على بعض نزاع وتفصيل " .
وإننا إذا نظرنا فى النصوص الواردة فى تفصيل كل واحدة منهن - رضى الله عنهن -
وجدنا أن اللفظ الوارد فى تفصيل خديجة وهو قوله صلى الله عليه

وسلم: "خير نساءها خديجة" إنما يتضح تمام معناه بمعرفة الضمير

على أي شيء يعود، وقد ورد ما يفسر ذلك صريحا فقد قال صلى الله

(٤)

عليه وسلم: "لقد فضلت خديجة على نساء أمتي" ، وقال صلى

الله عليه وسلم: "أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة

(١) البخارى مع الفتح ٦/٦٢٨ .

(٢) انظر أصول الدين ٣٠٦ ، والروض الأنف ٢/٢٦٨ ، والإجابة فيمسا

استدركته عائشة على المحابة ٥٦ - ٥٩ ، وفتح الباري ٧/١٣٩ ،

وانظر بدائع الفوائد ٣/١٦٣ وجلاء الأفهام ١٢٢ .

(٣) الفتاوى ٤/٣٩٤ .

(٤) أخرجه البزار - كشف الاستار ٣/٢٣٦ - وكذا الطبرانى كما قال الهيثمى

وابن حجر ، وقال الهيثمى فى المجمع ٩/٢٢٣: "فيه أبو يزيد الحميرى

ولم أعرفه وبقية رجاله وثقوا" وقال ابن حجر فى الفتح

٧/١٣٥: "أخرجه النسائى بإسناد صحيح" .

(١)

(٢)

ومريم وآسية " قال ابن حجر : " وهذا نص صريح لايحتمل التأويل "

وقال صلى الله عليه وسلم : " حسبك من نساء العالمين : مريم ابنة عمران

(٣)

وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون " .

فهذا النص في خديجة رضي الله عنها أنها أفضل نساء الأمة .

ثم إن اللفظ الوارد في تفضيل فاطمة رضي الله عنها وهو قوله صلى الله

الله عليه وسلم : " يا فاطمة لاترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين ، أوسيدة

نساء هذه الأمة " وفي لفظ " سيدة نساء أهل الجنة " فهو صريح لالبس

فيه ولايحتمل التأويل ، وهو نص في أنها أفضل نساء الأمة وسيدة نساء

أهل الجنة . وقد شاركت أمها في هذا التفضيل فهي وأمها أفضل

نساء أهل الجنة ، وهي وأمها أفضل نساء الأمة ، بهذا وردت النصوص .

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣١٦/١ ، وقال ابن حجر في الفتح ٤٧١/٦ ،

١٣٥/٧ : " أخرجه النسائي بإسناد صحيح " ، وأخرجه الحاكم ٥٩٤/٢ ،

وصححه ووافقه الذهبي ، وابن حبان في صحيحه - الإحسان ٧٣/٩ ،

وقال الهيثمي في المجمع ٢٢٣/٩ : " أخرجه أحمد وأبو يعلى

والطبراني ورجالهم رجال الصحيح " وصححه الألباني في صحيح الجامع

٠٣٧١/١

(٢) فتح الباري ١٣٥/٧ .

(٣) أخرجه أحمد في المسند ١٣٥/٣ ، والترمذي في جامعه ٦٦٠/٥ وقال : " هذا

حديث صحيح " ، وابن حبان في صحيحه - الإحسان ٧١/٩ - ، والحاكم

١٥٨/٣ وقال : " هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه " ووافقه

الذهبي " ، وصححه الألباني في تخريج المشكاة ١٧٤٥/٣ .

وأما اللفظ الوارد في تفضيل عائشة رضي الله عنها وهو قوله :

صلى الله عليه وسلم : " فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على
الطعام " فهو لفظ لا يستلزم الأفضلية المطلقة كما يقول ابن حجر
(١)

وقال رحمه الله : " وليس فيه تصريح بأفضلية عائشة رضي الله عنها على
غيرها ، لأن فضل الثريد على غيره من الطعام إنما هو لما فيه من
تيسير المؤنة وسهولة الإساءة ، وكان أجل أظمتهم يومئذ ،
وكل هذه الخصال لا تستلزم ثبوت الأفضلية له من كل جهة فقد
(٢)

يكون مفضولا بالنسبة لغيره من جهات أخرى " ومحصل القول في
الحديث أنه دال على أفضلية عائشة لأنه لا يستلزم الأفضلية
المطلقة إذ هو مقيد بما ورد في خديجة وفاطمة رضي الله عنهما
فهو دال على تفضيل عائشة على النساء إلا خديجة وفاطمة .

وأما حديث عمرو بن العاص لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم : أي الناس
أحب إليك ؟

(٣)
فقال صلى الله عليه وسلم : " عائشة " فإن ابن حبان رحمه الله دلل
على تقييده في نسائه صان الله عليه وسلم فقد عقد عنوانا في صحيحه
فقال : " ذكر خبر وهم في تأويله من لم يحكم صناعة الحديث "

(١) الفتح ١٠٧/٧ .

(٢) الفتح ٤٤٧/٦ .

(٣) سبق تخرجه وهو متفق عليه .

وأخرج تحته حديث عمرو بلفظ : " قلت : يا رسول الله أى الناس أحب إليك ؟ قال : عائشة ، فقلت : إنى لست أعنى النساء إنما أعنى الرجال ، فقال : أبوبكر أو قال أبوها " ثم قال ابن حبان : " ذكر الخبر الدال على أن مخرج هذا السؤال معا كان عن أهله دون سائر النساء من فاطمة وغيرها " وأخرج بسنده عن أنس قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أحب الناس إليك ؟ قال : " عائشة " قيل له : ليس عن أهلِكَ نسألك ، قال : (١)
فأبوها " ، ثم هو محمول على إرادة الأحياء من زوجاته الموجودات حين السؤال ، ثم هو وإن دل على عموم تفضيلها رضى الله عنها إلا أنه مقيّد بالنص فى خديجة وفاطمة والله أعلم . فالنصوص دالة دلالة بيّنة لا تحتاج إلى تأويل على أن عائشة تلى خديجة وفاطمة فى الفضل رضى الله عنهن ، وعلى المخالف أن يأتى بالدليل على استثناء عائشة رضى الله عنها ، من قوله صلى الله عليه وسلم فى كل من خديجة وفاطمة أنها أفضل أهل الجنة وأنها سيّدة نساء هذه الأمة .

على أن لعائشة رضى الله عنها من الفضائل كالعلم مثلا ما تختص

(١) الإحسان ١١٩/٩ .

به عن خديجة وفاطمة رضي الله عنهن ، وفنائلهما رضي الله
عنها لاتحصر ، إلا أن هذا على نحو ماتقرر من أنه لايلزم
من ثبوت خصوصية شيء من الفنائل ثبوت الفضل المطلق .
هذا ، مع العلم أن النص لم يرد بتفضيل خديجة أوفاطمة على
على عائشة لفظا كما ورد بتفضيل أبي بكر على عمر مثلا
ولو لا ماحدث من الكلام في هذا الأمر واشتجار الخلاف فيه حتى أنه
قد أُلّف فيه (١) لكان الواجب الأخذ بالأصل وهو أن يعنى
ماورد في الشرع من اقرار ما جاء من الفضل لخديجة ، وما جاء
منه لفاطمة ، وما جاء منه لعائشة على نحو ماورد في النصوص من
غير تعرض للمفاضلة بينهما ، فإن دعت حاجة شرعية لذكر المفاضلة
بينهن ذكرت ، والله أعلم .

وقد قامت بعض الأدلة غير التي ذكرت على تفضيل خديجة على
عائشة منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : " أتى جبريل
النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، هذه خديجة قد أتت
معها إناء فيه إدام وطعام أو شراب ، فإذا هي أتتك فاقرأ
عليها السلام من ربها ومنى وبشرها ببيت في الجنة من

(١) قال البغدادى في أصول الدين ص ٣٠٦ : " وللحسين بن الفضل
رسالة في ذلك " .

(١)

قصب لاصخب فيه ولا نصب " وفي حديث عائشة رضي الله عنها

قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما : " يا عائشة

هذا جبريل يقرئك السلام ، فقلت : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته

(٢)

تري ما لا أرى ، تريد رسول الله صلى الله عليه وسلم " فالسلام لخديجة

رضي الله عنها كان من الرب سبحانه ومن جبريل ، ولعائشة رضي الله

(٣)

عنها من جبريل فقط ، وفي المتفق عليه من حديث عائشة رضي الله

عنها أنها قالت في خديجة للنبي صلى الله عليه وسلم : " مات ذكر

من عجز من عجائز قريش حمراء الشدين هلك في الدهر

(٤)

قد أبدلك الله خيرا منها " . وورد في هذه القصة في غير الصحيحين

بأسانيد حسان زيادة أن النبي صلى الله عليه وسلم غضب حتى أقسمت

(٥)

عائشة ألا تذكر خديجة بعد ذلك ، إلا بخير وفي رواية زيادة قوله

(١) متفق عليه ، البخاري مع الفتح ١٣٤/٧ ، مسلم ١٨٨٧/٤ .

(٢) أخرجه البخاري ، الصحيح مع الفتح ١٠٦/٧ .

(٣) انظر فتح الباري ١٠٧/٧ ، ١٣٩ ، وجلاء الأفهام ص ١٢٣ .

(٤) البخاري مع الفتح ١٣٤/٧ ، ومسلم ١٨٨٩/٤ .

(٥) أخرجه أحمد والطبراني كما قال ابن حجر في الفتح ١٤٠/٧ وقال الهيثمي

في المجمع ٢٢٤/٩ : " رواه الطبراني وأسانيده حسنة " .

صلى الله عليه وسلم : " ما أبدلنى الله خيرا منها " وذكر جملة

(١)

من فضائلها . ولقد قالت عائشة رضى الله عنها : " ما غرت على

أحد من نساء النبى صلى الله عليه وسلم ما غرت على خديجة

وما رأيتهما ولكن كان النبى صلى الله عليه وسلم يكثر ذكرها ، وربما

ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها فى صدائق خديجة ،

فربما قلت له . كأنه لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة ؟

(٢)

فيقول : إنها كانت وكانت وكان لى منها ولد .

وقد قال ابن العربى فى خديجة رضى الله عنها : " وهى أفضل

(٣)

نساء الأمة من غير خلاف " قال ابن حجر : " رد بأن الخلاف شابست

(٤)

قديمًا وإن كان الراجح أفضلية خديجة " وعائشة رضى الله عنها

أفضل زوجات النبى صلى الله عليه وسلم بعد خديجة ، لأنه لم يقيد

(١) أخرجه أحمد فى المسند ١١٨/٦ ، قال الهيثمى فى المجمع ٢٢٤/٩ :

" اسناده حسن " وذكر ابن حجر فى الفتح ١٤٠/٧ أن الطبرانى

قد أخرجه أيضا .

(٢) أخرجه البخارى ، الصحيح مع الفتح ١٣٣/٧ .

(٣) عارضة الأحوذى ٢٥٣/١٣ .

(٤) فتح البارى ١٣٩/٧ .

من عموم تفضيلها على النساء ، إلا خديجة وفاطمة بالنسبة ،
ولقد ورد فيما لا يحصى من النصوص ما يدل على تفضيلها رضي
الله عنه على بقية زوجاته صلى الله عليه وسلم ، منها حديث :
" كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة ، قالت عائشة :
فاجتمع صواحي إلى أم سلمة فقلن : يا أم سلمة والله
إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة ، وإننا نريد الخير كما
تريده عائشة فمرى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأمر الناس
أن يهدوا إليه حيث كان ، أوحى دار ، قالت : فذكرت ذلك أم
سلمة للنبي صلى الله عليه وسلم ، قالت : فأعرض عني ، فلما عاد
إلى ذكرت له ذلك ، فأعرض عني ، فلما كان في الثالثة ذكرت له ،
فقال : يا أم سلمة ، لا تؤذيني في عائشة فإنه والله ما نزل
علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها ^(١) وفي رواية
: " أن الناس كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة
^(٢)
يبتغون بذلك مرضاة رسول الله " . وحديث : " أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم لما كان في مرضه جعل يدور في نسائه ويقول : أين
أنا غدا ؟ حرصا على بيت عائشة ، قالت عائشة : فلما كان يوم
^(٣)
سكن " .

(١) أخرجه البخاري ، الصحيح مع الفتح ١٠٧/٧ .

(٢) أخرجه مسلم ١٨٩١/٤ .

(٣) أخرجه البخاري ، الصحيح مع الفتح ١٠٧/٧ .

وروى أن زيادا بعث الى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم
بمال وفضل عائشة فجعل مبعوثه يعتذر الى أم سلمة فقالت:
" يعتذر إلينا زياد فقد كان يفضلهما من كان أعظم علينا
(١)
تفضيلا من زياد رسول الله صلى الله عليه وسلم "

ثم زوجات النبي صلى الله عليه وسلم أفضل نساء الأمة لقوله
تعالى: " يا نساء النبي لستن كأحد من النساء " وإنما خصت
فاطمة رضي الله عنها من عموم الآية بقوله صلى الله عليه وسلم فيها
(٢)
أنها سيدة نساء الأمة ، وقد قيل إن الإجماع انعقد على أفضلية
(٣)
فاطمة .

(١) قال الهيثمي في المجمع ٢٤٢/٩: " رواه الطبراني في الأوسط
وإسناده حسن " وقد روى كذلك أن عمر رضي الله عنه كان يفضل
عائشة في العطاء على بقية أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، والله
أعلم .

(٢) والسنة تخص عموم القرآن ، بإجماع الأمة في السنة المتواترة ،
ومخالفة الحنفية وطائفة من المتكلمين للمحاباة والأئمة الثلاثة
وعامة أهل العلم في خبر الأحاد، انظر: الإحكام لابن حزم ٦٦/٢، وشرح
اللمع للشيرازي ٣٥١/١، وروضة الناظر ١٢٧ - ١٢٨ ، وأعلام الموقعين

٣١٨/٢ ، وإرشاد الفحول ١٣٩ .

(٣) انظر فتح الباري ١٠٩/٧ .

والحاصل أن فاطمة سيدة نساء هذه الأمة ، ونساء النبي صلى الله عليه وسلم أفضل المؤمنات على الإطلاق وأفضلهن خديجة وقد شاركتها ابنتها فاطمة في كونهما أفضل نساء الأمة ، ثم بعد خديجة عائشة ثم بقية أزواجه صلى الله عليه وسلم بعد عائشة .

هذا وفي حديث عائشة رضي الله عنها الطويل الذي فيه ما وقع لزینب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإيذاء والمتاعب لما خرجت من مكة بعد قدوم أبيها صلى الله عليه وسلم المدينة قال صلى الله عليه وسلم في زينب : " هي أفضل بناتي ، أصيبت في " (١) .

وهذا بشكل ماورد في فاطمة رضي الله عنها من التفضيل لأنه يدل على أن زينب أفضل من فاطمة رضي الله عنهما .

وقد أجاب الطحاوي عن هذا الإشكال بأن ذلك كان متقدما ثم وهب الله لفاطمة من الفضائل والأحوال الشريفة ما لم يشاركها فيه أحد

(١) أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار ٤٤/١ - ٤٥ ، والحاكم في المستدرک ٢٠١/٢ وقال : " هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه " ووافقه الذهبي ، وأخرجه البزار - كشف الاستار ٢٤٢/٣ ، قال الهيثمي في المجمع ٢١٣/٩ " رواه الطبراني في الكبير والأوسط بعضه ، ورواه البزار ورجاله رجال الصحيح " وقال ابن حجر في الفتح ١٠٩/٧ في سند الحديث " سند جيد " .

من نساء الأمة ، قال : " وكانت - (يعنى فاطمة) - قبل ذلك الوقت

الذى استحقت زينب ما استحقت من الفضيلة صغيرة غير بالغة مما

(١)

لايجرى لها ثواب بطاعتها ولا عقاب بخلافها "

وذكر ابن حجر وجهها آخر من الجواب وهو احتمال تقدير " من " فيكون

(٢)

المراد من أفضل بناتى .

(١) مشكل الآثار ٤٦/١ - ٤٧ -

(٢) الفتح ١٠٩/٧ -

المطلب الثامن : هل يكون في غير الصحابة من يخلل بعضهم :

قال ابن تيمية رحمه الله : " تنازع العلماء : هل في غير الصحابة من هو خير من بعضهم ؟ على قولين " قال ذلك عقب قوله في كلام له : " وبيننا أن تفضيل الجملة على الجملة لا يقتضي تفضيل كل فرد على كل فرد ، كما أن تفضيل القرن الأول على الثاني ، والثاني على الثالث لا يقتضي ذلك بل في القرن الثالث من هو خير من كثير ممن القرن الثاني " وقال رحمه الله في موضع آخر : " لا يكون من بعد الصحابة أفضل من الصحابة " وقال ابن حجر في شرح حديث " خير القرون قرنى : " وأقتضى هذا الحديث أن تكون الصحابة أفضل من التابعين ، والتابعون أفضل من أتباع التابعين ، لكن هل هذه الأفضلية بالنسبة إلى المجموع أو الأفراد ؟ محل بحث ، وإلى الثاني نحا الجمهور ، والأول قول ابن عبد البر " وقال القسطلاني : " ذهب أبو عمر بن عبد البر إلى أنه قد يكون فيمن يأتي بعد الصحابة أفضل ممن كان في جملة الصحابة " . قال ابن حجر : " لكن كلام ابن عبد البر ليس على الإطلاق فسي حق جميع الصحابة فإنه صرح في كلامه باستثناء أهل بدر والحديبية " (٤)

(١) منهاج السنة ٦٠٠/٤

(٢) الفتح ٦/٧

(٣) المواهب اللدنية ٤٢٤/١

(٤) الفتح ٧/٧ ، وقد تطلبت كلام ابن عبد البر في الاستيعاب وهو مظهره ثم في المطبوع من التمهيد ، فلم أوفق للعثور عليه .

قال ابن حجر: "والذى يظهر أن من قاتل مع النبي صلى الله عليه وسلم أوفى زمانه بأمره أو أنفق شيئاً من ماله بسببه لا يعد له فى الفضل أحد بعده. كائناً من كان، وأما من لم يقع له ذلك فهو محل البحث، والأصل فى ذلك قوله تعالى: (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا) - الحديد ١٠ - (١)

وقد سبق نقل قول سعيد بن زيد - أحد العشرة المبشرين بالجنة - رض الله عنه: "والله لمشهد شهده الرجل منهم يوماً واحداً فى سبيل الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من عمل أحدكم ولو عمر عمر نوح". (٢)

قال ابن حجر: "ومحمل النزاع يتمحضر فيمن لم يحصل له إلا مجرد (٣) المشاهدة".

قال: "والذى عليه الجمهور أن فضيلة الصبة لا يعد لها عمل لمشاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما من اتفق له الذب عنه والسبق إليه بالهجرة أو النصر أو ضبط الشرع المتلقى عنه وتبليغه

(١) الفتح ٦/٧.

(٢) تقدم ذكره وتخريجه فى المبحث الرابع من الفصل الثانى فى الباب الثانى.

(٣) الفتح ٧/٧ وانظر المواهب اللدنية ٤٢٤/١، والصواعق المحرقة ص ٢١٣.

لمن بعده فإنه لا يُعَدُّ له أحد ممن يأتى بعده لأنه ما من
خُصَّة من الخصال المذكورة إلا والذي سبق بها مثل أجر من عمل بها
من بعده ، فظهر فضلهم " قال القسطلانى فى حديث خير الناس قرنى :
" هذا يدل على أن أول هذه الأمة خير ممن بعدهم وإلى هذا ذهب
معظم العلماء وأن من صحبه صلى الله عليه وسلم ورآه ولو مرة
من عمره أفضل من كل من يأتى بعده وأن فضيلة المحبة لا يعدلها
(١)
عمل ، هذا مذهب الجمهور " . ولقد تقدم فى المبحث الأول والثانى
من هذا الفصل بيان فضل المحبة وكيف كان تعظيم الصحابة ولو كان
اجتماعهم بالنبي صلى الله عليه وسلم قليلا مقررًا لدى الخلفاء
الراشدين وغيرهم ، ونقل قول الإمامين أحمد بن حنبل وعلي
ابن المدينى : " الذين صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم ورآوه وسمعوا
منه ومن رآه بعينه وآمن به ولو ساعة أفضل بصحبته من التابعين
ولو عملوا كل أعمال الخير ، وقول ابن تيمية : " قال غير واحد
من الأئمة : إن من صحب النبي صلى الله عليه وسلم أفضل ممن لم
يصحبه مطلقا ، وعينوا ذلك فى مثل معاوية وعمر بن عبدالعزيز مع
أنهم معترفون بأن سيرة عمر بن عبدالعزيز أعبدل من سيرة معاوية ،
قالوا : لكن ما حصل لهم بالصحة من الدرجة أمر لا يساويه ما حصل لغيرهم
بعلمه " .

(١) المواهب اللدنية ١/ ٤٢٤ .

فهذا اذا مذهب الأئمة أنه لا يكون في غير الصحابة من هو خير من بعضهم مطلقا ، وأن أفضلية الصحابة أفضلية أفراد لا أفضلية مجموع ، وقد سبق ذكر جملة من الأدلة على تفضيل الصحابة على سائر الأمة بل وعلى سائر البشر بعد النبيين . والذي يظهر والله أعلم أن المسألة لا تحتل أن يقال أن فيها نزاعا لأنه لم ينقل خلاف عن غير ابن عبد البر رحمه الله إلا ما قاله ابن حجر من أن القرطبي - وهو متأخر كثيرا عن عصر الأئمة من السلف - صرح بأنه قد يكون في الصحابة من هو أفضل من بعض الصحابة ، وابن تيمية رحمه الله الذي قال : " تنازع العلماء " قد قال في موضع آخر : " وبالجملة اتفقت طوائف السنة والشيعة على أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها واحد من الخلفاء ولا يكون من بعد الصحابة أفضل من الصحابة " فذكر الاتفاق (١) على أنه لا يكون في غير الصحابة من يفضلهم . وأما ما نقل عن ابن عبد البر فإن نص عبارته كما نقلها القسطلاني وابن حجر الهيتمي بعد ذكره جملة أحاديث : " فهذه الأحاديث تقتضي مع تواتر طرقها وحسنها التسوية بين آل هذه الأمة وآخرها في فضل

(١) الفتح ٧/٧٠

(٢) الفتاوى ١١/٢٢٣٠

(١).

العمل إلا أهل بدر والحديبية" وإنما إذا نظرنا في هذه العبارة

اتضح لنا فيها أمران .

الأمر الأول : القول بالتسوية بين أول هذه الأمة وآخرها إلا أهل

بدر والحديبية ، ونلاحظ في هذا شيئين :

١- أن مقصود ابن عبد البر مقارنة مجموع أول الأمة عدا أهل بدر والحديبية بمجموع آخرها ، من غير تعرض منه لأفراد المجموعتين .

٢- أنه قد صرح بالتسوية دون المفاضلة .

الأمر الثاني : أنه صرح بأن هذه التسوية في فضل العمل لا في الأفضلية

المطلقة ، ومعلوم أن مجرد التساوي في فضل العمل بل ومجرد زيـادة

فضل العمل لا تستلزم ثبوت الأفضلية المطلقة ، ثم ان ابن عبد البر جعل

مساواة الصحابة عدا أهل بدر والحديبية في فضل العمل محصورة في

آخر هذه الأمة لا في مطلق من يأتي بعد الصحابة . وعلى هذا فأيـن

القول بأنه قد يكون في غير الصحابة من يفضل بعضهم من كلام ابن

عبد البر ؟!! ونسبة هذا القول الى ابن عبد البر إنما هي في الحقيقة

نسبة الى ما فهمه من نسبه الى ابن عبد البر لانسبه إليه ، ولذا قال

ابن حجر : " وقد تعقب كلام ابن عبد البر بأن مقتضى كلامه أن يكون

(٢)

فيمن يأتي بعد الصحابة من يكون أفضل من بعض الصحابة " فجعله مقتضى

كلام ابن عبد البر لا نصه ، ولد أجر فيه ما قاله ابن حجر ، والله أعلم .

(١) المواهب اللدنية ٤٢٤/١ ، والصواعق المحرقة ٢١٢ .

(٢) الفتح ٧/٧ .

هذا ، وما ذهب إليه ابن عبد البر من التساوى فى فضل العمل ،
مندفع بما فاز به الصحابة من زيادة فضيلة المشاهدة التى
لاساويهم فيها أحد ، ولقد تواتر عنه صلى الله عليه وسلم
قوله : " خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم " واستفاضت النصوص
المحيحة عنه بذلك . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " لا يأتى
عليكم زمان إلا والذي بعده أشرمه حتى تلقوا ربكم " (١)
ولكن ابن عبد البر ذهب فيما نقله عنه القسطلانى
وابن حجر الهيثمى إلى أن حديث " خير الناس قرنى " ليس على
عمومه ، بدليل ما يجمع القرن من الفاضل والمفضول وقد جمع
قرنه صلى الله عليه وسلم جماعة من المنافقين المظهرين للإيمان
وأهل الكبائر الذين أقام عليهم أو على بعضهم الحمد وزاد
الأمر تبياناً - فيما نقله عنه ابن حجر - لتأكيد مذهبه فى تساوى
آخر الأمة مع الصحابة عدا أهل بدر والحديبية ، فجعل السبب فى
كون القرن الأول خير القرون أنهم كانوا غرباء فى إيمانهم لكثرة
الكفار حينئذ وصبرهم على آذاهم وتمسكهم بدينهم قال :
" فكذلك أواخرهم إذا أقاموا الدين وتمسكوا به وصبروا على
الطاعة حين ظهور المعاصى والفتن كانوا أيضاً عند ذلك غرباء "

(١) انظر نظم المتنشاثر ص ١٢٧ ، وقد تقدم تخريج الحديث .

(٢) أخرجه البخارى ، الصحيح مع الفتح ٢٠/١٣ .

(٣) انظر المواهب اللدنية ٤٢٤/١ ، والصواعق المحرقة ٢١٢ .

(١)

وزكّت أعمالهم في ذلك الزمان كما زكّت أعمال أولئك.

والجواب عن هذا أن يقال : أما قوله : إن قرن النبي صلى الله عليه وسلم جمع المنافقين/فالمنافقون غير معنيين قطعا بقوله "خير الناس" وإنما المعني المؤمنون/أما المنافقون فهم من جملة الكفار الذين كانوا في قرنه صلى الله عليه وسلم ، وأما أهل الكبائر فمن أقيم عليه الحد فقد محيت كبيرته ولقد قال صلى الله عليه وسلم

(٢)

في ما عز : " لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم " وقال في

(٣)

الغامدية : " لقد تابت توبة لوتابها صاحب مكس لغفر له "

ومن لم يقم عليه الحد فالظن فيمن عمته تزكية الله ورسوله أن يكون قد تاب والتوبة تجب لحووبة ، فإن لم يكن قد تاب وذلك غير مظنون فإن معه من أسباب المغفرة ما ليس لغيره من السابقة والفوز بصحة النبي صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم .

وأما الأحاديث التي احتج بها ابن عبد البر فهي لا تخرج عن أحد ثلاثة أحاديث : إما ضعيف فلا يحتج به ، وإما حسن ،

(١) فتح الباري ٧/٧٠٦ ، وانظر في القدير ٤/٢٨٠ .

(٢) أخرجه مسلم ٣/١٣٢٢ .

(٣) أخرجه مسلم ٣/١٣٢٤ .

(١) وإما صحيح لمجموع طرقه ،وجملة الأجوبة عنها إما بأنها
لاستلزم المساواة فإنه قد تكون في المفضول ميزة لا تكون
في الفاضل ، وإما بأن ما تدل عليه من المساواة إنما هو
باعتبار ما يمكن أن يجتمع فيه وهو عموم الطاعات المشتركة
بين سائر المؤمنين فهذا الذي قديقع فيه التساوى أما
ما اختلف به الصحابة من المشاهدة والسابقة فإنه لا يسع أحدا
أن يأتى بما يقاربه فضلا عن أن يماثله ، وإما بأن ما تدل
عليه من المساواة المقصود به أن ذلك يحصل فيما يظهر للرائى
وإلا فأول الأمة أفضل في نفس الأمر . (٢)

هذا ، وقد ذكر ابن حجر أن القرطبي صرح بأنه قديكون في غير
الصحابة من يفضل بعض الصحابة . وقال السفاريني : " جاء عن ابن
سيرين أن المهدي خير من أبى بكر وعمر قد كاد يفضل الأنبياء ،
وجاء عنه أيضا لا يفضل عليه أبوبكر وعمر " (٤) ولانظن ابن سيرين
يقوله ، وهو على كل حال باطل مخالف لما في الكتاب والسنة والاجماع .

(١) انظر فتح البارى ٦/٧ ، والمواهب اللدنية ٤٢٤/١ ، والصواعق المحرقة

٢١٢ - ٢١٣ ، وفيض القدير ٢٨٠/٤ و ٥١٧/٥ .

(٢) انظر المراجع السابقة وفتاوى النووى ص ١٨٠ - ١٨١ .

(٣) الفتح ٧/٧ .

(٤) اللوامع ٨٥/٢ .

المبحث الرابع : الآراء الأشاذة والمقالات الباطلة فى هذا الباب :-

راى من لا يرى التفضيل بين الصحابة :

(١)

قال المازرى : "أما تفضيل الصحابة بعضهم على بعض فقد ذهبت فرقة الى الإمساك عن هذا وأنه لايفضل بعضهم على بعض وقالت هم كالأصابع فلا ينبغي أن يتعرض للتفضيل بينهم" وهذا (١) مردود بصريح ما فى الكتاب والسنة من التفضيل بين الصحابة ، ولقد كان الصحابة وهم أشد ورعا وأكثر التزاما بالشروع يفاضلون بين أبى بكر وعمر وعثمان والرسول صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم ، بل إن القطع بتفضيل أبى بكر على الأمة ثم عمر من بعده ثم عثمان بعد عمر ثم علي بعد عثمان رضى الله عنهم أجمعين وتفضيل عائشة على نساء الأمة بعد خديجة وفاطمة رضى الله عنهن ، وإظهار هذا ونشره من الدين وهو مشروع متأكد المشروعية مع ظهور أهل الباطل الذين ينتقصون هؤلاء الصحابة وينالون منهم من الرافضة ومن لف لفهم .

وأشد شذوذا من مذهب الذين لايفعلون مطلقا ما نقله الخطابى عن بعض المتأخرين أنهم لايقدمون بعض الخلفاء الأربعة على بعض كيف والنص (٢)

صريح فى التفضيل بين هؤلاء الأربعة خاصة !!؟

(١) المعلم بفوائد مسلم - مخطوط ل ٨٤٠

(٢) انظر معالم السنن - بهامش المختصر - ١٨/٧

(١) هو محمد بن على بن عمر التميمى المازرى ، بفتح الزاء وقد تكرر نسبة الى مازر ، بلدة بجزيرة صقلية أحد الأعلام المشهورين فى حفظ الحديث والكلام عليها ٥٣٦هـ . انظر سير أعلام النبلاء ١٠٤/٢٠ ، ووفيات الأعيان ٢٨٥/٤

رأي ابن حزم في تفضيل نساء النبي على العشرة وغيرهم :-

ذهب ابن حزم إلى تفضيل نساء النبي صلى الله عليه وسلم على
سائر الصحابة على الإطلاق ، وأفضل المحابة بعدهن أبو بكر
(١)
ثم عمر .

قال ابن تيمية : " وأما نساء النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقل
إنهن أفضل من العشرة إلا أبو محمد بن حزم وهو قول شاذ
لم يسبقه إليه أحد وأنكره عليه من بلغه من أعيان العلماء ،
ونصوص الكتاب والسنة تبطل هذا القول " إلى أن قال رحمه الله :
" وبالجملة فهذا قول شاذ لم يسبق إليه أحد من السلف
وأبو محمد مع كثرة علمه وتبحره وما يأتي به من الطوائف العظيمة
له من الأقوال المنكرة الشاذة ما يعجب منه كما يعجب مما يأتي
(٢)
به من الأقوال الحسنة الفاضلة " .

وأما حجة ابن حزم لما ذهب إليه فقد قال : " إن أفضل الناس
أعلاهم في الجنة درجة وأعلى أهل الجنة درجة من كان مع النبي
صلى الله عليه وسلم في سرره وقصوره وليس هذا إلا لنسائه صلى الله
عليه وسلم فهن معه بلا شك في درجة واحدة في الجنة إذ لا يمكن

(١) انظر الدرة ص ٣٦٥ - ٣٦٦ ، والفصل ٤/ ١١٧ - ١٢٢ والمحلّى ١/ ٤٤٤ .

(٢) الفتاوى ٤/ ٣٩٥ - ٣٩٦ .

البتة أن يحال بينه وبينهن في الجنة ولا أن ينحط عليه

السلام إلى درجة يسفل فيها عن أحد من الصحابة فقد وجب

ضرورة أن يشهدلهن كلهن بأنهن أفضل من جميع الخلق كلهن

بعد الملائكة والنبيين عليهم السلام " قال : " ومارية أم إبراهيم

داخلة معهن في ذلك لأنها معه في الجنة ومع ابنها منه

(١)

بلاشك " وهذه حجة فاسدة ، قال ابن تيمية رحمه الله : " وهذا

يوجب عليه أن يكون أزواجه أفضل من الأنبياء جميعهم وأن تكون

زوجة كل رجل من أهل الجنة أفضل ممن هو مثله وأن يكون

من يطوف على النبي صلى الله عليه وسلم من الولدان ومن يزوج

به من الحور العين أفضل من الأنبياء والمرسلين ، وهذا كله مما

(٢)

يعلم بطلانه عموم المؤمنين "

وقد التزم ابن حزم بهذا اللازم الفاسد بإدخاله مارية

وإبراهيم في درجة نساء النبي صلى الله عليه وسلم في التفضيل

ثم قال بعد ذلك : " لا يقال إن إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه

وسلم أفضل من أبي بكر أو عمر ولا يقال أيضا أن أبا بكر وعمر

أفضل من إبراهيم " مع إقراره أن مكان إبراهيم في الجنة أعلى

(١) هذا مجموع من الفاظه في المحلى ٤/٤٤ والدرة ٣٦٥ والفصل ٤/١١٨ .

(٢) الفتاوى ٤/٣٩٥ .

من مكانهما فقد قال : " فلو قال قائل أيما أفضل في الجنة وأعلى قدرا مكان إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مكان أبي بكر وعمر وعثمان وعلى رضي الله عنهم ، قلنا مكان إبراهيم أعلى (١) بلا شك " فكيف تثبت بهذا الخط حجة ؟ ، يَجْزِمُ بأن من كان مع النبي في درجته في الجنة أفضل من أبي بكر وعمر وغيرهما ثم يتوقف في بعض من كان كذلك أو يخرج ابن حزم من هذا أن قال : " فضل إبراهيم ليس على عمل أصلا وإنما هو اختصاص مجرد وإكرام لأبيه صلى الله عليه وسلم وأمانته عليه السلام فكونهن وكون سائر أصحابه عليهم السلام في الجنة إنما هو جزاء لهم ولهم على أعمالهن وأعمالهم " وهذا منه تصريح بأن نساء النبي صلى الله عليه وسلم كانت لهن درجة النبي في الجنة جزاء لهن على أعمالهن لا لمجرد مرافقته صلى الله عليه وسلم في الجنة فكأنه يقول أنهن استحقين منزلة النبي في الجنة تماما كما استحقها النبي صلى الله عليه وسلم لا لكونهن توابع له وما أعظم هذه من فريسة ، وهذا اضطراب من ابن حزم فبعد أن جعل الأفضل من كان مع النبي في الجنة جعله من تساوى مع

(١) الفصل ٤/١٢٠.

(٢) الفصل ٤/١١٩.

النبي في الجزاء ، فأى تخليط فاسد هذا ، ولكن ابن حزم استدرك على نفسه هذه أيضا فقال : " فإن قال قائل إنهن لولا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حصلن تلك الدرجة وإنما تلك الدرجة لله عليه السلام ، قلنا وبالله تعالى التوفيق : نعم ، ولا شك أيضا في أن جميع الصحابة لولا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حصلوا أيضا على الدرج التي لهم فيها فإنما هي إذا على قولكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما قلتم ولا فرق وبقي الفضل والتقدم لهن كما (١)

كان في كل ذلك ولا فرق " ففر الله لابن حزم لكانه يصرم على أنهن استحقين منزلة النبي في الجنة جزاء على أعمالهن .

فلا ندري ما هي حجة فنناقشه فيها ، أهى أنهن مرافقات للنبي صلى الله عليه وسلم في الجنة لكونهن زوجاته في الدنيا فنقول له : هذا لا يستلزم الأفضلية التي ذهبت إليها إذ شئت فخيالة للمفضول يختص بها لا تقتضى تقديمه على الفاضل ، وقد نقضت حجتك هذه بما ذهبت إليه من التوقف في تفضيل إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اعتقادك مرافقته أباه صلى الله عليه وسلم في الجنة ، أم أن حجة أن لهن من العمل ما استحقين به منزلة النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة ، فنقول له : ومن ذا الذي يعتقد أن يكون أحد

(١) الفصل ٤/ ١٢٠ - ١٢١ .

من الخلق مساويا لأقل الأنبياء درجة في فضل العمل فكيف
بأفضل الأنبياء وسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، ورحم الله ابن
حزم وغفر لنا وله .

ولابن حزم حجة أخرى ذكرها في الفصل فقال في قوله سبحانه
: " النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم " الأحزاب ٦
قال : " فأوجب الله لهم حكم الأمومة على كل مسلم ، هذا سوى
حق إعظامهم بالمحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلهم رضى
الله تعالى عنهم مع ذلك حق المحبة له كسائر الصحابة إلا أن لهم
من الاختصاص في المحبة ووكيد الملازمة له عليه السلام
ولطيف المنزلة عنده عليه السلام والقرب منه والحظوة لديه
ما ليس لأحد من الصحابة رضى الله عنهم " قال : " فهن أعلى
درجة في المحبة من جميع الصحابة ثم فطن سائر الصحابة بحق
(١)
رائد وهو حق الأمومة الواجب لهم كلهن بنص القرآن " والجواب
عن هذا ما تكرر تقريره من أن ثبوت فضل يختص به المفضول
لا يستلزم أفضليته المطلقة ، ولو أننا سلطنا سبيل تعداد الفضائل
لوجدنا في الصحابة أوفى بعضهم من تزيد فضائله على
ما ذكره ابن حزم من فضائل زوجات النبي صلى الله عليه وسلم

(١) الفصل ١١٢/٤

فعلى سبيل المثال قد تقدم إخبار النبي صلى الله عليه وسلم
أن أبابكر آمن الناس عليه في صحبتة . وهذا وحده يرجح بما
ذكره ابن حزم من ملازمة زوجات النبي صلى الله عليه وسلم له ، فعلى
ابن حزم أن يأتي بدليل على تفضيل زوجات النبي صلى الله عليه
وسلم وإلا فإن اجتهاده مدفوع بقيام الدليل من الكتاب والسنة
والإجماع على تفضيل غيرهن من الصحابة على سائر الصحابة ،
والله أعلم .

ولقد ادعى ابن حزم دعوى فقال : " ثم وجدناهم لاعمل من الصلاة
والصدقة والصيام والحج وحضور الجهاد سبق فيه صاحب من الصحابة
إلا كان فيهم ، فقد كن يجهدن أنفسهن في طيق عيشهن على
الكد في العمل بالصدقة والعتق ويشهدن الجهاد معه عليه
السلام " (١) وهذه دعوى لاتسلم لابن حزم ولادليل له على أن واحدة
من نساؤه صلى الله عليه وسلم شاركته غزواته كما حمل من كثير
من الصحابة الذين لم تفتحهم غزوة مع النبي صلى الله عليه وسلم
عدا ما شاركوا فيه من سرايا . والله أعلم .

(١) الفصل ١١٧/٤ .

- رأي من جعل من مات في حياة النبي أفضل ممن بقي :

ذكر ابن رشد وابن حجر أن قوما ذهبوا إلى أن أفضل

الصحابة من استشهد في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل

حمزة وجعفر ونحوهم قال ابن حجر :^(١) وعين بعضهم منهم
^(٢)

جعفر بن أبي طالب " أضاف ابن رشد أنهم يفضلون كذلك من مات

في حياته صلى الله عليه وسلم وإن لم يكن من الشهداء قال ابن رشد

: " وإياه اختار ابن عبد البر " قال : " ومن حجتهم قوله صلى

الله عليه وسلم لشهداء أحد : (هؤلاء شهد عليهم) ، فقال

أبو بكر الصديق : ألسنا يا رسول الله بإخوانهم أسلمنا كما

أسلموا وجاهدنا كما جاهدوا ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بلى ، ولكن لا أدرى ما تحدثون
^(٣)

بعدي) "

وشهادة النبي صلى الله عليه وسلم على شهداء أحد ثابتة مروية

في صحيح البخاري وغيره من كتب الحديث ، أما قول أبي بكر

وجواب النبي صلى الله عليه وسلم فهي زيادة لم أجد لها

(١) انظر الجامع من المقدمات ١٧٦ والفتح ١٧/٧ .

(٢) الفتح ١٧/٧ .

(٣) الجامع ١٧٦ .

(١)

فى جميع روايات الحديث التى وقفت عليها .

فأما شهادته صلى الله عليه وسلم على شهداء أحد فلا تستلزم
الأفضلية المطلقة وإنما هى فضيلة ثابتة لهم ، ولو استلزمست
الأفضلية المطلقة لاستلزمت ذلك شهادته صلى الله عليه وسلم على
غيرهم لأعمال يعملونها نحو قوله صلى الله عليه وسلم فى
المدينة : " لا يبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شهيدا
(٢)
أوشيعا يوم القيامة " فهل تستلزم هذه الشهادة من النبى صلى
الله عليه وسلم لمن صبر فى المدينة على شدتها أن يكون أفضل
الامة ؟! لا يقول ذلك أحد .

ثم وان فرض استلزام الحديث الذى استشهدوا به الأفضلية المطلقة
لكان مقيدا بما ثبت فى أبى بكر وغيره من الصحابة من التفصيل .

(١) انظر روايات الحديث بالفاظ فيها بعض اختلاف ولكن دون الزيادة

المذكورة فى البخارى مع الفتح ٢١٢/٣ و ٢١٧ ، و ٣٧٤/٧ ، ومسند أحمد

٤٣١/٥ ، وسنن ابن ماجه ٤٨٥/١ ، والترمذى ٣٥٤/٣ ، والنسائى ٦٢/٤ ،

والإحسان فى ترتيب صحيح ابن حبان ٨٠/٥ ، وطبقات ابن سعد ٥٦٢/٣

ومعاني الآثار للطحاوى ٥٠٣/١ ، والسنن الكبرى للبيهقى ١٠/٤ - ١١ ،

ومجمع الزوائد ١١٩/١٠ .

(٢) أخرجه مسلم ١٠٠٤/٢

وأما الزيادة في الحديث وهي قول أبي بكر وجواب الرسول
 صلى الله عليه وسلم عنه وقوله : " لا أدري ما تحدثون بعدى " فهذا
 على تقدير ثبوته قديجاب عنه بأن ذلك كان متقدما على
 ما ثبت في أبي بكر وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم من التفضيل
 ثم قام الدليل بعد ذلك على تفضيل أبي بكر وعمر وعثمان
 وعلى وتفضيل بقية أصحاب الشورى ونحو ذلك ، ومما يشهد لهذا
 على سبيل المثال أن من أدلة تفضيل أبي بكر على الصحابة
 تقديم النبي صلى الله عليه وسلم له في الصلاة ليوم المحاربة
 وكان ذلك قبيل وفاته صلى الله عليه وسلم ، ثم لقد ثبت في
 الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج يوما فعلى على أهل
 أحد ملاته على الميت ثم انصرف إلى المنبر وخاطب جميع
 الصحابة قائلا : " إني فرطكم وأنا شهيد عليكم " قال : " وإني
 (١)
 والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى " فهذه شهادة وتركية
 والله أعلم . وقد أجاب ابن رشد عن الحديث فقال : " وهذا لا حجة
 لهم فيه لأن الحديث ليس على عمومته في أبي بكر وغيره لأن
 (٢)
 العموم قد يراد به الخصوص " .

(١) أخرجه البخاري ، انظر الصحيح مع الفتح ٢٠٩/٣ و ٦١١/٦ و ٢٧٧، ٢٤٩/٧

(٢) الجامع ١٧٦ - ١٧٧ .

رأى من قال : إن أفضل الصحابة مطلقا عمر رضي الله عنه :-

ذكر ابن حجر أن هناك من قال أفضل الصحابة مطلقا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، متمسكا بقوله صلى الله عليه وسلم في أبي بكر " وفي نزعہ ضعف " في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم : " بينا أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو فنزعت منها ما شاء الله ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع بها ذنوبا أو ذنوبين وفي نزعہ ضعف والله يغفر له ضعفه ثم استحالت غربا ، فأخذها ابن الخطاب

(١)
فلم أر عبقريا من الناس ينزع نوع عمر حتى ضرب الناس بعطن "

(٢)
قال ابن حجر في تمسكهم بذلك : " وهو تمسك واه " .

ولم يذكر ابن حجر وجه استدلالهم ولعله توهمهم أن قوله صلى الله عليه وسلم في أبي بكر " وفي نزعہ ضعف " مع قوله في عمر " فلم أر عبقريا من الناس ينزع نزع عمر " فيه تفضيل لعمر على أبي بكر ، وليس الأمر كذلك . فإن معنى " في نزعہ ضعف " كما يقول

الشافعي : " يعني قصر مدته وعجلة موته وشغله بالحرب لأهل الردة

(٣)
من الافتتاح والتزويد الذي بلغه عمر في طول مدته "

(١) متفق عليه ، البخاري مع الفتح ١٩/٧ ومسلم ١٨٦٠/٤ .

(٢) الفتح ١٧/٧ .

(٣) الام ١٦٣/١ .

قال ابن حجر في كلام الشافعي هذا : " جمع في كلامه ما تفرق
(١)
في كلام غيره " .

فالمراد إذا بالنزع الضعيف والنزع القوي قصر مدة الخلافة وطولها
فيتهيأ في الطويلة ما لا يتهيأ في القصيرة من الفتوحات والغنائم
قال النووي : " وأما قوله صلى الله عليه وسلم في أبي بكر رضي
الله عنه (وفي نزعك ضعف) فليس فيه حظ من فضيلة أبي بكر
ولا إثبات فضيلة لعمر عليه وإنما هو إخبار عن مدة ولايتهما
وكثرة انتفاع الناس في ولاية عمر لطولها ولاتساع الإسلام
وبلاده والأموال وغيرها من الغنائم والفتوحات وممصر
الأمصار ودون الدواوين ، وأما قوله صلى الله عليه وسلم
(والله يغفر له) فليس فيه تنقيص له ولا إشارة إلى ذنب وإنما
هي كلمة كان المسلمون يدعمون بها كلامهم ونعمت الدعامة " .
قال : " وقد سبق في الحديث في صحيح مسلم أنها كلمة كان المسلمون
(٢)
يقولونها أفعل كذا والله يغفر لك " يقصد النووي بالحديث الذي
أشار إليه حديث جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له في
بغير له : " أتبيعني به كذا وكذا ؟ والله يغفر لك " قال جابر :
هو لك يا نبي الله ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أتبيعني به كذا وكذا ؟
والله يغفر لك " . الحديث ثم قال أبو نغرة الراوي عن جابر : فكانت
(٣)
كلمة يقولها المسلمون ، أفعل كذا وكذا والله يغفر لك " .

(١) الفتح ٣٩/٧ .

(٢) شرح مسلم ١٦١/١٥ .

(٣) صحيح مسلم ١٠٨٩/٢ - ١٠٩٠ .

مقالات الذين فضلوا عليا بعد النبي صلى الله عليه وسلم :

أولا .. الرافضة أخزاهم الله :

لقد تقدم في الفصل الثاني من هذا الباب في المبحث الرابع منه ، بيان أن الرافضة أخزاهم الله يعتقدون أن أئمتهم أفضل الخلق بعد محمد صلى الله عليه وسلم وأفضل الأئمة علي بن أبي طالب ولذا فعلى من اعتقدهم هو أفضل الخلق بعد النبي صلى الله عليه وسلم ومرحوا بهذا في كتبهم ، فمثلا قد عقد صاحب الأنوار النعمانية نورا ، في بيان أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو علي بن أبي طالب ، وقال في أوله : " من كان أفضل من إبراهيم ونوح وموسى وعيسى بالدلائل السابقة لايحتاج تفصيله على غيرهم الى الدليل " ^(١) والرافضة مجمعون على تفصيل علي رضي الله عنه على سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى أنه ليس بعد النبي صلى الله عليه وسلم أفضل منه ، هكذا قال أبو الحسن الأشعري رحمه الله . ^(٢)

أما أبو بكر وعمر وعثمان فلا فصيله لهم عند الرافضة أخزاهم الله لأنهم عندهم كفار مرتدون وكذا سائر الصحابة عدا نفر

(١) الأنوار النعمانية ٢٧/١ .

(٢) مقالات الاسلاميين ٧٤ - ٧٥ .

(١)
منهم استثنوهم ، قال الكليني في الكافي : " كان الناس أهل
ردة بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة " وهم : " المقداد بن
(١)
الأسود وأبوذر الغفاري وسلمان الفارسي رحمة الله وبركاته عليهم "
وقيل للكليني : " إن الناس يفرعون إذا قلنا : إن الناس ارتدوا "
فقال لسائله : " إن الناس عادوا بعد ما قبض رسول الله صلى الله عليه
(٢)
وسلم أهل جاهلية "

ويقول صاحب الأنوار النعمانية : " إن الصحابة كانوا على النفاق
لكن كانت نار نفاقهم كامنة في زمنه - (يعني النبي صلى الله
عليه وسلم) - فلما انتقل إلى جوار ربه برزت نار نفاقهم
لوصيه ورجعوا القهقري ، ولذا قال عليه السلام إرتد الناس كلهم
بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا أربعة سلمان وأبوذر والمقداد

(١) الكافي ٢٠٥/٨ وانظر ص ٢٣٦.

(٢) الكافي ٢٤٦/٨.

(١) هو محمد بن يعقوب بن اسحاق ، أبو جعفر الكليني - بضم الكاف
وكسر اللام - شيخ الإمامية الروافض في عصره ، صنف الكافي في
عشرين سنة ، ت ٣٢٩ هـ.

انظر سير أعلام النبلاء ٢٨٠/١٥ ، والأعلام ١٤٥/٧.

(١)
وعمار، وهذا مما لا إشكال فيه " فزاد رابعا غير مرتدد،
وقال السرازي في بيان عقائد الرافضة : " وهم يكفرون الصحابة
ويقولون إن الخلق قد كفروا بعد النبي صلى الله عليه وسلم
إلعليا وفاطمة والحسن والحسين والزبير وعمار وسلمان
(٢)
وأبذر ومقدادا وبلالا وصهيبا " ولقد استشكل الرافضة تزويج
النبي صلى الله عليه وسلم ابنتيه لعثمان بن عفان رضي الله عنهم،
وعثمان عندهم منافق كافر أخزاهم الله ولحل هذا الإشكال
عندهم اختلف علماءهم هل كانتا بنتين للنبي صلى الله عليه
وسلم من خديجة أم أنهما ربيبتاه من أحد زوجي خديجة الأولين،
ولكن صاحب الأنوار النعمانية حل هذا الإشكال بقوله :
" وهذا الاختلاف لا أثر له لأن عثمان في زمن النبي صلى الله عليه
وسلم قد كان ممن أظهر الإسلام وأبطن النفاق وهو
صلى الله عليه وسلم قد كان مكلفا بظواهر الأمور كحالنا
نحن أيضا وكان يميل إلى مواصلة المنافقين رجاء الإيمان الباطني
(٣)
منهم " . هكذا لعنه الله حل الإشكال بأن عثمان رضي الله
عنه كان منافقا في اعتقاده واعتقاد أهل ملة الرافضة،

(١) الأنوار النعمانية ٨١/١ .

(٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٥٦ .

(٣) الأنوار النعمانية ٨١/١ .

ثم قال لعنه الله : " وإنما الإشكال فى تزويج على عليه السلام أم كلثوم لعمر بن الخطاب وقت تخلفه لأنه قد ظهرت منه المناكير وارتد عن الدين ارتدادا أعظم من كل من (١)

ارتد " قال لعنه الله : " فكيف ساغ فى الشريعة مناكحته وقد حرم الله تعالى نكاح أهل الكفر والارتداد واتفق عليه علماء الخاصة " هذا هو اعتقاد الرافضة أخراها الله فى الصحابة ، رفضوا ما أتى الله صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفضل ، قال ابن تيمية : " أما الرافضة فأصل بدعتهم عن زندقة وإلحاد وتعمد الكذب كثير فيهم ، وهم يقولون بذلك حيث يقولون : ديننا التقية ، وهو أن يقول أحدهم بلسانه خلاف ما فى قلبه وهذا هو الكذب والنفاق " قال : " ويدعون مع هذا أنهم هم المؤمنون دون غيرهم من أهل المللة ويصفون السابقين الأولين بالردة والنفاق فهم فى ذلك كما قيل (رمتنى بدائها وانسلت) إذ ليس فى المظهرين (٢)

ذلك كما قيل (رمتنى بدائها وانسلت) إذ ليس فى المظهرين

(١) الأنوار النعمانية ٨١/١

(٢) الأنوار النعمانية ٨٢/١

(٣) هذا مثل يضرب لمن ينسب إلى غيره عيبا هو فيه ، انظر قائله

وقصته فى مجمع الأمثال ٢٨٦/١ وانظر ص ١٠٢

للإسلام أقرب إلى النفاق والردة منهم ولا يوجد المرتدون

(١)

والمنافقون في طائفة أكثر مما يوجد فيهم".

وعلي رضي الله عنه وأرضاه برى مما ذهب إليه الرافضة، ولقد

بلغه في حياته أن نفرا يذكرون أبا بكر وعمر بغير الذي هما

له أهل فخطب رضي الله عنه في الناس مبينا عظيم حق

أبي بكر وعمر حتى قال: "ألا ولن يبلغني عن أحد يفضلني

عليهما إلا جلدته حد المفتري" نقل الخطيب البغدادي بعد

(١)

أن أسند هذا الحديث قول أحد رواة وهو أبو عبد الله البوشنجي

"هذا الحديث الذي سقناه ورويناه من الأخبار الثابتة لأمانة

حماله وثقة رجاله واتقان أثره وشهرتهم بالعلم في

كل عصر من أعمارهم إلى حيث بلغ من نقله إلى الإمام الهادي

علي بن أبي طالب رضي الله عنه حتى كأنك شاهد حول المنبر وعلي

(٢)

فوقه" وقال ابن تيمية رحمه الله: "قد روى عن علي من نحو

ثمانين وجها وأكثر أنه قال على منبر الكوفة: خير هذه

(٣)

الامة بعد نبيها أبو بكر وعمر" وقال: "قد تواتر عنه

(١) منهاج السنة ٦٨/١ - ٦٩ .

(٢) الكفاية ٥٢٤ - ٥٢٥ .

(٣) الفتاوى ٤٠٧/٤ ومنهاج السنة ١١/١ - ١٢ و ٣٠٨ و ٥١١/٧ .

(١) هو محمد بن إبراهيم بن سعيد، شيخ أهل الحديث في زمانه بنيسابور ت ٢٩١ هـ

انظر تذكرة الحفاظ ٦٥٧/٢، وسير أعلام النبلاء ٥٨١/١٣ .

من الوجوه الكثيرة أنه قال على منبر الكوفة وقد أسمع
 من حضر خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر^(١) وقال رحمه
 الله : " خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر كما تواتر ذلك
 عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب موقوفا ومرفوعا " . وقد أخرج
 البخاري في صحيحه عن محمد بن الحنفية قال : " قلت لأبي : أي
 الناس خير بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : أبو بكر .
 قلت : ثم من ؟ قال : ثم عمر ، وخشيت أن يقول عثمان ، قلت : ثم
 أنت ؟ قال : ما أنا إلا رجل من المسلمين " .^(٢)

^(١)
 ومقاتلات الرافضة كما يقول الاسفراييني : " ليست مما يستدل على فسادها
 فإن العاقل ببديهة العقل يعلم فسادها وينكر عليها فلا يمكن
 أن تحمل منهم هذه المقالات إلا على أنهم قصدوا بها إظهار
 ما كانوا يظفرونه من الإلحاد والشر بموالة قوم من أشـراف
 أهل البيت ، وإلا فليس لهم دليل يعتمدون عليه ، ويجعلون خرافات
 مقالاتهم إليه ، حتى أنهم لما رأوا الجاحظ يتوسع في

(١) منهاج السنة ١١/١ و ٣٠٨ .

(٢) الفتاوى ٥٦/١١ ، ومنهاج السنة ٣٠٨/١١ .

(٣) البخاري مع الفتح ٢٠/٧ .

(١) هو طاهر بن محمد ، أبو المظفر ، مشهور باسم " شافور " من فقهاء الشافعية
 وله مصنفات في التفسير والأصول ٤٧١ هـ . انظر سير أعلام النبلاء ٤٠١/١٨
 وطبقات الشافعية ١٧٥/٣ .

التمانييف ويصنف لكل فريق قالت له الروافض صنف لنا كتابا ،
فقال لهم : لست أدري لكم شبهة حتى أرتبها وأتصرف فيها ،
فقالوا له : اذا دلتنا على شيء نتمسك به ، فقال : لا أرى
لكم وجها إلا أنكم اذا أردتم أن تقولوا شيئا مما تزعمونه
تقولون انه قول جعفر بن محمد الصادق ، لا أعرف لكم سببا
تستندون إليه غير هذا الكلام ، فتمسكوا بحمقهم وغباوتهم
بهذه السوءة التي دلهم عليها ، وكلما أرادوا أن يخلقوا بدعة
أويخترعوا كذبة نسبوها الى ذلك السيد المادق وهو عنها
(١)
منزه وعن مقالاتهم في الدارين ."

هذا ، وفي الرافضة فرقة يقال لهم الراوندية يقولون إن أفضل
(٢)
الصحابة العباس بن عبدالمطلب . قال ابن حجر : " ومنهم من ذهب
الى العباسي " أي الى كونه أفضل الصحابة ، قال : " وهو قول
مرغوب عنه ليس قائله من أهل السنة بل ولا من أهل الإيمان " .
(٣)

(١) التبصير في الدين ص ٤٣ .

(٢) انظر مقالات الاسلاميين ٢١ و ٤٦٢ .

(٣) فتح الباري ١٧/٧ .

ثانيا : الزيدية والمعتزلية :

أما الزيدية فقد أجمعوا على تفضيل علي على سائر الصحابة
(١)
كما يقول أبو الحسن الأشعري ، مع اثباتها خلافة الشيخين أبي بكر
(٢)
وعمر .

وأما المعتزلة ففي شرح الأصول الخمسة أن متقدميهم ذهبوا إلى أن
أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان
ثم علي إلا واصل ابن عطاء فإنه يفضل عليا على عثمان ، وأن
فيهم من توقف في الأفضل من هؤلاء الأربعة ، وأن في متأخريهم من فضل

(١) مقالات الإسلاميين ٧٤ - ٧٥ ،

(٢) والزيدية ثلاث فرق يجمعها القول بإمامة زيد بن علي بن الحسين
بن علي في أيام خروجه وهي : الجارودية والسليمانية والبتيرية ،
والجارودية نحت في الصحابة منحى الرافضة وكفرت
أبا بكر وعمر ، وأما السليمانية والبتيرية فعلى ما ذكرنا
من تثبيت خلافة الشيخين والاقترار بفضلهما وهما تكفيران
الجارودية لتكفيرها الصحابة ويتبرأان منها - انظر
الفرق بين الفرق ٢٢ و ٢٢ - ٢٤ " والتبصير في الديـن

٢٧ - ٢٩ ، وخطط المقرئ ٢/٣٥١ .

عليها ثم أبوبكر ثم عمر ثم عثمان وأن المتأخرين على

(١)
أن أفضل الصحابة على ثم الحسن ثم الحسين .

والجامع بين الزيدية والمعتزلة تثبيتهم إمامة الشيخين وعثمان

بعدهما ويقررون لهم بالفضل إلا أنهم يفظلون عليا عليهم

ويجوزون إمامة المفضول . وهذا لاشك أهون بكثير من

مقالة الرافضة خذلهم الله .

قال ابن تيمية رحمه الله : " ليس في المعتزلة من يطعن في

خلافة أبي بكر وعمر وعثمان رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ،

بل هم متفقون على تثبيت خلافة الثلاثة ، وأما التفضيل فأعنتهم

وجمهورهم كانوا يفظلون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، وعلى

متأخريهم من توقف في التفضيل ، وبعضهم فضل عليا فعار بينهم

وبين الزيدية نسب واشج من جهة المشاركة في التوحيد والعدل

(٢)

والإمامة والتفضيل " .

ومذهبهم محجوج بالكتاب والسنة والإجماع - كما تقدم بيانه - .

(١) شرح الأصول الخمسة ٧٦٧ ، وانظر مقالات الإسلاميين ص ٤٥٨ .

(٢) منهاج السنة ١/٧٠ .

الفصل الرابع

اللقاء بين الرسولين

و

مباحث مستقروءة في السلفاء

الفصل الرابع : التفاضل بين المؤمنين ، ومباحث متفرقة في المفاضلة :

تميهـد : مقياس التفاضل في الشرع .

لقد خلق الله الخلق لغاية عظيمة بينها سبحانه في كتبه وعلى السنة رسله ، ألا وهي عبادته سبحانه والتدلل إليه بالطاعة والاستسلام والانقياد ، ولقد بين سبحانه أنه سخر المخلوقات كافة لعبادته فما من شيء إلا وهو يسجد له عز وجل ويسبح بحمده ، وبين أنه استثنى من هذا التسخير صنفين من المخلوقات ركب فيهم مناط الاختيار وهو العقل وكلفهم بالعبادة تكليفاً ، تاركاً لهم الاختيار أن يطيعوا أو أن يعصوا وأقام هذا التخيير ليعملوهم أيهم أحسن عملاً .

قال سبحانه : " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " الداريات ، وهذه في المكلفين خاصة ، والمعنى لم أخلقهم إلا لأمرهم بالعبادة وأكلفهم بها ، فمنهم من يمتثل ومنهم من يعصى ، ولما ذكر سبحانه غير المكلفين قال : " ألم تر أن الله يسجد له من فـي السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والدواب " فعمهم من غير استثناء ثم لما ذكر المكلفين قال : " وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب " - الحج ١٨ - فاستثنى وقال سبحانه

فى غير المكلفين أيضا : " أولم يروا الى ما خلق الله من شىء
يتفيسو ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون ، والله
يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون "
- النحل ٤٨ - ٤٩ .

فالعبودية لله هى الأمر الجامع الذى يجتمع فيه ماتفرق من
المخلوقات فى الأنواع والأجناس والذوات والصفات، وهى مراد الله
الذى من أجله خلق وبرأ، والجميع متساوون فى كونهم خلق
الله وملك الله وخافعون لتقديره وتدبيره، وإنما يتفاضلون
عنده سبحانه بمقدار تفاوتهم فى عبوديتهم له ، فإن المكلف
إذا عبد الله كان أفضل من غير المكلف، الكون عبادته
لله باختيار مع القدرة على المعصية، لعبوديته أتم وأكمل
وأما إذا أعرض عن عبادة الله، كانت الحيوانات والجمادات
ونحوها من غير المكلفين أفضل منه، لأنها أتم عبودية وأكمل
حين ذلك ، ولذا يتمنى الكافر مصير البهائم يوم القيامة
كما قيل فى تفسير قوله سبحانه : " يوم ينظر المرء ما قدمت
يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا " النبأ ٣٠ - ، فمصرها
(١)

(١) انظر تفسير ابن جرير ١٧/٣٠ ، والدر المنثور ٣١١/٦ .

خير من مصيره لأنه لم يتعلق بها حق لله فيعته كما
تعلق به فضيعه، إنما تقص الجماء من القرناء كما في حديث
عثمان رضي الله عنه ثم تكون ترابا، والمكلف الكافر لتضييعه
(١)
مقام العبودية يخلد في العذاب .

ثم إن المكلفين العابد لله يتفاضلون بمقدار تفاوتهم في
تحقيق مراد الله منهم ، ولذا كان أفضل الخلق أتمهم عبودية
لله ، وكلما ازداد العبد عبودية لله ازداد كماله وعلت
(٢)

درجته، فتفاضل الخلق هو في تفاضلهم في عبوديتهم لله ، قال
سبحانه : " وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان
عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا " هود ٧ - ، وقال :
" إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا " الكهف ٧ -
وقال : " هو الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا - الملك ٢
وقال سبحانه : " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكروا نثى
وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم

إن الله عليم خبير " الحجرات ١٣ - .

(١) الذي أخرجه أحمد في المسند ٧٢/٢ .

(٢) انظر العبودية ص ٨٠

وقال - صلى الله عليه وسلم لأبي ذر : " انظر فإنك لست بخير من

(١)

أحمر ولا أسود . إلا أن تفضل به بتقوى " وقال - صلى الله

عليه وسلم - : " إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد كلكم

بنو آدم طف الصاع لم تملؤوه ليس لأحد على أحد فضل

(٢)

إلا بدين أو تقوى " وقد قيل للنبي " من أكرم الناس قال : " أكرمهم

(٣)

أتقاهم " فليس التفاضل عند الله بجنس أو بنسب، وإن تفاضل

به الخلق بينهم، بل التفاضل عند الله بالتقوى التى هى ملاك

أمر العبودية، فما وقع من فضل فى الذوات أو الصفات أو نحوها

لعبد على عبد فقد يُفْضَلُ به العباد، ولكنه لا يقتضى

تفضيله عند الله حتى يقوم بحق العبودية فى هذا الفضل

فيفضل به عند الله لما تعلق به من حظ العبودية لا لذاته ،

(١) أخرجه أحمد فى المسند ١٥٨/٥ ، وقال ابن كثير تفرد به أحمد انظر

تفسيره ٢١٨/٤ وانظر الترغيب والترهيب ٦١٢/٣ ومجمع الزوائد ٨٤/٨

ففيهما أن رجاله ثقات إلا أن فيه انقطاع وقد حسنه السيوطى فى الجامع

١٠٩/١ وكذا الألبانى فى صحيح الجامع ٣٢/٢ .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند ٤٥/٤ ١٥٨٠ ومزاه السيوطى فى الجامع

البيهقى فى شعبه وأشار له بالمحة ، الجامع ١٣٧/٢ .

(٣) أخرجه البخارى انظر الصحيح مع الفتح ٤١٤/٦ .

واستدلا لنا لهذا الذى نقوله أن النبي - صلى الله عليه

وسلم - قال : " إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن

ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم " .^(١)

فإذا فهم قوله - صلى الله عليه وسلم - " إن الله لا ينظر إلى

صوركم " إلى قوله فى حديث آخر : " المؤمن القوي خير

وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير " وفى رواية

: " خير وأفضل وأحب إلى الله " ، تحقق ما قلناه ، فالله^(٢)

لا تفضل الصور عنده إلا بالعبودية ، فالقوي البنية لا ينظر الله

إليه إلا إذا ترتب على هذه القوة حظها من العبودية بأن

يكون أشد إقداما على العدو فى الجهاد ، وأسرع فى

الخروج إليه والذهاب فى طلبه ، أشد عزيمة فى الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر ، أرغب فى الصوم والصلاة ونحوها من

العبادات ، أنشط فى أداؤها ، فيكون فى ذلك كله ونحوه خير من الضعيف

لفضل قوته وإن كان فى كل خير لاشتراكهما فى الإيمان

إلا أن القوي أتم عبودية لله فهو عند الله أفضل لحظ

(١) أخرجه مسلم فى الصحيح ١٩٨٧/٤ ، وأحمد فى المسند ٢٨٥/٢ ، وابن ماجه

فى السنن ١٣٨٩/٢ .

(٢) أخرجه مسلم فى الصحيح ٢٠٥٢/٤ ، وأحمد فى المسند ٣٦٦/٢ ، وابن ماجه

فى السنن ٣١/١ ، وانظر شرح النووى لمسلم ٢١٥/١٦ .

العبودية التي اكتسبها بقوته، وإن كان عند الناس أفضل
لحظ القوة ذاتها، وكذا إذا نظرنا في قوله - صلى الله
عليه وسلم - " وأموالكم " أي ولا ينظر الله إلى أموالكم
مع قوله سبحانه : " مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله
كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة،
والله يضاعف لمن يشاء " والله واسع عليم " البقرة ٢٦١، تحقق
ما قلناه، ثم إذا نظرنا في لفظ الحديث نفسه لوجدناه دالا على
ما قلناه، فإن فيه أن الله إنما ينظر في ما تنعقد عليه
نية القلب وتمدقه الأعمال من التمرفات في الصور التي
مؤر الله خلقه بها، أو الأموال التي آتاهم إياها، لا ينظر
إلى الصور والأموال بل ينظر إلى ما يتعلق بها من حظ العبودية .
ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تنازع الناس في المفاضلة بين
الفقر الصابر والغني الشاكر ثم قال : " والعواب في هذا كله ما قاله
الله تبارك وتعالى حيث قال : " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى
وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم " .
وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي أنه سئل : " أي الناس
أفضل ؟ قال : أتقاهم " وذكر رحمه الله الحديث ثم قال : " فدل الكتاب
والسنة أن أكرم الناس عند الله أتقاهم " إلى أن قال : " فمن كان من هذه
الأصناف أتقى الله فهو أكرم عند الله وإذا استويا في التقوى استويا في الدرجة " (١)

(١) الفتاوى ١٩٥/١١ - ١٩٦ وانظر منهاج السنة ٥٦٨/٤

فالعبودية هي المقياس الشرعي الذي تقوم عليه المفاضلة بين
الخلق ، بل حتى ما يكون من التفاضل في الأزمنة والأمكنة إنما
هو لحظ العبودية المتعلق بها ، وكما يقول ابن رشد ^(١) : " البقاع
لم يفضل بعضها على بعض لمعنى موجود فيها من خاصية تختص
بها ، وإنما فضلت عليها لتفضيل الله لها برفع درجات
العاملين فيها " ^(٢) أي أنها إنما تفضل بمضاعفة الحسنات
والسيئات فيها لادواتها ، وكذا الأزمنة لا تتفاضل لمعنى
موجود في ذواتها وإنما لما خصها الله به من مضاعفة أجر
عمل العبد فيها وما خصها الله به من العبادات التي وقَّتها
فيها ، وكذا نجد العبادات نفسها يبنى تفاضلها على أيها
أعظم أجرا وأكثر حسنة ، أيها أحب إلى الله وأقرب ، ولذلك
ولذلك اتفق أهل العلم على أن الفرض

(١) هو أبو الوليد محمد بن أحمد ابن رشد القرطبي المالكي ، ت ٥٢٠ هـ

أندلسي لم ينتقل من الأندلس طالبا للعلم ، ولا خرج عن قرطبة يروى
عن العلماء ، كان من تلامذته القاضي عياض ، كان فقيها تولى القضاء
في قرطبة وله تأليف في الفقه والحديث والأقلام . انظر مقدمة المحقق
لكتابه " الجامع من المقدمات " .

(٢) الجامع من المقدمات ص ٣٤٩ وانظر ص ٣٤٥ .

(١)

أفضل من النفل .

لقوله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي : " وما تقرب عبدي بشيء

(٢)

أحب إليّ مما افترضت عليه "

فالعباداة هي مجال التفاضل والعبودية لله هي المقياس في التفاضل
إليها المفرع فيه ، وما نظر في تفاضله من غير جهة
العبودية فتلك مفاضلة في غير الشرع وعند غير الله ،
أما عند الله وفي شرعه فالتفاضل في حظ العبودية حيث تصرفه
وإنما تكون العبرة في العبودية التي يتفاضل بها هو إحسان
العمل لا كثرته فلرب نهر صاف خير من بحر كدر ، والآيات
المذكورة آنفا دالة على هذا .

وينبغي التنبيه إلى أن العبودية هي سبب التفاضل ووجهه في الشرع
لا غير إلا أن ينص الشرع على سبب آخر كالنبوة في النبي ،
والحبة في الصحابي .

(١) إلا ما استثنى لدلالة النص عليه كفضل ابتداء السلام وهو سنة
على رده وهو واجب ، وهي مواضع معدودة ثلاثة أو أربعة مواضع
النفل فيها أفضل من الغرض ، انظر في هذا الباب - شرح

منظومة الآداب ٢٨٦/١ .

(٢) أخرجه البخاري انظر صحيحه مع الفتح ٣٤١/١ .

القسم الأول : التفاضل بين المؤمنين :

المبحث الأول ١٠٠ الأصل في تفاضل المؤمنين تفاضل الإيمان :

إنما يتفاضل المؤمنون بتفاضلهم في الإيمان ، والإيمان
يتفاضل ، وتفاضل الإيمان زيادته ونقصانه ، وتكون زيادته
بالطاعة ويكون نقصانه بالمعصية ، ولقد قامت الأدلة من
كتاب الله وسنة رسوله بأن الإيمان يزيد وينقص :

ففي الكتاب : قال الله سبحانه وتعالى : " الذين قال لهم الناس
إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً "
البقرة ١٧٣ ، وقال سبحانه وتعالى : " إنما المؤمنون الذين
إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته
زادتهم إيماناً " الأنفال ٢ ، وقال عز وجل : " فمنكم من يقول
أبكم زادته هذه إيماناً ، فأما الذين آمنوا فزادتهم
إيماناً وهم يستبشرون " - التوبة ١٢٤ ، وقال سبحانه : " ولما
رآ المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله
وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً " الأحزاب
٢٢ ، وقال عز وجل : " هو الذي أنزل المكيّة على المؤمنين ليزدادوا
إيماناً " الفتح ٤ ، وقال تعالى : " ليستيقن الذين أوتوا الكتاب

ويزداد الذين آمنوا إيماناً " المدثر ٣١ ، وقال عز وجل :
 "إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى " الكهف ١٣ ، وقال :
 " ويزيد الله الذين اهتدوا هدى " مريم ٧٦ ، وقال : " والذين
 اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم " محمد ١٧ ، وقال : " ويخـرون
 للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً " الإسراء ١٠٩ .

فهذه آيات من القرآن مصرحة بأن الإيمان يزيد ، قال ابن حجر
 : " وبشوتها يثبت المقابل فإن كل قابل للزيادة قابل للنقصان
 (١)
 ضرورة " وعقد ابن مندة عنواناً قال : " ذكر الأعمال التي
 يستحق بها العامل زيادة الإيمان والتي توجب النقصان " (٢)
 فما وقعت فيه الزيادة وجب وقوع النقصان فيه ،

ومن السنة :

قول النبي صلى الله عليه وسلم للنساء : " ما رأيت من ناقصات
 عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن " قلن : وما نقصان
 ديننا وعقلنا يا رسول الله ؟ قال : " أليس شهادة المرأة نصف شهادة
 الرجل ؟ " قلن : بلى ، قال : " فذلك من نقصان عقلها ، أليس
 إذا حاضت لم تصل ولم تتمم ؟ " قلن : بلى ، قال : " فذلك
 (٣)
 من نقصان دينها "

(١) الفتح ٤٧/١

(٢) الإيمان لابن منده ٥٤١/٢ .

(٣) أخرجه البخاري ، الصحيح مع الفتح ٤٠٥/١ ، ومسلم ٨٦/١ - ٨٧ .

فهذا تصريح من النبي صلى الله عليه وسلم بأن الإيمان يقبل

النقص وهو دليل على أن الإيمان يقبل الزيادة .

وعلى هذا جرى اعتقاد أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص

وهو مروى عن الأئمة وهو منقول بالأسانيد عن جمع كثير من الصحابة

والتابعين وكل من يدور عليه الإجماع من الصحابة والتابعين كما يقول

ابن حجر^(١) قال : " وحكاه فضيل بن عياض ووکیع عن أهل السنة

والجماعة " وروى اللالكاشي بسنده عن يعقوب بن سفيان أنه أخبر^(٢)

أنه وجد كل من أدرك من عصره بمكة والمدينة والشام والبصرة والكوفة

على القول بأن الإيمان يزيد وينقص . وروى بسنده عن سهل بن المتوكل^(٣)

ابن حجر الشيباني أنه قال : " أدركت ألف استاذ أو أكثر كلهم

يقولون : الإيمان قول وعمل يزيد وينقص " . ونقل ابن حجر عن اللالكاشي^(٤)

أنه : " روى بسنده الصحيح عن البخاري قال : " لقيت أكثر من ألف

(١) الفتح ٤٧/١ وانظر شرح أصول الاعتقاد ٩٤١/٥ - ٩٦٤ ، والإيمان لابن

تيمية ٢٩٢ - ٢٩٤ .

(٢) الفتح ٤٧/١ .

(٣) شرح أصول الاعتقاد ٩٥٧/٥ و ٩٦٣ .

(٤) شرح أصول الاعتقاد ٩٥٧/٥ و ٩٦٤ .

(أ) هو يعقوب بن سفيان بن جوان الفسوي ، محدث روى من أكثر من ألف

شيخ ، ت ٢٧٧ هـ . انظر سير أعلام النبلاء ١٨٠/١٣ وتهذيب التهذيب

٣٨٥/١١

(ب) لم أجد له ترجمة .

رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحدا منهم يختلف
 في أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص^(١) ، وذكر ابن القيم
 أن الشافعي وغيره حكوا إجماع السلف على أن الإيمان يزيد
 وينقص^(٢) ، وقد قال ابن تيمية : " وقد ثبت لفظ الزيادة
 والنقصان فيه عن الصحابة ولم يعرف فيه مخالف من الصحابة "^(٣)
 ولكن لاشك أن فيمن جاء بعد الصحابة من السلف من خالف
 فقال الإيمان لا يزيد ولا ينقص وهم حماد بن أبي سليمان ومن
 اتبعه من فقهاء الكوفة كأبي حنيفة وغيره^(٤) ، ولكن قولهم
 كان شاذاً في أهل السنة والجماعة واجتمع الأئمة على الإنكار
 عليهم ورد ما شدوا به عن أهل السنة ، وهم مع قولهم^(٥)
 بأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص يقولون بتفاضل المؤمنين في الأعمال^(٦) .

(١) الفتح ٤٧/١ وانظر شرح أصول الاعتقاد ٥/٨٨٩ .

(٢) المنار المنيف ص ١١٣ .

(٣) الإيمان لابن تيمية ٢١١ .

(٤) انظر الإيمان لابن تيمية ١١٤ و ٢٨١ .

(٥) انظر السنة للخلال ٥٦٢ - ٥٨١ وشرح أصول الاعتقاد ٥/٩٨٦ - ١٠٠٥ .

(٦) انظر متن الفقه الأكبر - بذيّل شرحه - ص ١٦٩ ، وانظر شرحه ص ٧٠ - ٧١ ،

وانظر العقيدة الطحاوية - مع شرحها - ص ٣٧٣ ، وانظر الشرح ص ٣٧٥ .

(أ) هو حماد بن أبي سليمان مسلم ، أبو اسماعيل الأشعري ، أحد أئمة الفقهاء ، وهو
 أول من أرجأ العمل عن مسمى الإيمان من أهل السنة ، صدوق له أو هام ، ت ١٢٠ هـ
 وأقبلها .

انظر سير أعلام النبلاء ٥/٢٣١ وميزان الاعتدال ١/٥٩٥ .

فهو إجماع على تفاضل المؤمنين.

وأما وجه كون الأصل في تفاضل المؤمنين تفاضل الإيمان،
أن الإيمان إنما كان متفاضلا يقبل الزيادة والنقصان لأنه
شعب كما قال صلى الله عليه وسلم "الإيمان بضع وسبعون شعبة
والحياء شعبة من الإيمان" ^(١)، فمن استكمل الشعب استكمل
الإيمان ومن نقص منها نقص من إيمانه، وبهذا يتصور تفاضل
المؤمنين إذ لو كان الإيمان شيئا واحدا لا يقبل الزيادة
والنقصان فلا يتفاضل كتساوي أهله فيه لتساوي حظهم
منه، لأنه يكون حينها شيئا واحدا فلا يقبل الزيادة فيزيـد
أحد المؤمنين على آخر فيه فيفضله، ولا يقبل النقص فينقص
أحد المؤمنين عن آخر فيه فيكون مفضولا، وعليه فيكون
إيمان الأنبياء وإيمان أحاد المؤمنين متساو، وهذا باطل.

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة وهذا لفظ مسلم ٦٣/١ ولفظ

البخاري " بضع وستون " الصحيح مع الفتح ٥١/١.

المبحث الثانى : من أدلة تفاضل المؤمنين :

« قال تعالى : " فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء " والمالحين " النساء ٦٩ . هذه طبقات المؤمنين وهى دليل على تفاضلهم .

« وقال الله تعالى : " لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما " النساء ٩٥ ، هذا نص فى التفاضل بين المؤمنين وبيان لوجه من وجوه ذلك التفاضل فالآية ناطقة بأن من جاهد فى سبيل الله أفضل ممن قعد عن الجهاد من غير عذر مانع من الجهاد ، ومع أن الجميع مؤمن بالله وكلا وعد الله الحسنى إلا أن الله فضل المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما .

« وقال سبحانه وتعالى : " يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا ، يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات "

المجادلة ١١ -

فى هذه الآفة إخبار بتفاضل المؤمنفن فى الإيمان وذلك قوله سبحانه : " ىرفع الله الذين آمنوا منكم " أى ىرفعهم بايمانهم على من لفس بمنزلتهم فى الإيمان^(١) ، وإخبار بتفاضلهم فى وجه من وجوه الإيمان وهو العلم وذلك قوله تعالى : " والذفن أوتوا العلم " أى ىرفع الذفن أوتوا العلم على من لفس بعالم .

« وقال سبحانه : " ثم أورثنا الكتاب الذفن اصطففنا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخبرات باذن الله " فاطر ٣٢ - قد قسم الله هذه الأمة الى ثلاثة أنواع ظالم لنفسه وهو المفرط فى فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات ومقتصد وهو المؤدى للواجبات التارك للمحرمات وقد فترك بعضى المستحبات وففعل بعض المكروهات ، والسابق بالخبرات باذن الله وهو الفاعل للواجبات والمستحبات التارك للمحرمات والمكروهات^(٢) وبعضى المباحات .

فالأفة دلفل على تفاضل المؤمنفن .

(١) انظر زاد المسفر ١٩٣/٨ .

(٢) انظر تفسير ابن كثر ٥٥٥/٣ .

وقال سبحانه : " الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض " النساء ٣٤ - هذا إخبار بتفضيل المؤمنين على المؤمنات ، فإن الرجال من المؤمنين يفضلون النساء من المؤمنات في وجوه من الإيمان كالجمعة والجماعات والجهاد والخلافة ونحو ذلك من أمور الإيمان ، وتوضح هذا التفاضل عدة نصوص نحو قوله صلى الله عليه وسلم في النساء أنهن ناقصات دين وتفسيره صلى الله عليه وسلم نقصان دينهن بسقوط وجوب عبادة الصلاة عليهن حال الحيض والنفس وكذا تركهن الصوم في تلك الحال ، أما الرجال فإنه لا يسقط عنهن وجوب الصلاة بحال ، وكذا حديث عائشة رضي الله عنها أنها كن يرين الجهاد أفضل الأعمال فقالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : " الأنغزو ونجاهد معكم ؟ " فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " جهادكن الحج " .
(١)

ومن أدلة تفاضل المؤمنين أيضا :

« حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء الفقراء الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : ذهب أهل الدثور من الأموال بالدرجات العلا والنعيم المقيم يملكون كما نملى ويمومون كما نصوم ولهم

(١) أخرجه البخاري عن عائشة بن طلحة عن عائشة رضي الله عنها في مواضع من صحيحه بالفاظ متقاربة جمعت منها هنا ، انظر الصحيح مع الفتح

فضل من أموالهم يحجون بها ويعتصرون ويجاهدون ويتمدقون
قال صلى الله عليه وسلم: " ألا أحدثكم بما إن أخذتم به أدركتم
من سبقكم ولم يدرككم أحد بعدكم ،وكنتم خير من أنتم بين
ظهرانبيهم إلا من عمل مثله ؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف
كل صلاة ثلاثا وثلاثين " وفي رواية أن الفقراء رجعوا إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : سمع إخواننا أهل
الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : " ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء " .
(٢)

ففي هذا الحديث بيسان ظاهر لتفاضل المؤمنين وذكر لبعض وجوه
التفاضل بينهم فهم يتفاضلون في الحج والعمرة والجهاد
والصدقة والذكر والصوم والصلاة ونحو ذلك من شرائع الإسلام .
(٢)
« وقال صلى الله عليه وسلم : " إن من خياركم أحاسنكم أخلاقا " »
فهذا دليل على تفاضل المؤمنين وأن من أوجه تفاضلهم حسن
الخلق .

(١) أخرجه البخارى ، الصحيح مع الفتح ٣٢٥/٢ ومسلم ٤١٦/١ - ٤١٧ .

(٢) أخرجه مسلم ٤١٧/١ .

(٣) أخرجه البخارى ومسلم من حديث معاوية رضي الله عنه ، وهذا لفظ

مسلم ، البخارى مع الفتح ٤٥٢/١٠ ومسلم ١٨١٠/٤ .

« وسئل صلى الله عليه وسلم : أى المسلمين أفضل ؟ قال : " من سلم

(١)

المسلمون من لسانه ويده "

« وقال صلى الله عليه وسلم : " بينا أنا نائم رأيت الناس يعرضون

عليّ وعليهم قميص منها ما يبلغ الشدى ومنها مادون ذلك وعرض

عليّ عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره . قالوا : فما أولت ذلك

(٢)

يا رسول الله ؟ قال : الدين "

فهذا صريح في تفاضل المؤمنين في الإيمان .

(١) أخرجه مسلم ٦٦/١ وانظر البخارى مع الفتح ٥٤/١ .

(٢) أخرجه البخارى ٧٣/١ ومسلم ١٨٥٩/٤ .

المبحث الثالث : فى أى شىء يقع تفاضل المؤمنين :

تبيين من سياق الأدلة السابقة فى المبحث السابق دلالتها على أن تفاضل المؤمنين واقع فى الأعمال ، وأن زيادة الإيمان ونقصانه إنما تكون فى الأعمال ، فتكون الزيادة بالطاعات ويكون النقصان بنقص الطاعات وارتكاب المعاصى ، ولذلك عقد البخارى بابا فى كتاب الإيمان من صحيحه جعل عنوانه : " تفاضل أهل الإيمان فى الأعمال " وعقد مسلم بابا فى كتاب الإيمان من صحيحه بعنوان : " بيان نقصان الإيمان بالمعاصى ونقصه عن المتلبس بالمعصية على ارادة نفس كماله " وبابا آخر بعنوان : " بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات " وعقد اللالكاشى عنوانا فقال : " سياق ما دل أو فسر من الآيات من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وما رواه عن الصحابة والتابعين من بعدهم من علماء أئمة الدين أن : الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية . "

(١) الصحيح مع الفتح ٧٢/١ .

(٢) صحيح مسلم ٧٦/١ .

(٣) صحيح مسلم ٨٦/١ .

(٤) شرح أصول الاعتقاد ٨٩٠/٥ .

ونقص الإيمان ليس منحصرًا فيما يحمل به الإثم، فلا ينقص الإيمان بالمعصية فقط، بل وينقص الطاعات، كما دل عليه قوله صلى الله عليه وسلم في النساء: "أنهن ناقصات دين وفسر النقص بترك الحائض الصلاة والصوم، ثم نقص الطاعات قد يكون على وجه التكليف كما هو الحال في الحائض والنفساء في تركهن الصلاة والصوم، وقد يكون على وجه العذر كمن ترك الجماعة لعذر^(١)، وعليه فإن نقص الإيمان يقع على وجهين :- إما بما يحصل به الإثم وهو المعصية، وإما بما لا يحصل به إثم وهو نقص الطاعات بأحد وجهين إما التكليف أو العذر.

ثم إن الأعمال التي يقع فيها التفاضل إما أعمال قلوب وإما أعمال جوارح، فإن الإيمان يتفاضل في القلب ويتفاضل في الجوارح أما تفاضله في القلب فمن أدلته قوله سبحانه في المؤمنين إذا تلى عليهم كتاب الله: "ويزيدهم خشوعاً" الإسراء ١٠٩ - فهذه زيادة في عمل القلب وهو الخشوع الذي قال الله فيه: "انما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم" - الأنفال ٢ وقال إبراهيم عليه السلام فيما حكاه الله عنه: "رب أرني كيف تحيي الموتى، قال: أولم تؤمن، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي" البقرة ٢٦٠.

(١) انظر شرح النووي لمسلم ٦٨/٢.

فهذه زيادة الإيمان في القلب بزيادة طمأنينته ،

وفي حديث الرؤية الطويل الذي فيه ذكر الصراط أخطر
النبي صلى الله عليه وسلم أن من المؤمنين من ينجو فيجوز الصراط
ولا يدخل النار ، قال صلى الله عليه وسلم : " فإذا رأوا أنهم قد
نجوا وبقي اخوانهم يقولون : ربنا إخواننا كانوا يعملون معنا
ويصومون معنا ويعملون معنا ، فيقول الله تعالى : أذهبوا فمن
وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه ، ويحرم الله
صورهم على النار ، فيأتونهم وبعضهم قد غاب في النار
إلى قدمه وإلى أنصاف ساقيه ، فيخرجون من عرفوا ثم يعودون ،
فيقول : أذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه ،
فيخرجون من عرفوا ثم يعودون ، فيقول : أذهبوا فمن وجدتم في قلبه
مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه فيخرجون من عرفوا " فهذا صريح
(١)
صراحة ظاهرة بينة أن الإيمان يتفاضل في القلب وأن المؤمنين
يتفاضلون بما يقوم في قلوبهم من الإيمان وأن منهم من يكون
في قلبه مثقال دينار من إيمان ومنهم من يكون في قلبه مثقال نصف دينار

(١) متفق عليه من حديث أبي سعيد ، البخاري مع الفتح ٤٢١/١٣

ومسلم ١٦٩/١ - ١١٠ ، وهذا لفظ البخاري .

ومنهم من يكون في قلبه مثقال ذرة ، ومنهم من يكون في قلبه
أكثر من ذلك كله .

قال ابن تيمية رحمه الله : " ان أعمال القلوب مثل محبة الله
ورسوله وخشية الله تعالى ورجائه ونحو ذلك هي كلها
من الإيمان كما دل على ذلك الكتاب والسنة واتفاق السلف
(١)
وهذا يتفاضل الناس فيه تفاضلا عظيما " .

وأما تفاضله في أعمال الجوارح فما تقدم في المبحث الثاني
من النصوص فيه الدلالة الظاهرة على ذلك ، والأدلة على أن
التفاضل بين المؤمنين يكون بأعمال القلوب وأعمال الجوارح كثيرة
لاتحصر .

(١) الإيمان لابن تيمية ص ٢٢٢ .

المبحث الرابع : جماع أوجه تفاضل المؤمنين :

يتفاضل المؤمنون فيما بينهم من أوجه عديدة يجمعها —

وجهان :

الوجه الأول : تفاضلهم فيما شرع لهم ، وهو التفاضل من جهة ما أمروا به أو نهوا عنه .

الوجه الثاني : تفاضلهم في القيام بما شرع لهم ، وهو التفاضل من جهة امتثالهم الأمر واجتنابهم المنهي عنه .

أما الوجه الأول : فيضم أوجهها عدة ، منها :

١- التفاضل بينهم من جهة نزول الأمر بواجبات في الشرع على بعضهم دون بعض منهم لم يدركه الأمر، فإن ماوجب على المؤمنين بعد نزول القرآن كله وإكمال الدين لم يجب على المؤمنين في أول الأمر ، فلم تجب الصلاة مثلاً من أول الأمر بل إنما فرضت قبيل الهجرة ليلة الإسراء^(١) والمعراج ، فمن مات قبل وجوب الصلاة فلم يمل يكون مؤمناً قد أدى ماوجب عليه من الإيمان ، وتحريم الخمر - مثلاً - لم يكن من أول الأمر فمن مات قبل تحريمها وكان شارباً

(١) انظر صحيح البخاري مع الفتح ٤٥٨/١ وما بعدها .

للخمر لم يكن عامياً ناقص الإيمان بذلك لأنه لم يرتكب منها
 عنه حين شربها ، وعلى هذا فقس ، يقول أبو عبيد^(١) " أقام
 النبي صلى الله عليه وسلم بمكة بعد النبوة عشر سنين أو بضعة
 عشر سنة يدعو إلى هذه الشهادة خاصة ، ولين الإيمان المفتري
 على العباد يومئذ سواها ، فمن أجاب إليها كان مؤمناً^(١)
 لا يلزمه اسم في الدين غيره ، وليس يجب عليهم زكاة
 ولا صيام ولا غير ذلك من شرائع الدين " قال : " فلما أشاب
 الناس إلى الإسلام وحسنت فيه رغبتهم زادهم الله في
 إيمانهم أن صرف الصلاة إلى الكعبة بعد أن كانت إلى
 بيت المقدس " قال : " ثم خاطبهم وهم بالمدينة باسم الإيمان
 المتقدم لهم في كل ما أمرهم به أو نهاهم عنه " وذكر آيات في^(٢)
 التشريع أمراً ونهياً مصدرة بـ " يا أيها الذين آمنوا "

(١) كان هذا حتى وجبت الصلاة قبل الهجرة .

(٢) الإيمان لأبي عبيد ٥٤ - ٥٥ .

(أ) هو القاسم بن سلام الهروي الأزدي ، هو من علماء الإسلام في زمانه ،
 ومن كبار علماء الحديث والأدب والفقه وله فيها مصنفات ، ت ٢٢٤هـ -

انظر : تاريخ بغداد ٤٠٣/١٢ ، وتهذيب التهذيب ٣١٥/٧ .

فماوجب على من أدرك الأمر أكمل مماوجب على من مات قبل
أن يدركه فهو تفاضل من جهة مايجب على المؤمن.

٢- التفاضل بين المؤمنين من جهة معرفة ماوجب وتبلغه ،يقول
ابن تيمية رحمه الله : " لايجب على كل عبد من الايمان المفصل مما
أخبر به الرسول مايجب على من بلغه غيره ، فمن عرف القرآن والسنن
ومعانيها لزمه من الإيمان المفصل بذلك مايلزم غيره ، ولو
آمن الرجل بالله وبالرسول باطنا وظاهرا ثم مات قبل أن يعرف
شرائع الدين ، مات مؤمنا بماوجب عليه من الايمان ، وليس ما
وجب عليه ولاواقع منه مثل ايمان من عرف الشرائع فأمن
بها وعمل بها ، بل ايمان هذا أكمل وجوبا ووقوعا فإن ماوجب
عليه من الايمان أكمل ، وماوقع منه أكمل " (١)

ويقول رحمه الله : " الانسان قد يكون مكذبا منكرا لأمر لايعلم
أن الرسول أخبر بها وأمر بها ولو علم ذلك لم يكذب ولم ينكر
بل قلبه جازم بأنه لا يخبر الا بصدق ولا يأمر الا بحق ، ثم يسمع
الآية أو الحديث أو يتدبر ذلك أو يفهم له معناه أو يظهر له ذلك
بوجه من الوجوه ، فيصدق بماكان مكذبا به ويعرف ماكان منكرا
وهذا تصديق جديد ، وايمان جديد ازداد به ايمانه ، ولم يكن قبل ذلك
(٢)
كافرا بل جاهلا "

(١) الايمان لابن تيمية ص ٢١٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٤ .

فمن بلغه الأمر المشروع وعلمه فأصبح مكلفاً به أكمل ممن لم يبلغه ولم يعلمه فلم يكلف به .

٣- تفاضلهم من جهة ثبوت التشريع لبعضهم مع قيام المانع لــــه
لآخر ، وهذا يعم الحائض والنفساء في تركهم الصوم والصلاة
مع من لم يكن كذلك ، والمعذور بترك الجمعة والجماعات مع من
لاعذره فغير المعذور تجب عليه والمعذور سقط عنه الوجوب بالعذر ، ومن كان
عنده ما تجب عليه فيه الزكاة مع من لم يكن كذلك فذاك واجبة
عليه الزكاة وهذا غير واجبة عليه ، وغير المستطيع للحج مع من
يستطيعه وقد قيد الله وجوب الحج بالاستطاعة .

فمن ثبت في حقه تشريع يكون ما شرع له من الايمان أكمل ممن لم
يثبت في حقه ذلك التشريع .

وأما الوجه الثاني وهو تفاضل المؤمنين من جهة قيامهم بما
شرع لهم ، فإنه يضم وجوها عدة كذلك تقدم في المبحث الثاني
ذكر عددها .

المبحث الخامس

تفاضل قرون أمة محمد صلى الله عليه وسلم

لقد ثبت في الصحيحين — كما سبق ذكره — تفضيل النسبي
صلى الله عليه وسلم لقرنه ثم قرنين بعده على سائر قرون الأمة فهي ثلاثة
قرون مفضلة جزماً وورد في الصحيحين الشك في القرن الرابع .
وذكر ابن تيمية رحمه الله أن ابن حبان ونحوه من علماء أهل الحديث
جزموا بالقرن الرابع فتكون القرون المفضلة أربعة ، وذكر أن هذه الزيادة
ثابتة في الصحيح . (١)

أما حديث الثلاثة ففي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال : " خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم يجي
أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته " (٢) فذكر صلى الله
عليه وسلم قرنين بعد قرنه .

ومن حديث عائشة عند مسلم قالت : سأل رجل النبي صلى الله
عليه وسلم : أي الناس خير ؟ قال : " القرن الذي أنا فيه ، ثم الثاني ثم الثالث " (٣)

(١) الفتاوى (٢٠/٢٩٥) .

(٢) سبق ذكر موضعه من الصحيحين .

(٣) صحيح مسلم (٤/١٩٦٥) .

وأما الشك في الرابع ففي الصحيحين عن عمران بن حصين أنه قال :

قال النبي صلى الله عليه وسلم : " خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ،

ثم الذين يلونهم " قال عمران : لا أدري أذكر النبي صلى الله عليه

وسلم بعد قرنين أو ثلاثة " . (١)

وكذا جاء الشك في الرابع في رواية أبي هريرة عند مسلم (٢) وفي

رواية عبد الله أيضا عند مسلم . (٣)

وقد جاء في بعض روايات حديث : " خير الناس قرني " ،

عن النعمان بن بشير أثبات الرابع من غير شك ولفظه : " خير الناس قرني

ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم " . (٤)

(١) البخاري مع الفتح (٢٥٨/٥ - ٢٥٩ و ٣/٧ ، و ٢٤٤/١١

و ٥٨٠) وصحيح مسلم (١٩٦٤/٤) .

(٢) صحيح مسلم (١٩٦٣/٤ - ١٩٦٤) .

(٣) صحيح مسلم (١٩٦٣/٤) .

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٢٦٧/٤) وقال الهيثمي في المجمع

(١٩/١٠) : " رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط

وفي طرقهم عاصم بن بهدلة وهو حسن الحديث وثقة رجال

أحمد ورجال الصحيح " .

بل وورد اثبات القرن الخامس أيضا في رواية عن هريدة الأسلمسي
ولفظه : " خير أمتي القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين
يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم " .^(١)

وأما ثبوت زيادة القرن الرابع في الصحيح الذي عن ابن تيمية
فليس في هذا الحديث بل في حديث أبي سعيد الخدري في الصحيحين :
" يأتي زمان يغزو فقام من الناس فيقال : فيكم من رأى رسول الله
صلى الله عليه وسلم ؟ فيقال : نعم ، فيفتح لهم ، ثم يغزو فقام من
الناس فيقال لهم : فيكم من رأى من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟
فيقولون : نعم ، فيفتح لهم ، ثم يغزو فقام من الناس فيقال لهم : هل
فيكم من رأى من صحب من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون :
نعم ، فيفتح لهم " .^(٢) هكذا المتفق عليه ثلاثة فقام ، وزاد مسلم في رواية
عن أبي سعيد أيضا : " ثم يكون البحث الرابع فيقال : انظروا هل
ترون فيهم أحدا رأى من رأى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؟
فيوجد الرجل ، فيفتح لهم " .^(٣)

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٥٢/٥) وأبو يعلى كما في المجموع

(١٠/١٩) وقال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح .

(٢) سبق بيان موضعه في الصحيحين .

(٣) صحيح مسلم (١٩٦٢/٤) .

وفي حديث جابر الذي أوله : " ان الله اختار أصحابي على
العالمين " جا في آخره : " واختار امتي أربع قرون القرن الأول والثاني
والثالث والرابع " (١).

وأما القرون بعد هذه المفضلة ، فقد قال صلى الله عليه وسلم :
" لا يأتي زمان الا والذي بعده أشرم منه حتى تلقوا ربكم " (٢) ولكنه
قال صلى الله عليه وسلم : " لا يزال من امتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم
من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك " (٣).

(١) سبق تخريجه وهو من زوائد البزار وفي رجاله اختصار.

(٢) سبق تخريجه وهو في البخاري .

(٣) متفق عليه ، البخاري مع الفتح (٦ / ٦٣٢) وصحيح مسلم (٣ /

المبحث السادس
تفضيل أمة محمد صلى الله عليه وسلم على سائر الأمم

أمة محمد صلى الله عليه وسلم هي أفضل الأمم وأكملها إيماناً بنص
كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولا غرو فهي حظ النبي صلى الله
عليه وسلم من الأمم ولا يكون حظه صلى الله عليه وسلم وهو أفضل الخلق وسيد
الأنبياء والمرسلين إلا أفضل الحظ ، وهو صلى الله عليه وسلم حظهم من
الأنبياء ولا يكون من حظه من الأنبياء أفضلهم وسيدهم إلا أفضل الأمم ،
روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " انكم حظي من الأمم وأنا حظكم
من الأنبياء " (١) .

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤٧١/٣ و ٢٦٦/٤) والطبراني كما
في المجمع (١٧٣/١ - ١٧٤) وفيه رجل ضعيف واتهم بالكذب
وهو جابر الجعفي ، وأخرجه البزار من طريق آخر - كشف الاستار
(٣٢١/٣) قال الهيثمي في المجمع (٦٨/١٠) في حديث
البزار : " رجاله رجال الصحيح غير أبي حبيبة الطائي وقد صحح
له الترمذي حديثاً وذكره ابن حبان في الثقات " .
وسند البزار أخرجه ابن حبان في صحيحه - الاحسان
(١٧٢/٩) - والحديث صحيح المعنى .

قال ابن كثير : " وانما حازت هذه الأمة قصب السبق الى الخيرات
 بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه فانه اشرف خلق الله واكرم الرسل على
 الله وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبي قبله ولا رسول من الرسل ،
 فالعمل على منهاجه وسبيله يقوم القليل منه مالا يقوم العمل الكثير من أعمال
 غيرهم مقامه " .^(١) قال تعالى : ((هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين
 من حرج)) (الحج - ٢٨) . قال ابن كثير في تفسيرها : " أى
 يا هذه الأمة الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم وفضلكم وشرفكم وخصكم
 باكرم رسول واكمل شرع " .^(٢)

وقال الله تعالى : ((كنتم خير أمة أخرجت للناس)) (آل
 عمران - ١١٠) وهذا نص في أن هذه الأمة خير الأمم .
 وقال تعالى : ((وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على
 الناس)) (البقرة - ١٤٣) .
 وقال صلى الله عليه وسلم : " أنتم توفون سبعين أمة أنتم
 خيرها وأكرمها على الله " .^(٣)

-
- (١) تفسير ابن كثير (١ / ٣٩٢) .
 (٢) تفسير ابن كثير (٣ / ٢٣٢) .
 (٣) سبق تخريجه ، وإسناده حسن .

وقال صلى الله عليه وسلم : " بعثت في خير قرون بني آدم قرناً
 فقرنا حتى كنت في القرن الذي كنت فيه " .^(١)

وقال صلى الله عليه وسلم : " انما أجلكم في أجل من خلا من الأمم
 ما بين صلاة العصر الى مغرب الشمس ، وانما مثلكم ومثل اليهود والنصارى
 كرجل استعمل عمالا فقال : من يعمل لي الى نصف النهار على قيراط
 قيراط ؟ فعلت اليهود الى نصف النهار على قيراط قيراط ، ثم قال :
 من يعمل لي من نصف النهار الى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ فعلت
 النصارى من نصف النهار الى صلاة العصر على قيراط قيراط ، ثم قال : من
 يعمل لي من صلاة العصر الى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألا
 فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر الى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين
 ألا لكم الأجر مرتين ، فغضب اليهود والنصارى فقالوا : نحن أكثر عمالا
 وأقل عطاءً ، قال الله : هل ظلمتكم من حقكم شيئا ؟ قالوا : لا ، قال :
 فانه فضلي أعطيه من شئت " .^(٢) ففي هذا الحديث من تفضيل أمة محمد
 صلى الله عليه وسلم على الأمم عامة وعلى أهل الكتاب خاصة مالا خفيا
 فيه .

(١) سبق تخريجه وهو في البخارى .

(٢) أخرجه البخارى ، الصحيح مع الفتح (٤٩٥/٦ - ٤٩٦) .

وقال صلى الله عليه وسلم : " أفضل الله عن الجمعة من كان قبلنا
فكان لليهود يوم السبت وكان للنصارى يوم الأحد فجاء الله بنا فهدانا الله
ليوم الجمعة ، فجعل الجمعة والسبت والأحد ، وكذلك هم تبع لنا يوم
القيامة ، نحن الآخرون من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة ، المقضي
لهم قبل الخلائق " . (١)

فهذا اخبار بتفضيل أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأن الأمم تبع
لهم وأنهم أول الخلق في القضاة يوم القيامة .

وقال صلى الله عليه وسلم : " نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ،
ونحن أول من يدخل الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من
بعدهم " . (٢)

وقال صلى الله عليه وسلم : " يضرب الصراط بين ظهراني جهنم
فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته " . (٣) فأى أمة تفضل أول الأمم تجوز
على الصراط وأول أمة تدخل الجنة بل وأى أمة أفضل من الأمة التي أقامها
الله شاهدة للأنبياء على أممهم .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٥٨٦/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٥٨٥/٢ - ٥٨٦) .

(٣) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٢٩٢/٢ - ٢٩٣) ومسلم
(١٦٤/١) .

قال صلى الله عليه وسلم : " يجي " نوح وأُمته فيقول الله تعالى : هل بلغت ؟ فيقول : نعم أي رب ، فيقول لأُمته : هل بلغكم ؟ فيقولون لا ما جاءنا من نبي ، فيقول لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد صلى الله عليه وسلم وأُمته فنشهد أنه قد بلغ ، وهو قوله جل ذكره : ((وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس)) والوسط العدل . (١)

وقال صلى الله عليه وسلم : " ترد على أمتي الحوض وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل اهل الرجل عن ابله " قالوا : يا نبي الله أتعرفنا ؟ قال : نعم ، لكم سيما ليست لأحد فيركم ، تردون على غرا محجلين من آثار الوضوء " . (٢)

ففي هذا من خصائص هذه الأمة ما تفضل به على سائر الأمم . ولقد خص الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم بخصائص في الدنيا لم تشاركها فيها أمة غيرها فسهل لها الدين ولم يجعل عليها فيه من حرج ووضع عنها الاصر والأغلال التي كانت على من قبلها من الأمم ، أحل لها الغنائم ولم تحل لأحد قبلها ، وجعل لها الأرض مسجدا وطهورا فأبها رجلا

(١) أخرجه البخاري (٣٧١/٦) .

(٢) أخرجه مسلم (٢١٧/١) .

أدركته الصلاة صلى حيث كان .

وقد تقدم ذكر دلائل هذه الخصائص وغيرها .

وهذه النصوص — وغيرها — ناطقة بتفضيل أمة محمد صلى الله

عليه وسلم على سائر الأمم .

وأما قوله سبحانه : ((يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي

أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين)) (البقرة — ٤٧) فان المقصود

به عالمي زمانهم .^(١)

(١) انظر : تفسير الطبري (١/٢٠٨ — ٢٠٩) وزاد المسير

(١/٧٦) والدر المنثور (١/٦٨) .

المبحث السابع ما وقع من الباطل في هذا الباب

لقد اشتهر ما أحدثته طوائف المرجئة من الجهمية والكرامية ومن
نحا نحوهم في هذا الباب من الباطل المناقض لادلة الكتاب والسنة ،
وشاركهم هذا الإحداث في الدين الخوارج والمعتزلة ومن نحا نحوهم
فأطبقوا على أن الايمان لا يزيد ولا ينقص وأنه شيء واحد لا يتعدد وأن أهله
فيه سواء لا تفاضل بينهم برهم وفاجرهم في الايمان سواء كل مؤمن كامل
الايمان ، إلا أنهم تباينوا في حكم الكبيرة اذا وقعت من المؤمن أضر ايمانه
أم لا ؟

فذهبت المرجئة الى أنه لا تضر مع الايمان معصية كما لا تنفع
مع الكفر طاعة .

وذهبت المعتزلة والخوارج الى أن الكبيرة تخرج من الملة فور
وقوعها عند الخوارج فمن عصى عند الخوارج كافر جزما ، والمعتزلة زعمت
أن الكبيرة ترفع اسم الايمان عن الفاسق ولكنها لا توجب له الكفر حتى يموت
من غير توبة منها . فقالوا : الفاسق في منزلة بين منزلتين لا هو مؤمن
ولا هو كافر حتى ينظر على أى شيء يموت فان مات تائبا من الذنب رجع
الى الايمان وان مات غير تائب فهو كافر جزما ، فالفاسق كافر

عند الخوارج بارتكاب الذنب وهو كافر عند المعتزلة بالموت على عدم التوبة من الذنب ، أما أن توجب المعصية نقص الايمان فلا ، وأن يكون الفاسق مؤمنا مفضولا وغير الفاسق مؤمنا فاضلا فلا ،^(١) وليس لقول ناقض الكتاب والسنة واجماع أهل الاجماع الا الرد .

-
- (١) . انظر مقالة طوائف المرجلة المذكورة في : مقالات الاسلاميين (ص ١٣٢ و ١٣٣ و ١٣٤ و ١٣٦ و ١٣٧ و ١٤٧) ، والفرق بين الفرق (٢٠٢ و ٢٠٣ و ٢٠٧) والتبصير في الدين (٩٧) والملل والنحل - بهامش الفصل - (١/ ١٨٦ و ١٨٧ و ١٨٨ و ١٩٠ و ١٩١ و ١٩٣) واعتقادات فرق المسلمين والمشركين (٧٠ - ٧١) وخطط المقرئ (٢ / ٣٤٩ - ٣٥٠) .
- وانظر : مقالة المعتزلة المذكورة في : شرح الأصول الخمسة (ص ٦٩٧ - ٧٠٨) .
- وانظر : مقالة الخوارج المذكورة - علما بأن الخوارج أجمعت على تكفير مرتكبي الذنوب الا النجدات منهم فلا يكفرون أصحاب الذنوب من موافقيهم - : مقالات الاسلاميين (٨٦) والفرق بين الفرق (٧٣) والتبصير في الدين (٤٥) واعتقادات فرق المسلمين والمشركين (٤٦) .

القسم الثاني مباحث متفرقة في المفاضلة

المبحث الأول جواز امامة المفضول

تولية المفضول في سائر الولايات والامارات مع وجود الفاضل جائزة ، اذا كان المفضول اصلح للتولية كأن يكون الفاضل ضعيفا والمفضول قويا ، أو يكون المفضول حسن السياسة والتدبير والفاضل خلاف ذلك ، وتولية الأنفع للمسلمين وان كان مفضولا هو الأولى ، يقول ابن القيم : " وبهذا مضت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه كان يولى الأنفع للمسلمين على من هو أفضل منه ، كما ولى خالد بن الوليد من حين أسلم على حروبه لنكايته في العدو ، وقد مه على بعض السابقين من المهاجرين والأنصار مثل عبد الرحمن بن عوف وسالم مولى أبي حذيفة وعبد الله بن عمر ، وهؤلاء ممن أنفق من قبل الفتح وقاتلوا وهم أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وخالد كان ممن أنفق بعد الفتح وقاتل ، فانه أسلم بعد صلح الحديبية هو وعمر بن العاص وعثمان بن طلحة الحنفي ، ثم انه فعل مع بني جذيمة ما تهرأ النبي صلى الله عليه وسلم منه حين رفع يديه الى السماء وقال :

" اللهم اني أبرأ اليك مما صنع خالد " (١) ومع هذا فلم يعزله ، وكان أبو ذر من أسبق السابقين وقال له : " يا أبا ذر اني أراك ضعيفا وانسى أحب لك ما أحب لنفسى ، لا تأمّن على اثنين ولا تولين مال يتيم " (٢) وأمر عمرو بن العاص فى غزوة ذات السلاسل لأنه كان يقصد أخواله بنى عذرة ، فعلم أنهم يطيعونه مالا يطيعون غيره للقرابة وأيضا فلحسن سياسة عمرو وخبرته وذكائه ودهائه فانه كان من أدهى العرب ودعاة العرب أربعة هو أحدهم ، ثم أوقفه بأبى عبيدة وقال : " تطاوعا ولا تختلعا " فلما تنازعا فيمن يصلى سلم أبو عبيدة لعمرى فكان يصلى بالطائفتين وفيهم أبو بكر . (٣) وأمر أسامة بن زيد مكان أبيه لأنه — مع كونه خليفا للامارة — أحرص على طلب ثأر أبيه من غيره ، وقدم أباه زيدا فى الولاية على جعفر ابن عمه مع أنه مولى ولكنه من أسبق الناس اسلاما قبل جعفر ، ولم يلتفت الى طعن الناس فى امارة أسامة وزيد وقال : " ان تطعنوا فى امارة أسامة فقد طعنتم فى امارة أبيه من قبل ، وأيم الله ان كان خليفا للامارة ومن أحب الناس الي (٤)

(١) أخرجه البخارى ، الصحيح مع الفتح (٥٧/٨) .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٥٨/٣) .

(٣) انظر هذا الحديث فى المسند (١٩٦/١) .

(٤) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٨٦/٧) وصحيح مسلم

قال ابن القيم : " والمقصود أن هديه صلى الله عليه وسلم تولية
الأئمة للمسلمين وإن كان غيره أفضل منه " (١)

قال ابن تيمية : " ولذلك كان — (يعنى النبی صلى الله
عليه وسلم) — يستعمل الرجل لمصلحة مع أنه قد كان يكون مع الأمير من هو
أفضل منه فى العلم والإيمان " . قال : " وهكذا أبو بكر خليفة
رسول الله صلى الله عليه وسلم رضى الله عنه مازال يستعمل خالدا فى حرب
الردة وفى فتوح العراق والشام وهدت منه هفوات كان له فيها تأويل وقد ذكر
له عنه أنه كان له فيها هوى فلم يعزله من أجلها بل عتبه عليها لرجحان
المصلحة على المفسدة فى بقاءه " . (٢)

وقال ابن حجر : " والذى يظهر من سيرة عمر فى أمراءه الذين كان
يؤمرهم فى البلاد أنه كان لا يراعى الأفضل فى الدين فقط بل يضم إليه مزيد
المعرفة بالسياسة مع اجتناب ما يخالف الشرع منها ، فلأجل هذا استخلف
معاوية والمغيرة بن شعبه وعمرو بن العاص مع وجود من هو أفضل من كل منهم
فى أمر الدين والعلم كأبى الدرداء فى الشام وابن مسعود فى الكوفة " . (٣)

(١) اعلام الموقعين (١/١٠٦ - ١٠٧) وانظر السياسة الشرعية

٠ (٢٢ - ٢٣)

(٢) السياسة الشرعية (٢٣) .

(٣) الفتح (١٣/١٩٨ - ١٩٩) .

وقال ابن تيمية : " سئل الامام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو واحد هما قوي فاجر والآخر صالح ضعيف مع أيهما يغزى ؟ فقال أما الفاجر القوي فقوته للمسلمين وفجوره على نفسه ، وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين فيغزى مع القوي الفاجر " . (١)

وقال : " سئل بعض العلماء : اذا لم يوجد من يُؤلى القضاء الا عالم فاسق أو جاهل دین فأيهم يقدم ؟ فقال : ان كانت الحاجة الى الدين أكثر لغلبة الفساد قُدم الدين ، وان كانت الحاجة الى العالم أكثر لخفاء الحكومات قدم العالم " . (٢)

وقال ابن حجر الهيتمي : " اعلم أنه يجوز نصب المفضل مع وجود من هو أفضل منه لاجماع العلماء بعد الخلفاء الراشدين على امامة بعض من قريش مع وجود أفضل منهم ولأن عمر رضى الله عنه جعل الخلافة بين ستة من العشرة منهم عثمان وعلي رضى الله تعالى عنهما وهما أفضل أهل زمانهما بعد عمر فلو تعين الأفضل لعين عمر عثمان فدل عدم تعيينه أنه يجوز نصب غير عثمان وعلي مع وجودهما " . (٣)

-
- (١) السياسة الشرعية (٢١) .
(٢) السياسة الشرعية (٢٥ - ٢٦) .
(٣) الصواعق المحرقة (ص ٩) .

ولقد قال عمر رضى الله عنه لما جعل الأمر الى الستة : " فان أصابت الامرة سعدا فهو ذاك " .^(١) هذا مع علمه بأن عثمان وعلي أفضل من سعد ، ولقد اجتمعت الأنصار بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم الى سعد بن عباد في السقيفة ليؤثروا خليفة مع علمهم بأن أبو بكر وعمر وفيرهما أفضل منه ، وقال أبو بكر يوم السقيفة : " بايعوا عمر أو أبا سبيدة " .^(٢) وهو أفضل منهما بلا شك ، ففي هذا دليل على أن الصحابة كانوا يرون جواز اقامة المفضول ولو كانوا يرون عدم جوازه لكان فيما ذكر عنهم تساهل وتضييع لحدود الله حاشاهم من ذلك رضوان الله عليهم .

ويتأكد جواز اقامة المفضول اذا كان أقدر من الفاضل على القيام بمصالح المسلمين وأمر بتدبير الملك كما تقدم ، وكذا اذا كان يترتب على اقامة الفاضل مفسدة شرعية راجحة مثل وقوع الفتن وتضييع الحقوق .

ولقد ذكر ابن تيمية رحمه الله أنه لا يشترط في الولاية من العلم والعدالة أكثر مما يشترط في الشهادة .^(٣)

هذا ، وقد خالف في هذه المسألة جماعة من أهل الكلام والضلال ،

(١) البخارى مع الفتح (٧١/٧) .

(٢) انظر : خبر يوم السقيفة في البخارى مع الفتح (٢٠-١٩/٧) .

(٣) منهاج السنة (٣٩٨/٣ - ٣٩٩) .

قال ابن حزم : " ذهب طوائف من الخوارج وطوائف من المعتزلة وطوائف من المرجئة منهم محمد بن الطيب الباقلائي ومن اتبعه ، وجميع الرافضة من الشيعة الى أنه لا يجوز امامة من يوجد في الناس أفضل منه " .^(١)

وما نسبته ابن حزم للباقلاني صحيح فانه قال بوجوب أن يكون الامام الأفضل في الأمة الا أنه استثنى فقال : " الا أن يمنع عارض من اقامة الأفضل فيسوغ نصب المفضل " .^(٢) وبين هذا العارض الذي قصده وهو خوف الفتنة والتمازج واختلاف السيوف .^(٣)

قال امام الحرمين : " لا معصم لمن يمنع امامة المفضل الا اخبار آحاد في غير الامامة التي نتكلم فيها ، كقوله صلى الله عليه وسلم : " يؤكمم أقرؤكم " .^(٤) ولا يفضى هذا وأمثاله الى القطع ، كيف ولو تقدم المفضل في امامة الصلاة لصحة الامامة وان ترك الأولى فهذا قولنا في امامة المفضل " .^(٥)

(١) الفصل (١٦٣/٤) وانظر : أصول الدين (٢٩٣) .

(٢) التمهيد (٤٧١) .

(٣) انظر : التمهيد (٤٧٥) .

(٤) أخرج مسلم من حديث أبي مسعود الأنصاري " يؤم القوم أقرؤهم

لكتاب الله " صحيح مسلم (٤٦٥/١) .

(٥) الارشاد (٣٦٣) .

وقال ابن حزم : " ما نعلم لمن قال ان الامة لا تجوز الا لأفضل
من يوجد حجة أصلا لا من قرآن ولا من سنة ولا من اجماع ولا من صحة عقل
ولا من قياس ولا قول صاحب وما كان هكذا فهو أحق قول بالاطراح " .^(١)

(١) الفصل (١٦٣/٤) .

المبحث الثاني تفاضل الملائكة

الملائكة عباد مكرمون هم الملائكة الأعلى الذين عند الله لا يستكبرون
من عباد الله يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يعصون الله ما أمرهم ،
ويفعلون ما يؤمرون وهم خلق كريم خلقوا من نور وهم جنود الله سخرهم الله
في تسيير أمور الكون وفي القيام بعبادته وتعظيمه ، منهم الموكل بالقطر
والموكل بالجبال ، والموكل بالنطفة في الرحم ، والموكل بقبض الأرواح ،
والموكل بفتنة القبر ، ومنهم خزنة جهنم ، وما منهم الا له مقام معلوم وهم
خلق كثير لا يحصى عدد هم الا الله ((وما يعلم جنود ربك الا هو))
لا يعرف من جميع المخلوقات ما يتجدد من جنسه في كل يوم سبعون ألفاً
غير ما ثبت في الملائكة في قوله صلى الله عليه وسلم في حديث المعراج :
" فرفع لى البيت المعمور فسألت جبريل ، فقال : هذا البيت المعمور
يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك اذا خرجوا لم يعودوا اليه آخر ما عليهم^(١)
والملائكة متفاضلون بعضهم أفضل من بعض ، وأفضلهم المقربون الذين
قال الله فيهم : ((لن يستكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة
المقربون)) (النساء - ١٧٢) .

(١) البخاري مع الفتح (٣٠٢/٦) وصحيح مسلم (١٤٦/١) .

قال الرازي : " قوله (ولا الملائكة المقربون) يدل على أن طبقات الملائكة مختلفة في الدرجة والفضيلة فالأكابر منهم مثل جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وهزرائيل وحملة العرش " (١) والملائكة المقربون هم المسمون بالكروبيين . (٢)

قال ابن الأثير : " وفي حديث أبي العالية : (الكروبيون سادة الملائكة) هم المقربون " . (٣)

قال ابن كثير وقد ذكر أقسام الملائكة : " ومنهم الكروبيون الذين هم حول العرش وهم أشرف الملائكة مع حملة العرش ، وهم الملائكة المقربون كما قال تعالى : ((لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون)) . (٤)

وأفضل المقربين رؤساء الملائكة الثلاثة الذين كـــــــان

- (١) تفسير الرازي (١١٩/١١) .
- (٢) انظر الفتاوى (٣٥٢/٤) والبداية والنهاية (٤٩/١) ومعارج القبول (٨٢/٢) .
- (٣) النهاية (١٦١/٤) ولم أعتز على هذا الحديث في شيء من كتب الحديث التي وقفت عليها .
- (٤) البداية والنهاية (٤٩/١) .

النبي صلى الله عليه وسلم يذكرهم في دعائه الذي يفتتح به صلاته اذا قام من الليل فيقول : " اللهم رب جبرائيل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والأرض ... " ^(١) الحديث .

قال ابن القيم في هذا الحديث : " فذكر هؤلاء الثلاثة — من الملائكة لكمال اختصاصهم واصطفائهم وقربهم من الله وكم من ملك فيهم في السموات فلم يسم الا هؤلاء الثلاثة ، فجبريل صاحب الوحي الذي به حياة القلوب والأرواح ، وميكائيل صاحب القطر الذي به حياة الأرض والحيوان والنبات واسرافيل صاحب الصور الذي اذا نفخ فيه أحييت نفخته بأذن الله الأموات وأخرجتهم من قبورهم " ^(٢) . وقد خص الله جبريل وميكائيل في كتابه بالذكر وعطف ذكرهما على ذكر الملائكة فقال : ((من كان عدوا لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكائيل فإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ)) (البقرة — ٩٨) قيل إنما خصهما بالذكر تعريفا لهما ^(٣) .

وأفضل الملائكة ومقدمهم جبريل عليه السلام ، قال الله عز وجل فيه ((قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بأذن الله)) (البقرة — ٩٧)

(١) أخرجه مسلم (٣٥٤/١) .

(٢) زاد المعاد (٤٣/١) .

(٣) انظر : تفسير القرطبي (٣٦/٢) .

فحرفه الله عز وجل بذكره وذم معاديه، وذكر سبحانه دليل فضله وتشريفه وهو
وظيفته الشريفة الكريمة : تبليغ الوحي للرسول من الله، فهو الواسطة بين
الله ورسوله ، وقد سماه الله في كتابه بأسماء شريفة ووصفه بأوصاف كريمة ،
قال سبحانه : ((قل نزل به روح القدس من ربك)) (النحل - ١٠٢) فسماه
روح القدس ، وقال : ((نزل به الروح الأمين على قلبك)) (الشعراء - ١٩٣)
فسماه الروح الأمين ، وقال سبحانه : ((انه لقول رسول كريم ذي قوة عند
ذي العرش مكين مطاع ثم أمين)) (التكوين) أى ان القرآن نزل به
جبريل ووصف سبحانه جبريل بصفات كريمة كلها تقتضى تفضيله على سائر
الملائكة فهو رسول كريم وذو قوة ، وهو مكين المنزلة عند ذي العرش ومطاع
في السموات تطيعه الملائكة ، وأمين على وحي الله ورسالاته ^(١) ولقد
خصه الله بالذكر في مواضع من كتابه ، قال سبحانه : ((فان الله هو مولاه
وجبريل وصالح المؤمنين)) (التحريم) فذكره سبحانه بعد ذكر نفسه
ولم يذكر سواه من الملائكة ، وقال سبحانه : ((تعرج الملائكة والروح اليه))
(المعارج - ٤) وقال : ((يوم يقوم الروح والملائكة صفا)) (النبأ - ٣٨)
وقال : ((تنزل الملائكة والروح فيها)) (القدر) ففي هذه الآيات

(١) انظر : زاد المسير (٢/٤٣) .

تخصيص من الله له في الذكر مع ذكر الملائكة ، وقال صلى الله عليه وسلم :
" ان الله تبارك وتعالى اذا أحب عبدا نادى جبريل : ان الله قد أحب
فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ثم ينادى جبريل في السماء ان الله قد أحب
فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء " .^(١) وفي هذا الحديث مالا يخفى من بيان
فضل جبريل عليه السلام وأنه ليس فقط مبلغ كلام الله الى الرسل بل والى
الملائكة أيضا .

ومن أفضل الملائكة أهل بدر منهم كما في الحديث أن جبريل سأل
النبي صلى الله عليه وسلم : ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : من أفضل
المسلمين — أو كلمة نحوها — قال : وكذلك من شهد بدرا —
الملائكة " .^(٢)

(١) البخارى مع الفتح (٤٦١/١٣) ومسلم (٢٠٣٠/٤) .

(٢) سبق تخريجه وهو في البخارى .

المبحث الثالث التفاضل بين الملائكة والبشر

هذه مسألة كثر الكلام فيها في كتب المتأخرين من أهل العلم
أخذاً ورداً ، وطال طولاً أخرجها عن فائدتها وحدها ، وخلاصة ما قيل فيها
أن الناس فيها على مذاهب ثلاثة : (١)

الأول : تفضيل الملائكة على البشر مطلقاً ، وإليه ذهب المعتزلة
وبعض الأشعرية وابن حزم ومال إليه بعض أهل السنة وبعض الصوفية
واستدلوا بأدلة من كتاب الله وسنة رسوله لها وجهها في الدلالة على قولهم
كقوله سبحانه في بني آدم ((وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلاً))
(الاسراء - ٧٠) فقال على كثير ولم يقل على كل ومن صاه أن يكون
الخارج من هذا الكثير إلا الملائكة ، وقوله سبحانه : ((لن يستنكف
المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون)) (النساء - ١٧٢) ومثل
هذا دال لغة على أن المعطوف أفضل من المعطوف عليه ، وقوله سبحانه :

(١) انظر في هذه المسألة : مقالات الاسلاميين (٤٨ و ٢٢٦ و ٤٣٩) ،
ومرج أصول أهل السنة (٢٣٥ / ٧) والفصل (٢٠ / ٥) وما بعدها
المحلى (١٣ / ١) وأصول الدين (١٦٦) والمواقف (٣٦٢) وفتح
البارى (٣٨٦ / ١٣ - ٣٨٨) وشرح الطحاوية (٢٧٧) ولوامع
الأنوار البهية (٣٩٨ / ٢) والمواهب اللدنية (٤٤ / ٢) .

((قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم انى ملك))
 (الأنعام - ٥٠) والمعنى عندهم انى لا أدعى فوق منزلتى ، ويقولون
 صلى الله عليه وسلم : " يقول الله تعالى : ((أنا عند ظن عبدى بهى
 وأنا معه اذا ذكرنى ، فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى
 فى ملاء ذكرته فى ملاء غير منه))^(١) وهو نص فى الأفضلية) وهى أدلة على
 ما ترى من الدلالة، الا أن المخالفين ردوا على الاستدلال بها ورد هؤلاء
 على ردودهم .

الثانى : تفضيل الأنبياء وصالحى البشر على الملائكة : وهو
 مذهب جمهور أهل السنة والجماعة وكذا جمهور أصحاب الأشعرى واستدلوا
 بأدلة ظاهرة الدلالة على قولهم ، كقوله سبحانه : ((واذا قلنا للملائكة
 اسجدوا لآدم)) ، والفاضل لا يسجد للمفضول ، وقوله سبحانه :
 ((ولقد اخترناهم على علم على العالمين)) (الدخان - ٣٢) وقوله :
 ((ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين))
 (آل عمران - ٣٣) هذه فى الأنبياء ، أما فى صالح البشر فكقولون
 سبحانه : ((ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية))
 (البينة - ٧) وهى أدلة فى القوة على ما ترى ، الا أن المخالفين

(١) أخرجه الشيخان ، البخارى مع الفتح (١٣ / ٣٨٤) ومسلم (٤ / ٢٠٦١) .

رد وا على الاستدلال بها وعلى الرد رد ، ورأى قوم أن الأدلة متكافئة فكان قول ثالث وهو التوقف والسكوت عن التفضيل . وانا ان ذهبنا نتبع الأدلة والردود ورد الردود لخرج بنا الموضوع من حده وطال طويلا لا نستطيع الوقوف عند حد له . وهي مسألة - كما ذكرت - كثير فيها الاختلاف وتعمبت فيها الاستدلالات وتشابكت وعظم فيها الجدل حتى خرج بها بعضهم مخرج المنافرة والمفاخرة فأخذ يقول : منا الانبياء ومنا الاولياء ، فردّ عليه بأن للملائكة أن تقول : اليس منكم فرعون وهامان ؟ اليس منكم من ادعى الربوبية ؟ ^(١) وأساء بعضهم الأدب فقال : كان الملك خادما للنبي صلى الله عليه وسلم أو أن بعض الملائكة خدموا بنى آدم . ^(٢) وهذه المسألة قد قال فيها ابن تيمية رحمه الله : " المسألة على هذا الوجه لست أعلم فيها مقالة سابقة مفسرة ، وربما ناظر بعض الناس على تفضيل الملك ، وبعضهم على تفضيل البشر ، وربما اعتصمت هذه المسألة بمسألة التفضيل بين الصالح وغيره " . ^(٣)

(١) انظر : طبقات الحنابلة (٢٠٧/٤) .

(٢) انظر : شرح الطحاوية (ص ٢٧٩) .

(٣) الفتاوى (٣٥٤/٤) .

وقال ابن كثير : " أكثر ما توجد هذه المسألة في كتب المتكلمين والخلاف فيها مع المعتزلة ومن وافقهم " قال : " أقدم كلام رأيته في هذه المسألة ما ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخه في ترجمة أمية بن سعيد بن العاص أنه حضر مجلسا لعمر بن عبد العزيز وعنده جماعة فقال عمر : ما أحد أكرم على الله من كريم بنى آدم " . وذكر بقية الواقعة وفيها معارضة أحد هم بتفضيل الملائكة واستدلال كل .^(١)

ولقد نزع جماعة من أهل العلم إلى أن هذه من فضول المسائل ، وقال شارح الطحاوية : " وكنت ترددت في الكلام على هذه المسألة لقلة ثمرتها وأنها قريب مما لا يعنى ومن حسن اسلام المرء تركه ملا يحنيه " .^(٢) وقال : " وحاصل الكلام أن هذه المسألة من فضول المسائل ولهذا لم يتعرض لها كثير من أهل الأصول " .^(٣)

(١) البداية والنهاية (٥٤/١) وانظر : الخبر الذي ذكره ابن كثير في تهذيب تاريخ دمشق (١٣٦/٣) .

(٢) شرح الطحاوية (ص ٢٧٨) .

(٣) شرح الطحاوية (ص ٢٨٨) .

ونقل عن تاج الدين الفزاري^(١) من كتاب له في تفضيل البشر على الملك ما نصه : " اعلم أن هذه المسألة من بدع علم الكلام التي لم يتكلم فيها الصدر الأول من الأمة ولا من بعدهم من أعلام الأئمة ، ولا يتوقف عليها أصل من أصول العقائد ولا يتعلق بها من الأمور الدينية كبير من المقاصد ، ولهذا خلا عنها طائفة من مصنفات هذا الشأن ، وامتنع من الكلام فيها جماعة ممن الأعيان ، وكل متكلم فيها من علماء الظاهر بعلمه لم يخل كلامه من ضعف واضطراب .^(١)

ولم تكن المسألة عند السلف موضع نظر وأخذ ورد ولم تكن لهم بها عناية فائقة بحيث ينصبونها موضوعا للنظر والاستدلال ولم يقع بينهم فيها كلام وخلاف ، وقد رويت عن الصحابة أحاديث موقوفة ومرفوعة فيها ذكر

(١) شرح الطحاوية (ص ٢٢٩) .

(أ) هو : عبد الرحمن بن ابراهيم بن سباع الفزاري ، تاج الدين الفركاح فقيه شافعي ، قال ابن العماد في ترجمته : قال الذهبي : فقيه الشام درس وناظر وصنف وانتبهت اليه رئاسة المذهب في الدنيا كما انتهت الي ولده برهان الدين ، وكان من أذكيا العالم ومن بلغ رتبة الاجتهاد ومحاسنه كثيرة وهو أجل ممن ينه عليه مثلي " توفي في ٦٩٠ هـ .

انظر : طبقات السبكي (٦٠ / ٥) وعذرات الذهب (٤١٣ / ٥ - ٤١٤)

لهذه المسألة في بعضها تفضيل المؤمن على الملائكة وبعضها تفضيل
 المؤمن على بعض الملائكة وبعضها تفضيل بنى آدم على الملائكة ولكنهم
 أحاديث إما ضعيفة أو موضوعة مثل حديث : " المؤمن أكرم على الله
 عز وجل من بعض الملائكة " (١) وحديث : " ان الملائكة قالت : يا ربنا
 أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك
 ولا نأكل ولا نشرب ولا نلبس فكلما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة فقال :
 لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان " (٢)

(١) أخرجه ابن ماجه (١٣٠٢/٢) وهو من زوائد ابن ماجه قال فيه
 البوصيرى في مصباح الزجاجة (٢٨٨/٢) : " هذا اسناد ضعيف
 لضعف يزيد بن أبي سفيان " قال فيه ابن حجر في التقریب
 (٤٧٨/٢) : " متروك " وقال الهيثمى في المجمع (٨٢/١) :
 " رواه الطبرانى في الأوسط وفيه أبو المهزم وهو متروك " ،
 وقد ذكر ابن تيمية الحديث في الفتاوى (٣٦٥/٤) بسند ابن ماجه
 بلفظ " المؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده " فلا أدري
 أرواية هي أم خطأ في النقل . والله أعلم .

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (٤٦٩/٢) وفي سنده مجهول
 وآخر لا تعرف له ترجمة ، وقال الهيثمى في المجمع (٨٢/١) :
 " رواه الطبرانى في الكبير والأوسط وفيه ابراهيم بن عبد الله بن
 خالد المصيصى وهو كذاب متروك وفي سنده الأوسط طلحة بن زيد
 وهو كذاب " .

وحدیث : " ما من شیء أكرم على الله يوم القيامة من بنى آدم قيل يا رسول الله
ولا الملائكة ؟ قال : ولا الملائكة ان الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس
والقمر " (١) وكلها ضعيف وموضوع .

وقال ابن تيمية بعد ذكر بعض هذه الأحاديث : " وأقل ما فى
هذه الآثار أن السلف الأولين كانوا يتناقلون بينهم أن صالح البشر أفضل
من الملائكة من غير تكبر منهم لذلك ، ولم يخالف أحد منهم فى ذلك ، انما
ظهر الخلاف بعد تشتت الأهواء بأهلها وخرق الآراء فقد كان ذلك المستقر
عندهم " (٢) وقال : " قد كان السلف يحد ثون الأحاديث المتضمنة فضل
صالح البشر على الملائكة وتروى على رؤوس الناس ولو كان هذا منكرا لأنكروه
فدل على اعتقادهم ذلك " (٣) .

(١) قال الهيثمى فى المجمع (٨٢/١) : " رواه الطبرانى فى الكبير
وفيه عبد الله بن تمام وهو ضعيف " وأخرجه الخطيب البغدادى فى
تاريخ بغداد (٤٥/٤) وفيه عبد الله بن تمام . وقال ابن
الجوزى : " هذا حديث لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " .
انظر : العلل المتناهية (٣٠٤/١) .

(٢) الفتاوى (٣٦٩/٤ - ٣٧٠) .

(٣) الفتاوى (٣٧١/٤) .

وقد جاء عن الامام أحمد أنه كان يفضل صالح المؤمنين على الملائكة ويخطئ من يفضل الملائكة على بنى آدم .^(١)

وقد فصل ابن تيمية في هذه المسألة تفصيلا طويلا قرر فيه مذهب أهل السنة تفضيل صالح البشر على الملائكة ،^(٢) ونقل عنه ابن القيم :
" أنه سئل عن صالح بنى آدم والملائكة أيهما أفضل ، فأجاب بأن صالح البشر أفضل باعتبار كمال النهاية والملائكة أفضل باعتبار البداية ، فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلى منزحين عما يلبسه بنو آدم مستغرقون في عبادة الرب ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة فيصير حال صالح البشر أكمل من حال الملائكة " قال : " وبهذا التفضيل يتبين سر التفضيل وتتفق أدلة الفريقين ويصالح كل منهم على حقه " .^(٣)

وانا اذا اعتمدنا ما قد تقرر في التصعيد أول هذا الفصل من أن مقياس التفاضل في الشرع العبودية وأن الأفضل هو الأكمل عبودية لله ظهر أن الأنبياء وصالح البشر أفضل من الملائكة لأنهم أكمل عبودية لله منهم

(١) طبقات الحنابلة (٢/٢٢٩ و ٣٠٦) .

(٢) استغرق في الجزء الرابع من (ص ٣٥٠ الى ص ٣٩٢) .

(٣) بدائع الفوائد (٣/١٦٣) .

فان عبادة من حقق العبادة مع امكان المعصية منه وقد رتب عليها أكمل من
 عبادة من حققها مع عدم امكان المعصية منه ولا قدرة له عليها ، وهذا
 المأخذ يكون للمسألة ثمرتها ويتعلق بها من الأمور الدينية كبير من المقاصد
 ذلك أن العبد اذا علم أن تحقيقه العبودية لله يرضع به في الفضل على
 منزلة الملائكة مع فضلهم وعلو منزلتهم ازداد ايمانا وقوي وانع التعبد منه
 ووقف على عظيم فضل التوحيد واستشعر ذلك استشعارا يزيد به سعيا لتحقيق
 العبودية لله . والأولى أن تفاضل بين الملائكة والبشر الا من هذا الوجه
 أما ان اتسع المقال وخرج من حده هذا الى النظر في حقيقة كل من النوعين
 في خلقه ومكان معيشته ونحو ذلك وفي خصائص كل نوع التي لا يشاركه فيها
 النوع الآخر ، فهذه مفاضلة بين خصائص كل نوع وما ثبت لكل من الفضائل ،
 ولقد تقدم مرارا أن ثبوت فضيلة وخصيصة لشيء لا تستلزم تفضيله مطلقا
 وفاية ما نستطيع أن نقوله أن هذه الخصيصة أفضل من تلك من غير أن يستلزم
 ذلك أن يكون من ثبتت له الخصيصة الفاضلة أفضل من الآخر ، والله أعلم .
 وثمة أمر يجب ذكره وهو أن ثبوت التفاضل بين الملائكة والبشر دليل
 ثبوت التفاضل بين المؤمنين في الايمان وفيه رد على المرجئة النافين ذلك .

المبحث الرابع تفاضل العبادات

العبادات متفاضلة بعضها أفضل من بعض ، ومن أدلة تفاضلها قوله صلى الله عليه وسلم وقد سئل : أى الأعمال أفضل ؟ قال : " إيمان بالله ورسوله " قيل : ثم ماذا ؟ قال : " الجهاد فى سبيل الله " قيل : ثم ماذا ؟ قال : " حج مبرور " ^(١) ، وسأله عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : أى الأعمال أحب الى الله ؟ قال : " الصلاة على وقتها " قال : ثم أى ؟ قال : " ثم بر الوالدين " قال : ثم أى ؟ قال : " ثم الجهاد فى سبيل الله " ، قال ابن مسعود : حدثني بهن ولو استزده لزده . ^(٢) وسأله رجل : أى الاسلام خير ؟ قال : " تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف " ^(٣) وقالوا له صلى الله عليه وسلم : أى الاسلام أفضل ؟ قال : " من سلم المسلمين من لسانه ويده " ^(٤) .

-
- (١) متفق عليه البخارى مع الفتح (٧٢/١) ومسلم (٨٨/١) .
 - (٢) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٩/٢) ومسلم (٩٠/١) .
 - (٣) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٥٥/١) ومسلم (٦٥/١) .
 - (٤) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٥٤/١) ومسلم (٦٦/١) .

فهذه الأحاديث وأمثالها فيها دلالة ظاهرة على تفاضل العبادات
وأن بعضها أفضل من بعض ، ويلاحظ في هذه الأحاديث وأمثالها أن الأجوبة
مختلفة مع أن السؤال واحد وهو عن أفضل الأعمال، وقد أجاب العلماء من
هذا بأجوبة :

قال ابن حجر : " ومحصل ما أجاب به العلماء عن هذا الحديث
وغيره ما اختلفت فيه الأجوبة بأنه أفضل الأعمال: أن الجواب اختلف باختلاف
أحوال السائلين بأن أعلم كل قوم بما يحتاجون إليه أو بما لهم فيه رغبة أو بما
هو لائق بهم ، أو كان الاختلاف باختلاف الأوقات بأن يكون العمل نفس
ذلك الوقت أفضل منه في غيره ، فقد كان الجهاد في ابتداء الإسلام أفضل
الأعمال لأنه الوسيلة إلى القيام بها والتكمن من أدائها ، وقد تضافرت
النصوص على أن الصلاة أفضل من الصدقة ومع ذلك ففي وقت مواساة المضطر
تكون الصدقة أفضل ، أو أن (أفضل) ليست على بابها بل المراد بها
الفضل المطلق ، أو المراد من أفضل الأعمال فحذفت من وهي مراده " (١)
ويظهر في هذه الأجوبة بعض وجوه التفاضل بين العبادات ، ولعله
بالإمكان أن نحصر تفاضل العبادات في جهتين :

(١) فتح الباري (٩/٢) .

الأولى : جهة العبادة نفسها .

الثانية : جهة العابد .

أما تفضل العبادة من جهتها نفسها فيظهر في وجوه متعددة منها :

١ - تفاضلها من حيث الوجوب والاستحباب ، وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى : " ما تقرب الى عبدي بشئ أحب الي مما افترضته عليه " ^(١) فهذا دليل على أن الفرائض أفضل من النوافل لأنها أحب الأعمال الى الله ، وقد نقل ابن حجر عن بعض العلماء في بيان بعض وجوه فضل الفرائض على النوافل ما حاصله : أن الأمر بالفرائض جازم أما بالنوافل على سبيل الترفيع والاستحباب ، وأن الفرائض يقع بتركها المعاقبة بخلاف النوافل ، وأن الفرض كالأصل والأس والنفل كالفرع والبناء ، وأن أداء الفرائض قد يقع تخوفا من العقوبة أما النفل فلا يقع الا رغبة في الثواب ^(٢) وقد تقدم في التمهيد لهذا الفصل ذكر اتفاق العلماء على أن الواجب أفضل من السنة الا في مواضع ثلاثة أو أربعة السنة فيها أفضل من الواجب ، وهي : ابتداء السلام فانه أفضل من رده مع أن الابتداء

(١) سبق تخريجه وهو في البخارى . انظر هذا الباب (٢٨٦/١) (

(٢) انظر : فتح البارى (٣٤٣/١١) .

سنة والرد واجب ، وابرأؤ المعسر أفضل من انظاره مع أن الابراء سنة
والانظار واجب ، والتطهر قبل الوقت سنة وهو أفضل من التطهر عند دخول
الوقت وهو واجب ، والختان قبل البلوغ سنة وبالبلوغ يجب والأول أفضل
هذا ما ذكر عن العلماء أنهم استثنوه من عموم تفضيل الغرض على النفل .

٢ - تفاضلها من حيث تفاضل الأزمنة ، وهذا نحو قوله —
صلى الله عليه وسلم : " ان عمرة في رمضان تقضى حجة معي " ^(١) ففي هذا
الحديث تفضيل العمرة في زمن خاص وهو رمضان على العمرة في غيره من
الأزمنة .

٣ - تفاضلها من حيث تفاضل الأماكن ، وهذا نحو قوله —
صلى الله عليه وسلم : " صلاة في مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما
سواه الا المسجد الحرام " ^(٢) فهذا صريح في أن الصلاة في هذين
المكانين أفضل من الصلاة في غيرها من بقية المساجد . الى غير ذلك من
وجوه تفاضل العبادات من هذه الجهة ، جهة العبادات نفسها ، أما
تفاضلها من جهة العابد فوجهه اختلاف احوال العابدين ، فمن ذلك

(١) أخرجه البخارى الصحيح مع الفتح (٢٢/٤) .

(٢) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٦٣/٣) ومسلم (١٠١٢/٢)

تفاضل صلاة الصلّى بحسب قيامه وقعوده قال صلى الله عليه وسلم : " من صلى قائما فهو أفضل ومن صلى قاعدا فله نصف أجر القائم " ^(١) وهذا يدل على أن من صلى قائما — سواء للعذر إذا كانت الصلاة فريضة أو للجواز إذا كانت الصلاة نافلة — كانت عبادته أفضل لحاله هذا من عبادة من صلى قاعدا .

ومن ذلك تفاضل الصلاة بحسب الاجتماع والانفراد ، قال صلى الله عليه وسلم : " صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة " ^(٢) ومن ذلك تفاضل الصلاة بحسب الضاوت في مقدار الخطى اليها قال صلى الله عليه وسلم : " أعظم الناس أجرا في الصلاة أبعدهم اليها متى فأبعدهم " ^(٣) .

ومن ذلك تفاضل الصدقة بحسب الأمل في الحياة وعدمه ، جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أى الصدقة أعظم أجرا ؟ قال : " ان تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى (وفي لفظ : وتأمل البقاء) ولا تمهل حتى اذا بلغت الحلقوم

(١) أخرجه البخارى ، الصحيح مع الفتح (٥٨٦/٢) .

(٢) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (١٣١/٢) ومسلم (٤٥٠/١) .

(٣) متفق عليه ، وهذا لفظ مسلم ، البخارى مع الفتح (٣٧/٢) .
ومسلم (٤٦٠/١) .

قلت : لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان " . (١)

وقد رأينا في أجوبة العلماء على اختلاف جواب النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث للسائلين عن أفضل العمل أن ذلك كان لاختلاف أحوال السائلين وأنه صلى الله عليه وسلم أعلم كل قوم بما يحتاجون إليه أو بما لهم فيه رغبة أو بما هو لائق بهم .

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن الناس في أفضل العبادة وأنفعها أربعة أصناف : قال : " الصنف الأول : عندهم أنفع العبادات وأفضلها أشقها على النفوس وأصعبها " قال : " وهؤلاء هم أهل المجاهدات والجور على النفوس " .

قال : " الصنف الثاني : قالوا أفضل العبادات التجرد والزهد في الدنيا والتقلل منها غاية الامكان وإطراح الاهتمام بها وعدم الاكتراث بكل ما هو فيها " ثم قسم هؤلاء إلى أقسام .

قال : " الصنف الثالث : رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعدد ، فأروه أفضل من ذي النفع القاصر " . قال : " قالوا ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب " .

(١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٢٨٥/٣) ومسلم

• (٧١٦/٢)

قال : " الصنف الرابع : قالوا ان أفضل العبادة العمل على
مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته*، ومثل له بأمثلة
منها : " الأفضل في وقت الوقوف بعرفة الاجتهاد في التضرع والدعاء
والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك " ومنها : الأفضل في العشر الأخير
من رمضان لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس
والاشتغال بهم " .

وقد ذكر رحمه الله طرفا من أدلة كل ، وما الى ترجيح الصنف
الرابع وقال فيهم : " وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق والأصناف قبلهم
أهل التعبد المقيد ، فمضى خرج أحد هم من النوع الذي تعلق به مـ
العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته فهو يعبد الله على وجه
واحد وصاحب التعبد المطلق ليس له فرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره
بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت فمدار تعبده عليها ، فهو
لا يزال متنقلا في منازل العبودية ، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره اليها
واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره
فان رأيت العلماء رأيت معهم وان رأيت العباد رأيت معهم وان رأيت
المجاهدين معهم " الى آخر كلامه رحمه الله .^(١)

(١) مدارج السالكين (١/ ٨٥ - ٩٠) .

المبحث الخامس تفاضل الأزمنة والأمكنة

بين الأمكنة تفاضل وكذا بين الأزمنة، وتفاضل الأزمنة والأمكنة لا لمعنى فيها اقتضى ذلك ولكن لما تعلق بها مما خصت به من العبادات كرمضان بالصوم والمساجد الثلاثة بعد الرحال ، أو خصت به من تعظيم ثواب العمل فيها كالعمل فى عشر ذى الحجة والصلاة فى المسجد الحرام ، وقد تقدم التنبيه الى هذا فى تمهيد هذا الفصل .

قال ابن القيم : * نفس البقاع واحدة بالذات ليس لبقعة على بقعة مزية البتة وإنما هو لما يقع فيها من الأعمال الصالحة فلا مزية لبقعة البيت والمسجد الحرام ومنى وعرفة والمشار على أى بقعة سميتها فى الأرض وإنما التفضيل باعتبار أمر خارج عن البقعة لا يعود اليها ولا الى وصف قائم بها . (١)

وتفاضل الأزمنة تفاضل قرون وتفاضل شهور وتفاضل أيام وتفاضل ليال وتفاضل ساعات .

أما تفاضل القرون فكما تقدم ذكر فضل قرنه صلى الله عليه وسلم

(١) زاد المعاد (١/٥٢) .

على سائر قرون بنى آدم وفضل القرنين أو الثلاث بعده ، كما سبق بيانه
بأدلة .

وأما تفاضل الشهور ففضل شهر رمضان على سائر شهور السنة
قال سبحانه يمدح شهر الصيام ويبين سبحانه شيئا مما اختص به من بين
سائر الشهور من انزال القرآن العظيم فيه وإيجاب الصوم فيه : ((شهر
رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن
شهد منكم الشهر فليصمه)) (البقرة - ١٨٥) .

ومن وجوه تفضيل شهر رمضان أن فيه ليلة هى بمفردها خير من ألف
شهر وهى ليلة القدر كما قال تعالى : ((ليلة القدر خير من ألف شهر))
ومع انضمام فضل بقية ليالى رمضان يكون رمضان خيرا من شهور السنة .

وأيا كفضل الأشهر الحرم قال سبحانه : ((ان عدة الشهور عند
الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة
حرم)) (التوبة - ٣٦) .

وهذه الأشهر الحرم بينها النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله :
" السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات : ذو القعدة
وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان " (١)

(١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٨ / ١٠٩ ، ٦٠ / ٢٩٣) . ومسلم
(٣ / ١٣٠٥) .

ووجه تفضيل هذه الأشهر هو كون الحرمات فيها أشد تعظيما منها في غيرها
فتعظيم الطاعات وتعظيم انتهاك المحارم فيها أشد من تعظيمه في غيرها (١)
وقد قال صلى الله عليه وسلم : " أفضل الصيام بعد رمضان : شهر الله
المحرم " (٢) فهذا شاهد على تعظيم الطاعات فيها .

وأما تفاضل الأيام فكفضل أيام عشر ذي الحجة ، قال صلى الله
عليه وسلم : " ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام
العشر " فقالوا : يا رسول الله : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ولا الجهاد في سبيل الله ، إلا رجل
خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشئ " . (٣) ففي هذا الحديث
أن أيام عشر ذي الحجة أفضل من غيرها من أيام السنة ، ووجه فضلها أن
العمل الصالح إذا وقع فيها فهو أحب إلى الله تعالى من نفسه إذا وقع
في غيرها .

(١) انظر زاد المسير (٤٣٢/٣) .

(٢) أخرجه مسلم (٨٢١/٢) .

(٣) أخرجه الترمذی (١٣٠/٣) وأبو داود (٣٢٥/٢) وابن ماجه

(٥٥٠/١) .

وأفضل أيام العشر اليوم الذى سماء الله يوم الحج الأكبر ، وقد

اختلفت فى تعيينه الأقوال اذ قيل هو يوم عرفة وقيل هو يوم النحر .^(١)

ورجح ابن جرير كونه يوم النحر وأقام دلائل ذلك^(٢) وهو الأرجح

لحديث ابن عمر رضى الله عنهما قال : " وقف النبي صلى الله عليه وسلم

يوم النحر بين الجمرات التى حج بهذا ، وقال : هذا يوم الحج الأكبر^(٣)

وقال ابن القيم : " والقرآن قد صرح بأن الأذان يوم الحج الأكبر ،

ولا خلاف أن النداء بذلك إنما وقع يوم النحر بمعنى ، فهذا دليل قاطع على

أن يوم الحج الأكبر يوم النحر " .^(٤)

وقد ورد فى يوم عرفة فضائل اخص بها فقد قال صلى الله عليه وسلم :

" ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة ، وإنه ليدنو

(١) انظر : تفسير الطبرى (٤٩/١٠ - ٥٤) وزاد المسير (٣٩٦/٣)

والدر المنثور (٢١١/٣) .

(٢) تفسير الطبرى (٥٣/١٠) .

(٣) أخرجه البخارى تعليقا ، البخارى مع الفتح (٥٢٤/٣) ووصله

أبو داود (١٩٥/٢) وابن ماجه (١٠١٦/٢) وانظر

تغليق التعليق (١٠٤/٣ - ١٠٥) وصحيح سنن أبى داود

لاللبانى (٣٦٢/١) .

(٤) تهذيب السنن - بهامش المختصر - (٤٠٦/٢) .

ثم يباهى بهم الملائكة ، فيقول : ما أراد هؤلاء ؟ ^(١) وقال صلى الله عليه وسلم : " صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله والسنة التي بعده " ^(٢)

والحاصل أن عشر ذي الحجة أفضل أيام السنة وأفضلها يومي النحر وعرفة .

ويوم الجمعة أيضا يوم فاضل قال فيه صلى الله عليه وسلم : " خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه ادخل الجنة وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة الا في يوم الجمعة " ^(٣) فهذا دليل على فضله وبيان لوجه هذا الفضل ، ولا يعنى قوله صلى الله عليه وسلم أن يوم الجمعة خير يوم طلعت عليه الشمس أنه أفضل من أيام العشر ، فان كل يوم من أيام العشر أفضل من غيره من أيام السنة سواء كان يوم الجمعة أم لا ولكن يوم الجمعة في العشر أفضل من الجمعة في غيرها لاجتماع الفضلين فيه . ^(٤)

ويوم عاشوراء أيضا يوم فاضل قال صلى الله عليه وسلم :

-
- (١) أخرجه مسلم (٩٨٣/٢) .
(٢) مسلم (٨١٩/٢) .
(٣) مسلم (٥٨٥/٢) .
(٤) انظر فتح الباري (٤٦٠/٢) .

” صيام يوم عاشوراء احتسب على الله أن يكفر السنة التي قبلها ” .^(١) فهذه

فضيلة هذا اليوم على غيره من الأيام .

وأما تفاضل الليالي ، كفضل ليلة القدر التي قال الله فيها :
:

((وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر)) (القدر

٢ - ٣) وبين سبحانه وتعالى أوجه فضلها في قوله : ((انا أنزلناه في

ليلة القدر)) (القدر - ١) ففي هذه الليلة أنزل القرآن وهي الليلة

المباركة التي قال فيها سبحانه : ((انا أنزلناه في ليلة مباركة))

(الدخان - ٣) وقال سبحانه : ((تنزل الملائكة والروح فيها بإذن

ربهم من كل أمر)) (القدر - ٤) وقال : ((فيها يفرق كل أمر حكيم))

(الدخان - ٤) فهي ليلة يكثر فيها تنزل الملائكة لكثرة بركاتها وفيها

يُفَصَّل من اللوح المحفوظ الى الملائكة أمر السنة وما يكون فيها من الآجال

والأرزاق وما يكون فيها الى آخرها .^(٢) وقال سبحانه : ((سلام هي حتى

مطلع الفجر)) (القدر - ٥) فهي خير كلها ليس فيها شر الى مطلع

الشمس .^(٣)

(١) مسلم (٨١٩/٢) .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير (٤/١٣٨ و ٥٣٢) .

(٣) تفسير ابن كثير (٤/٥٣٢) .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : " من قام ليلة القدر ايماناً واحتساباً

ففر له ما تقدم من ذنبه " .^(١) وأمر صلى الله عليه وسلم بتحريمها فقال :

" تحروا ليلة القدر " ^(٢) وكذا باقى ليالى العشر الأواخر من شهر رمضان

كلها ليال فاضلة مفضلة على غيرها من الليالى وأفضلها ليلة القدر .

قالت عائشة رضى الله عنها : " كان النبى صلى الله عليه وسلم

إذا دخل العشر شد مفرزه وأحيا ليله وأيقظ أهله " ^(٣) وقالت : " كان

رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتهد فى رمضان مالا يجتهد فى غيره ،

وفى العشر الأواخر منه مالا يجتهد فى غيره " .^(٤)

وهكذا يتضح من النصوص السابقة أن الأزمنة متفاضلة وأن تفاضلها

لما وقع فيها من الفضائل وما يكون للعمل فيها من فضل الثواب مما لا يكون

للعمل فى غيرها ، فعلى المؤمن ألا يعتقد فضل زمن على آخر لذاته أو

لمعنى فيه بل تفاضلها لما ذكر من وجوه الفضل فتعظيم هذه الأزمنة إنما يكون

فى استغلالها بالطاعات والاجتهاد فيها لا بغير ذلك .

(١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٢٥٥/٤) ومسلم (٥٢٣/١) .

(٢) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٢٥٩/٤) ومسلم (٨٢٣/٢) .

(٣) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٢٦٩/٤) ومسلم (٨٣٢/٢) .

(٤) مسلم (٨٣٢/٢) .

وكما تتفاضل الأزمنة ، تتفاضل الأمكنة أيضا ، وقد قال
 صلى الله عليه وسلم : " أحب البلاد الى الله مساجدها ، وأبغض البلاد
 الى الله أسواقها " ^(١) وهو دليل على تفاضل الأمكنة وأن تفاضلها لا لشيء
 في ذاتها بل لما تُهيأ له وتستعمل فيه/ فان فضل المساجد لكونها بيوت
 الطاعات وأساسها على التقوى وهي محل ذكر الله وتعبد به لا تكون الا لذلك
 لا لشيء سوى الطاعة البتة . أما الأسواق فانها محل الغش والخداع والربا
 والأيمان الكاذبة واخلاف الوعد والاعراض عن ذكر الله وغير ذلك مما فى
 معناه ^(٢) وعليه فانه كلما كان ما تعلق بالأمكنة أو اخصت به أحب الى الله
 كلما كان المكان أفضل من غيره .

وأفضل بقاع الأرض مكة المكرمة والمدينة المنورة ، فقد قال صلى الله
 عليه وسلم فى مكة يوم الفتح : " ان هذا البلد حرمة الله يوم خلق السموات
 والأرض وهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة ، وانه لم يحل القتال فيه لأحد
 قبلى ولم يحل لى الا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة
 لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته الا من عرفها ولا يختل
 خلاها " . قال العباس : يا رسول الله الا الاذخر فانه لقينهم ولبيوتهم

(١) مسلم (٤٦٤/١) .

(٢) انظر : شرح النووى لمسلم (١٧١/٥) .

قال : قال : " الا الاذخر " ^(١) وقال صلى الله عليه وسلم : " وان الله حبس من مكة الغيل وسلط عليها رسوله والمؤمنون فانها لا تحل لأحد كان قبلي وانها احلت لي ساعة من نهار ، وانها لا تحل لأحد بعدى فلا ينفّر صيدها ولا يختلي شوكتها ولا تحل ساقطتها الا لعنشد ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين : اما أن يفدى واما أن يقيد " ^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم : " ان مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس " ^(٣) وقال صلى الله عليه وسلم : " لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح " ^(٤) .

فهذه الأحاديث ظاهرة في خصائص مكة المكرمة التي اخصت بها من وجوه الفضل والتفضيل فهي بلد محرم حرمه الله ولم يحرمه الناس وانها ما زالت محرمة من يوم خلق الله السموات والأرض والى يوم القيامة وأن القتال والقتل فيها محرم وأنه لا يقطع شجرها ولا ينفّر صيدها ولا يلمظ لقطتها الا من أورد تعريفها فقط ونحو ذلك من الأحكام التي تضمنتها الأحاديث مما يدل على شرف مكة وفضلها .

-
- (١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٤٦/٤) ومسلم (٩٨٦/٢) .
 - (٢) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٨٧/٥) ومسلم (٩٨٨/٢) .
 - (٣) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٤١/٤) ومسلم (٩٨٧/٢) .
 - (٤) رواه مسلم (٩٨٩/٢) .

وكذا ثبت في المدينة المنورة من الخصائص والفضائل ما يدل على فضلها فقد حرمها النبي صلى الله عليه وسلم ودعا لها بالبركة ورفب فـسـى سكناها وأخبر عن صيانتها من دخول الطاعون والدجال اليها ، وأخبر أنها تنفى شرارها ونحو ذلك مما ثبت في المدينة من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ، ففي شأن تحريمها قال صلى الله عليه وسلم : " ان ابراهيم حرم مكة ودعا لها ، وحرمت المدينة كما حرم ابراهيم مكة ودعوت لها فسـى مدها وصاعها مثل ما دعا ابراهيم عليه السلام لمكة " (١) وقال صلى الله عليه وسلم : " اللهم انى احرم ما بين جبلين مثل ما حرم ابراهيم مكة اللهم بارك لهم فى مدهم وصاعهم " (٢) وفى صحيفة علي رضى الله عنه : " المدينة حرم من غير الى كذا ، فمن أحدث فيها حدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا " (٣) وقال صلى الله عليه وسلم : " اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما جعلت بمكة من البركة " (٤)

-
- (١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٣٦٤/٤) ومسلم (٩٩٠/٢) .
(٢) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٥٥٤/٩) ومسلم (٩٩٣/٢) .
(٣) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٢٧٥/١٣) ومسلم (٩٩٥/٢) .
(٤) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٩٦/٤) ومسلم (٩٩٤/٢) .

وفى الترغيب فى سكنى المدينة يقول صلى الله عليه وسلم : " لا يصبر على لأواء المدينة وشذتها أحد من أمتى الا كنت له شفيعا يوم القيامة أو شهيدا " (١) وقال صلى الله عليه وسلم : " من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فاني أشفع لمن يموت بها " . (٢)

وأما صيانتها من الطاعون والدجال فقد قال صلى الله عليه وسلم :
 " على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال " (٣) وأما
 نفيها الخبث فقد قال صلى الله عليه وسلم : " أمرت بقربة تأكل القرى يقولون يشرب ، وهى المدينة تنفى الناس كما ينفى الكبر خبث الحديد " (٤)
 وقال صلى الله عليه وسلم : " انما المدينة كالكبر تنفى خبثها وينصع طيبها " (٥)

-
- (١) أخرجه مسلم (١٠٠٤ / ٢) .
 (٢) أخرجه أحمد (٧٤ / ٢ ، ١٠٤) والترمذى (٦٧٦ / ٥) وابن ماجه (١٠٣٩ / ٢) وابن حبان - الاحسان (٢١ / ٦) وهو صحيح كما فى الجامع الصغير (١٦٣ / ٢) وصحيح الجامع (٢٣٩ / ٥) وتخريج احاديث المشكاة (٨٣٩ / ٢) .
 (٣) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٩٥ / ٤) ومسلم (١٠٠٦ / ٢) .
 (٤) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٨٧ / ٤) ومسلم (١٠٠٦ / ٢) .
 (٥) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٢٠١ / ١٣) ومسلم (١٠٠٦ / ٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم فيمن أراد المدينة وأهلها بسوء : " لا يكيد
أهل المدينة أحد الا انماع كما ينماع الملح في الماء " .^(١)

وهذه وغيرها أدلة ظاهرة على فضل المدينة المنورة ، ولقد أجمع
العلماء بلا خلاف بينهم على أن مكة والمدينة أفضل الأرض^(٢) ولكن نُقل بعض
الخلاف في المفاضلة بينها وقد ذهب عامة أهل العلم وجمهور الفقهاء الى
أن مكة أفضل من المدينة ونقل هذا القول عن عمر بن الخطاب وعلى وابن
مسعود وأبو الدرداء وابن عمر وجابر وأبو هريرة وابن الزبير وعبد الله بن
عديس وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم .

وذهب المالكيون والمنيون وبعض البغداديين والبصريين الى أن
المدينة أفضل من مكة وروي عن ابن عمر^(٣) وقال ابن عبد البر : " قد روى مالك
ما يدل على أن مكة أفضل الأرض كلها ولكن المشهور عن أصحابه في مذهبه
تفضيل المدينة " .^(٤)

(١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٩٤/٤) ومسلم (١٠٠٨/٢) .

(٢) انظر : الجامع (٣٤٣) والحجج المبينة (٣٧) .

(٣) انظر : التمهيد (١٨/٦) والشفاء (٩٠/٢) والجامع

(٣٤٣) .

(٤) التمهيد (٢٨٩/٢) .

وذكر ابن حجر أن تفضيل مكة على المدينة حكي عن مالك ^(١) .

وقال الباجي : " ذهب مالك الى أن سكنى المدينة أفضل " ^(٢)

ولا يلزم من هذا أن مالكا يقول بتفضيل المدينة على مكة .

والقول الفصل في المسألة ما قاله ابن عبد البر رحمه الله : " المواضع

كلها والبقاع أرض الله فلا يجوز أن يفضل منها شيء على شيء إلا بخبر

يجب التسليم له " قال : " واني لأعجب ممن يترك قول رسول الله

صلى الله عليه وسلم اذ وقف بمكة على الحزرة وقيل على الحجون وقال :

والله اني لأعلم انك خير أرض الله وأحبها الى الله ولولا أن أهلك

أخرجوني منك ما خرجت ^(٣) وهذا حديث صحيح " . قال : " فكيف يترك

(١) فتح الباري (٦٧/٣) .

(٢) المنتقى (١٩٧/٧) .

(٣) أخرجه أحمد (٣٠٥/٤) والترمذي (٦٧٩/٥) وقال : حسن قريب

صحيح ، وابن ماجه (١٠٣٧/٢) والدارمي (٢٣٩/٢) وابن حبان

— الاحسان (٩/٦) — والحاكم (٧/٣) وقال : صحيح على شرط

الشيخين ، ووافقه الذهبي ، وصححه ابن عبد البر كما ترى وقال

في (٣٢/٦) من التمهيد بعد ذكر الحديث بسنده " وهذا من

أصح الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم " ، وقال الألباني فـ

تخريج المشكاة (٨٣٢/٢) : اسناده صحيح .

مثل هذا النص الثابت ويمال الى تأويل لا يجامع متأوله عليه " .^(١) وليس
 في موضع النزاع حديث صحيح صريح غير هذا فلا ينبغي العدول عنه ، وقد
 استدل من فضل المدينة على مكة بأحاديث ضعيفة وقيل في بعضها موضوع
 ومتأويلات لأحاديث صحيحة ليست نصا في موضع النزاع والتأويلات كما قال^(٢)
 ابن عبد البر : لا يجامع عليها ولا حجة فيها وقد ذكر ابن عبد البر
 رحمه الله أن ما احتج به مفضلوا المدينة على مكة إنما يُحتج به على من أنكر
 فضل المدينة وكرامتها : " وأما من أقر بفضلها وعرف لها موضعها وأقر أنه
 ليس على وجه الأرض أفضل بعد مكة منها فقد أنزلها منزلتها وعرف لها حقها
 واستعمل القول بما جاء من النبي صلى الله عليه وسلم في مكة وفيها ، لأن
 فضائل البلدان لا تدرك بالقياس والاستنباط وإنما سبيلها التوقيف " ،
 وقال رحمه الله : " والآثار في فضل مكة عن السلف أكثر " ^(٣) وقال :
 " فهذا عمر وعلى وابن مسعود وأبو الدرداء وابن عمر وجابر يفضلون مكة
 ومسجدها — وهم أولى بالتقليد ممن بعدهم " .^(٤)

-
- (١) التمهيد (٢٨٨/٢) .
 (٢) انظر : الجامع (٣٤٥ — ٣٤٩) والمحلى لابن حزم (٢٧٩/٢) -
 (٢٩٠) والفتاوى (٣٦/٢٧) .
 (٣) التمهيد (٢٩٠/٢) .
 (٤) التمهيد (٣٤/٦) .

وحاصل القول : أنه لا داعي للمفاضلة بين مكة والمدينة لعدم وجود نص صريح صحيح في المفاضلة بينهما بعينهما وليسعنا ما ورد في النصوص فنثبت ونؤمن لكل منهما بما ثبت من فضائله وخصائصه من غير تعرض للمفاضلة بينهما فان دعوى داع شرعي للمفاضلة بينهما فالصبرورة الى تفضيل مكة لازمة لعموم حديث " والله اني لأعلم أنك خير أرض الله وأحبها الى الله " وهو صحيح صحيح مؤكد بأربعة مؤكدات : القسم وان واللام والجملة الاسمية وليس ثم حديث صحيح ولا صحيح صحيح يفيد تخصيص عمومته وتقييد إطلاقه .

وهاتان البقعتان هما أفضل بقاع الأرض كما قد منا لما خصتا به من الأحكام الشرعية .

وفي كل من المدينتين الفاضلتين بقاع فاضلة . خصت بفضائل تميزها عن بقية بقاع المدينتين كفضل عرفات ومزدلفة ومنى في مكة وقد خص كل منها بمناسك خصت بها في الحج وتشملها حرمة مكة ، ومسجد قبا في المدينة وخص بها جاء في الحديث من أنه صلى الله عليه وسلم كان يأتيه راكبا وماشيا .^(١) وأفضل بقاع المدينتين المسجدين الشريفين

(١) متفق عليه ، البخاري مع الفتح (٦٩/٣) ومسلم (١٠١٦/٢) .

المسجد الحرام بمكة المكرمة والمسجد النبوي في المدينة المنورة ووجهه
 فضلهما بينه صلى الله عليه وسلم في قوله : " صلاة في مسجدي هذا خير
 من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام " (١) وفي رواية بزيادة : " صلاة
 في المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة في هذا - يعني في مسجد
 المدينة - " (٢) وهذا نص أن المسجد الحرام أفضل من مسجد المدينة .
 وهذان المسجدان هما أفضل بقاع الأرض على الإطلاق ثم يليهما في
 الفضيلة المسجد الأقصى ففي الحديث " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة
 مساجد : المسجد الحرام ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ومسجد
 الأقصى " (٣) .

(١) متفق عليه ، البخاري مع الفتح (٦٣/٣) ومسلم (١٠١٢/٢) .
 (٢) أخرجه أحمد (٣٤٣/٣ ، ٣٩٧/٣) والبخاري - كشف الاستار
 (٢١٤/١) - ، وقال الهيثمي في المجمع (٤/٤) : " رجال
 أحمد والبخاري رجال الصحيح " وذكر أن الطبراني أخرجه أيضا
 وابن حبان - الاحسان (٧٣/٣) - وابن ماجه (٤٥١/١)
 بسند صحيح رجاله ثقات كما في مصباح الزجاجة (٢٥٠/١) ،
 والبيهقي في السنن الكبرى (٢٤٦/٥) وذكر المنذري في الترهيب
 والترهيب (٢١٦/٢) ^{أنه أخرجه أحمد في مسنده} وصحح الحديث الألباني في صحيح الجامع
 (٢٥٨/٣) .

(٣) متفق عليه ، البخاري (٦٣/٣) ومسلم (١٠١٤/٢) .

فهذه المساجد تشترك مع غيرها من المساجد في كونها أفضل البقاع لقوله صلى الله عليه وسلم : " أحب البلاد الى الله مساجدها " (١) ثم تنفرد عن سائر المساجد بما خصت به من الأحكام والفضائل ثم تفاضلت لتفاضل خصائصها .

والحاصل أن الأزمنة والأمكنة متفاضلة ، وتفاضلها لا لشيء فـى ذاتها ولكن لما تعلق بها من الفضائل ، وأنه لا يصح اعتقاد فضل زمن على آخر ولا فضل مكان على آخر من غير نص شرعى ، لأن ذلك مآله الى الخبر والتوقيف ، ويتفرع عن عدم صحة اعتقاد فضل زمان أو مكان من غير دليل بطلان ما يترتب عليه من الأعمال ، فاعتقاد فضل مكان لم يرد بتفضيله نص والعمل بمقتضى هذا الاعتقاد الفاسد بتحريمه بالتقرب الى الله فيه باطل ، ولذلك كان اعتقاد فضل القبور واعتقاد أفضلية العبادة عندها وما يترتب على هذا من بناء المشاهد عليها وزيارتها والسفر اليها والتعبد عندها ونحو ذلك مما أفضى الى عبادة القبور والمشاهد من دون الله كله باطل مردود ، فلا يعتد فضل بقعة ولا يعمل بهذا الاعتقاد حتى يقوم الدليل عليه . وكذا لا يصح اعتقاد فضيلة لزمن لم يرد به نص والعمل بهذا الاعتقاد باطل ، كتخصيص يوم المولد النبوى بالعبادة لاعتقاد تخصيصه بهذا الفضل فانه باطل مردود لعدم الدليل عليه البتة ، وعلى ذلك ففس .

(١) تقدم تخريجه ، وهو عند مسلم فى صحيحه .

مسألة : في بعض ما شهد من أقوال في هذا المبحث :

ظن القاضي عياض أن الخلاف الواقع في المفاضلة بين مكة والمدينة أنه في غير قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال اثنا ذكره ذلك الخلاف :
" ولا خلاف أن موضع قبره صلى الله عليه وسلم أفضل بقاع الأرض " (١) فحكاه
اجماعا .

قال ابن تيمية رحمه الله : " وأما التربة التي دفن فيها النبي صلى الله عليه وسلم فلا أعلم أحدا من الناس قال إنها أفضل من المسجد الحرام أو المسجد النبوي أو المسجد الأقصى إلا القاضي عياض فذكر ذلك اجماعا ، وهو قول لم يسبقه إليه أحد فيما علمناه ولا حجة عليه " قال :
" والنصوص الدالة على تفضيل المساجد مطلقة لم يستثن منها قبور الأنبياء ولا قبور الصالحين ولو كان ما ذكره حقا لكان مدفون كل نبي بل وكل صالح أفضل من المساجد التي هي بيوت الله ، فيكون بيوت المخلوقين أفضل من بيوت الخالق التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، وهذا قول مبتدع في الدين مخالف لأصول الاسلام " (٢) وقال رحمه الله : " وما ذكره بعضهم من الإجماع على تفضيل قبر من القبور على المساجد كلها فقول محدث

(١) الشفا (٩١/٢) وانظر الحج المبينة (٤٨) .

(٢) الفتاوى (٣٧/٢٧ - ٣٨) .

فى الاسلام ، لم يعرف عن أحد من السلف ولكن ذكره بعض المتأخرين
 فأخذه عنه آخر وظنه اجماعا لكون أجساد الأنبياء أنفسهم أفضل من المساجد
 فقولهم يعم المؤمنين كلهم فأبدانهم أفضل من كل تراب فى الأرض ولا يلزم من
 كون أبدانهم أفضل أن تكون مساكنهم أحياء وأموات أفضل ، بل قد علم
 بالاضطرار من دينهم أن مساجد هم أفضل من مساكنهم ^(١) وقال :
 " وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أحب
 البقاع الى الله المساجد " فليس فى البقاع أفضل منها وليست مساكن الأنبياء
 لا أحياء ولا أموات بأفضل من المساجد ، هذا هو الثابت بنص الرسول واتفاق
 علماء الأمة ، وما ذكره بعضهم من أن قبور الأنبياء والصالحين أفضل من
 المساجد وأن الدعاء عندها أفضل من الدعاء فى المساجد حتى فى المسجد
 الحرام والمسجد النبوى فقول يعلم بطلانه بالاضطرار من دين الرسول
 ويعلم اجماع علماء الأمة على بطلانه اجماعا ضروريا ^(٢) .
 وأرى أن قول القاضى عياض بتفضيل قبر النبى صلى الله عليه وسلم
 كأنه تخصيص منه لقول من فضل المدينة كلها على مكة لأن النبى صلى الله
 عليه وسلم خلق من تربتها قالوا : ان النبى صلى الله عليه وسلم دفن فى التربة

(١) الفتاوى (٢٦١/٢٧) .

(٢) الفتاوى (٢٦٠/٢٧) .

التي خلق منها وهو أفضل الخلق فهي أفضل البقاع^(١) واحتجوا بأحاديث موضوعة فيها أن الميت يدفن في التربة التي خلق منها^(٢).

والجواب عنها من أربعة أوجه :

الأول : ردها وبطلان الاستدلال بها لشدة ضعف بعضها ووضع البعض الآخر ولم يرق شيء منها إلى درجة الاحتجاج ولا قريباً منها .
الثاني : أن المخلوق من تراب هو آدم أما ذريته فقد خلقت من سلالة من ماء مهين^(٣).

الثالث : ما ذكره ابن تيمية من أنه لو ثبت أن الميت خلق من التراب الذي دفن فيه فإن خلقه من مني أبويه أقرب من خلقه من ذلك التراب ولا يلزم من كون الميت أفضل أن يكون ما منه خلق أفضل والا لصح أن يقال ان بدن عبد الله أبي النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من أهدان الأنبياء ولا يقول هذا أحد^(٤).

(١) انظر : نوادر الأصول (٧٢) ووفاء الوفاء (٣٢/١) .

(٢) انظر : المحلى (٢٨٥/٧ - ٢٨٦) والفتاوى (٢٦١/٢٧) .

(٣) انظر : الفتاوى (٢٦١/٢٧) .

(٤) انظر : الفتاوى (٣٧/٢٧ و ٢٦٢) .

الرابع : أنه إذا قدر أن الميت خلق من تراب القبر فإنه ينبغي

التمييز بين ما صار من ذلك التراب بدنا للميت وما بقى منه تراباً، فإذا ما دفن في قبره وجب التمييز بين ما تحلل من بدن الميت وبين بقية تراب القبر فتكون الفضيلة المزعومة لما تحلل من بدن الميت أما ما بقى من القبر فحكمه حكم أمثاله من سائر التراب . (١)

والحاصل : أن تخصيص مكان أو زمان بفضيلة على غيره حق خالص

لله تعالى لا يشاركه فيه غيره ، فلا يجوز اعتقاد فضل زمان أو مكان إلا بدليل من كتاب الله أو من صحيح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن الباطل اعتقاد فضل زمان أو مكان بلا دليل أو بدليل باطل ، ويعظم بطلان هذا الاعتقاد إذا ترتب عليه تخصيص ذلك المكان أو ذلك الزمان بعبادة لم يشرعها الله كما يفعل من يخصص ليلة النصف من شعبان أو ليلة السابع والعشرين من رجب أو يوم مولد النبي صلى الله عليه وسلم بعبادات لم يرد بها نص بناءً على اعتقاد فضيلة لم تثبت ، والتشريع حق خالص لله لا يشاركه فيه أحد فلا يشرع عبادة إلا الله ولا يخصص زماناً ولا مكاناً بعبادة أو فضيلة إلا الله .

(١) انظر : الفتاوى (٢٦٣/٢٧) .

الفصل الخامس
قفا غفل المؤمنين في الله عزه
وقفاوت أهل النار فيها

الفصل الخامس تفاضل المؤمنين فى الآخرة وتفاوت أهل النار

المبحث الأول : التفاضل فى البرزخ :

المقصود بالبرزخ الحياة فى القبور قبل البعث وسميت هذه الحياة بالبرزخ لأنها واقعة بين الحياتين الدنيا والآخرة والبرزخ فى اللغة الحاجز بين الشيئين ، ومنه قوله تعالى : ((مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان)) (الرحمن ٢٠) أى حاجز بينهما يمنعهما من الاختلاط ^(١) وتسمية الحياة فى القبور حتى البعث برزخا واردة فى كتاب الله ، قال تعالى : ((حتى اذا جاء احدهم الموت قال رب ارجعون . لعلى أعمل صالحا فيما تركت ، كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون)) (المؤمنون ٩٩-١٠٠) قال مجاهد وغيره من أئمة التفسير فى قوله : ((ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون)) قالوا : ما بين الموت الى البعث . ^(٢)

والبرزخ أول منازل الآخرة وان عد حاجزا بينها والدنيا ، فعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " القبر أول منازل الآخرة " . ^(٣)

-
- (١) انظر تهذيب اللغة (٦٢٠/٧) والصحاح (٤١٩/١) .
 - (٢) انظر تفسير الطبرى (٤١/١٨) .
 - (٣) أخرجه ابن ماجه (١٤٢٦/٢) والترمذى (٤٧٩/٤) والحاكم (٣٧١/١) وهو فى المسند من زيادات عبد الله (٣٧١/١) .
- وقال أحمد شاكر فى ترتيب المسند : أسنده صحيح (٤٥٤/١) وصححه الالبانى فى صحيح الجامع (٨٥/٢) .

والمؤمنون يتفاضلون في البرزخ وتتفاوت درجاتهم تفاوتاً عظيماً ،
وأفضلهم درجة في البرزخ الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فأرواح الأنبياء
في أعلى عليين ، في الملأ الأعلى ، ويدل على ذلك حديث الاسراء والمعراج
المخرج في الصحيحين — ومضى ذكر طرف من رواياته فيهما وتخريجه — وفيه
أن النبي صلى الله عليه وسلم التقى بالأنبياء في السموات على اختلاف منازلهم
فيها ، وأنه رأى موسى قائماً يصلي ورأى عيسى قائماً يصلي ورأى إبراهيم قائماً
يصلي ^(١) ورأى إبراهيم سندا ظهره الى البيت المعمور . ^(٢)

وفي أحاديث الاسراء والمعراج دلالتان :

- الأولى : أن الأنبياء أفضل المؤمنين حياة في البرزخ .
- الثانية : أن الأنبياء يتفاضلون في حياتهم البرزخية .

وقد ورد في الأنبياء قوله صلى الله عليه وسلم : " أن الله حرم على
الأرض أجساد الأنبياء " . ^(٣)

ومن تفاضل المؤمنين في البرزخ ما ثبت في فضل الشهداء من قوله

(١) كما روى مسلم في صحيحه (١٥٢/١) .

(٢) كما روى مسلم في صحيحه (١٤٦/١) .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٨/٤) وأبو داود (٢٢٥/١) و ٨٨/٢

وابن ماجه (٣٤٥/١ و ٥٢٤) والنسائي (٩٢/٣) والدارمي

(٢٤/٢) وابن حبان — الاحسان (١٣٢/٢) — والحاكم

(٥٦٠/٤) وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ،

وصحح الحديث الألباني في صحيح الجامع (٢٤٤/٢) وانظر

مختصر المنذرى لسنن أبي داود وتهذيب السنن في هامشه

(١٥٥ — ١٥٤/٢) .

صلى الله عليه وسلم لما سئل عن قوله تعالى : ((ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون)) (آل عمران ٦٩) فقال صلى الله عليه وسلم : " ارواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى الى تلك القناديل فاطلع اليهم ربهم اطلاعة فقال : هل تشتبهون شيئا ؟ قالوا : شئ نشتبهى ؟ ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا انهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : يارب ، نريد أن ترد أرواحنا في اجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا " (١)

وقال صلى الله عليه وسلم : " ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع الى الدنيا وله ما على الأرض من شئ الا الشهيد يتمنى أن يرجع الى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة " . (٢)

فالشهيد اخص بحياة في البرزخ امتاز بها عن غيره من المؤمنين ، قال شارح الطحاوية في الشهاد : " فنصيبهم من النعيم في البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فرشهم وان كان الميت أعلى درجة منهم ، فلهم نعيم يختص به لا يشاركه فيه من هودونه " . (٣) الا أن الشهيد يتساوى مع بقية المؤمنين في المؤاخظة بالدّين وان كان يمتاز في سوى ذلك ، قال صلى الله عليه وسلم : " يغفر للشهيد كل ذنب الا الدين " (٤)

(١) أخرجه مسلم (١٥٠٢/٣ - ١٥٠٣) .

(٢) سبق تخريجه وهو متفق عليه .

(٣) شرح الطحاوية (٣٩٦) .

(٤) أخرجه مسلم (١٥٠٢/٣) .

فمن المؤمنين طائفة يحبسون في البرزخ عن الجنة وهم المحبوسون بدين عليهم حتى يؤدي ، ففي الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم صلى على جنازة - (وفي رواية صلى الصبح) - فلما انصرف قال : أهنا من آل فلان أحد ؟ قالوا : نعم ، قال : " ان فلانا - لرجل منهم - مأسور بدينه من الجنة - (وفي رواية محتبس على باب الجنة في دين عليه) - فان شتم فافدوه وان شتم فأسلموه الى عذاب الله " . (١)

وفي هذا الحديث دلالة على أن في المؤمنين في البرزخ من يحبس على باب الجنة حتى يزول سبب الحبس ، وهو دال على أن فيهم من يدخل الجنة ، وهناك أحاديث تدل على أن في المؤمنين من يعذب في البرزخ بذنوب ارتكبوها وفيها دلالة على تفاوت هؤلاء في العذاب على تفاوتهم فيما آتوا من الذنوب ، وهي أحاديث يطول حصرها جدا ومن أمثلتها قوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : " انه اتاني الليلة آتيان ، وانهما ابتعثاني ، وانهما قالوا لي : انطلق ، واني انطلقت معهما ، وانا أتينا على رجل مضطجع واذا آخر قائم عليه بصخرة واذا هو يبهوى بالصخرة لرأسه فيثلغ رأسه فيتهدد الحجر ههنا فيثبع الحجر فبأخذه فلا يرجع اليه حتى يصبح رأسه كما كان ،

(١) أخرجه أحمد (١١/٥ ، ١٣ ، ٢٠) وأبو داود (٢٤٦/٣) ، والنسائي (٣١٥/٧) والبيهقي في السنن (٧٦/٦) والطيالسي في مسنده (٢٢١) والحاكم (٢٥/٢) وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في أحكام الجنائز (١٥) .

ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولى قال : قلت لهما : سبحان الله ما هذان ؟ قال : قال لي : انطلق ، قال : فانطلقنا فأتينا على رجل مستاق لقفاء وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه فيشر شرشده إلى قفاء ومنخره إلى قفاء وعينه إلى قفاء قال: وربما قال أبو رجا فيشق ، قال: ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصحّ ذلك الجانب كما كان ، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى ، قال : قلت سبحان الله ما هذان ؟ قال : قال لي : انطلق / فانطلقنا فأتينا على مثل التنور ، قال : فاحسب أنه كان يقول فإذا فيه لفظ وأصوات ، قال : فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوّفوا ، قال : قلت لهما ما هؤلاء ؟ قال : قال لي : انطلق انطلق ، قال فانطلقنا فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول أحمر مثل الدم وإذا في النهر رجل سابح يسبح وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك السابح يسبح ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجرا فينطلق يسبح ثم يرجع إليه كما رجع إليه فغرفاه فالحقه حجرا ، قال : قلت لهما : ما هذان ؟ قال : قال لي : انطلق انطلق ، قال : فانطلقنا فأتينا على رجل كريمة المرأة كأكره ما أنت راء رجلاً امرأة ، وإذا عنده نار يحشها ويسعى حولها قال : قلت لهما ما هذا ؟ قال : قال لي : انطلق انطلق ، فانطلقنا فأتينا على روضة معتمة فيها من كل نؤر الربيع وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولا في السماء وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط ، قال : قلت لهما : ما هذا ما هؤلاء ؟ قال : قال لي : انطلق انطلق ، قال : فانطلقنا فانتبهينا

0-0

خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم " . (١)

ففى الحديث أن من المؤمنين فى البرزخ من يثلى رأسه أى يشدخ
بالحجر ، وأن منهم من يكون فى تنور الزناة والزوانى ، وأن منهم من يكون
فى نهر الدم يسبح فيه ويلقم الحجارة ، ذلك لمعاصى أتوها ، وأن منهم
من يكون شطره حسنا وشره الآخر قبيحا لخلطه عملا صالحا وآخر سيئا .
وفى هذا مع ما قبله دلالة ظاهرة على تفاضل المؤمنين فى البرزخ .

(١) أخرجه البخارى ، الصحيح مع الفتح (٤٣٨/١٢ - ٤٣٩) .

المبحث الثاني التفاضل في المحشر

أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن المؤمنين يحشرون حفاة عراة
غرلاً ^(١) وأخبر سبحانه أنه يحشر الكافرين على وجوههم ، قال سبحانه :
((ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصا)) (الاسراء - ٩٧)
وقال : ((الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم)) (الفرقان - ١٣٤)
وسئل صلى الله عليه وسلم : كيف يحشر الكافر على وجهه ؟ فقال صلى الله
عليه وسلم : " أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه
على وجهه يوم القيامة " . ^(٢)

وقد قال صلى الله عليه وسلم : " يحشر الناس على ثلاث طرائق
راغبين وراغبين واثنان على بغير وثلاثة على بغير وأربعة على بغير وعشرة على
بغير ، ويحشر بقيتهم النار ثقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا
وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمس معهم حيث أمسوا " ^(٣) أخرجه البخاري
في باب الحشر وذكره مع الحديثين السابقين في حشر المؤمنين وحشر
الكافرين ، وأخرجه مسلم في باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة .

(١) كما في حديثي عائشة وابن عباس المتفق عليهما ، والبخاري مع

الفتح (٣٧٧/١١ - ٣٧٨) ومسلم (٢١٩٣/٤ - ٢١٩٤) .

(٢) أخرجه البخاري ، البخاري مع الفتح (٣٧٧/١١) .

(٣) متفق عليه ، البخاري مع الفتح (٣٧٧/١١) ومسلم

(٢١٩٥/٤) .

وقد نقل ابن حجر عن الخطابي - قال : " صوب عياض ما ذهب
اليه الخطابي وقواه " - أن الحشر في هذا الحديث يكون في الدنيا
قبل قيام الساعة يحشر الناس أحياء الى الشام ، وأما الحشر من القبور الى
الموقف فهو خلاف هذه الصورة من الركوب على الابل والتعاقب عليها وإنما هو
على ما ورد في الحديث حفاة عراة مشاة . (١)

ونقل رحمه الله عن بعض أهل العلم الجزم بأنه الحشر بعد الخروج
من القبور ، وهو ظاهر صنيع البخاري ومسلم من إيرادهما الحديث على الوجه
المذكور .

ونقل رحمه الله عن بعض أهل العلم أن حمله على الحشر من القبور
أقوى من أوجه، وذكر أربعة أوجه، منها، أن الحشر إذا أطلق في عرف الشارع إنما
يراد به الحشر من القبور ما لم يخصه دليل . (٢) وذكر ابن حجر أنه قد جمع
بين هذا الحديث وحديث حشر الناس عراة حفاة مشاة بأنهم يخرجون من قبورهم
على هذا الوصف ثم يفترق حالهم من ثم الى الموقف على ما في هذا الحديث (٣)
ومعلوم أن القيامة أحوال متعددة ، إلا أن ابن حجر رجح أن الحشر
الوارد في الحديث إنما يكون قبل المبعث . (٤) والحديث دال على التفاضل
في الحشر ، وقد نقل ابن حجر عن بعض أهل العلم قوله " نرى أن هذا
التقسيم الذي وقع في هذا الحديث نظير التقسيم الذي وقع في تفسير الواقعة

(١) انظر فتح الباري (٣٧٩/١١) .

(٢) انظر فتح الباري (٣٨٠/١١) .

(٣) انظر فتح الباري (٣٧٩/١١) .

(٤) انظر فتح الباري (٣٨٢/١١) .

ومن الأحوال الفاضلة في الحشر ، حال الشهيد فقد قال
صلى الله عليه وسلم : " لا يكلم أحد في سبيل الله ، والله أعلم بمن يكلم

0.9

فى سبيله ، الا جاء يوم القيامة وجرحه يشعب اللون لون دم والريح ريح مسك . (١)

ومن الأحوال الفاضلة فى المحشر ، حال الذين يظلمهم الله بظلمه يوم لا ظل الا ظله ومنهم السبعة الذين ذكرهم النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : " سبعة يظلمهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله : الامام العادل وشاب نشأ فى عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل طلبت امرأة ذات منصب وجمال فقال : انى أخاف الله ، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه . " (٢)

وقال صلى الله عليه وسلم : " تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار الميل " قال الراوى : فلا ادرى ما يعنى بالميل ؟ أسافة الأرض أم الميل الذى تكتحل به العين ؟ قال صلى الله عليه وسلم : " فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق فمنهم من يكون الى كعبه ومنهم من يكون الى ركبته ومنهم من يكون الى حقويه ومنهم من يلجمه العرق الجاما " وأشار صلى الله عليه وسلم بيده الى فيه . (٣)

فهذا دليل على تفاضل الخلق فى وقوفهم بالمحشر قبل فصل القضاء.

(١) أخرجه مسلم (١٤٩٦/٣) .

(٢) أخرجه البخارى ، البخارى مع الفتح (١٤٣/٢) .

(٣) أخرجه مسلم (٢١٩٦/٤) .

ومن الأحوال المفضولة في الحشر ، حال المتكبرين كما في الحديث : " يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان " .^(١)

وأفضل أمم المؤمنين في المحشر أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد اختصها الله عز وجل فيه بما تتميز به عن غيرها ، ومن هذه الخصائص :
— اختصاصها بأنها أكثر اتباع الأنبياء عددا ، كما في حديث صحيح مسلم الذي تقدم ذكره : " أنا أكثر الأنبياء تبعا يوم القيامة " .

— وتميزها بعلامة تعرف بها وهي أنهم يأتون غرا محجلين من آثار الوضوء كما في الحديث : " ان أمتي يدعون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء " .^(٢)

وقال صلى الله عليه وسلم : " لكم سيما ليست لأحد غيركم تَكْرُدُّون عليّ غرا محجلين من آثار الوضوء " .^(٣)

وأفضل أحوال أهل المحشر وأكملهم حال الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ولا ريب ، وأفضل أحوال الأنبياء حال آدم وأولى العزم من الرسل

(١) أخرجه أحمد (١٧٩/٢) والترمذي (٥٦٥/٤) وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) متفق عليه ، البخاري مع الفتح (٢٣٥/١) ومسلم (٢١٦/١) .

(٣) أخرجه مسلم (٢١٧/١) .

الخمسة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم
كما دل عليه سراحة حديث الشفاعة المخرج فى الصحيحين وقد سبق ذكره
فأهل المحشر يقصد ونهم خاصة من بين سائر الأنبياء والمرسلين لكى يشفعوا
عند الله لراحتهم من هول الموقف ، ومحمد صلى الله عليه وسلم هو أفضل
أهل المحشر وحاله أفضل أحوالهم فهو صاحب الشفاعة العظمى التى يتدافعها
الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .
وجميع ما تقدم دال على التفاضل فى الحشر .

المبحث الرابع التفاضل في الحساب

قسم الله عباده في الحساب قسمين :

الأول : من يكون حسابه يسيرا وهم أهل اليمين ، قال تعالى :

((فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا)) (الانشقاق - ٨)

الثاني : من يلقي سوء الحساب وهم أهل جهنم ، قال تعالى

((أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد)) (الزمر - ١٨) .

وفي نصوص السنة دلالة على أن المؤمنين في الحساب ثلاثة

أصناف :

* فصنف لا يحاسب، وهؤلاء طائفة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أخبر عنهم صلى الله عليه وسلم وعدتهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بلا حساب ، ففي الحديث : " عرضت عليّ الأمم ، فجعل يمر النبي ومعه الرجل ، والنبي معه الرجلان والنبي معه الرهط ، والنبي ليس معه أحد ، ورأيت سوادا سد الأفق فرجوت أن تكون أمتي ، فقيل : هذا موسى وقومه ثم قيل، انظر، رأيت سوادا كثيرا سد الأفق ، فقيل لي: انظر هكذا وهكذا ، رأيت سوادا كثيرا سد الأفق ، فقيل : هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بلا حساب " .^(١)

(١) متفق عليه البخاري مع الفتح (٢١١/١٠) ومسلم (١٩٢/١) .

وفى رواية : " هؤلاء أمتك ، هؤلاء سبعون ألفا قدامهم
لا حساب عليهم ولا عذاب " (١)

فهذه زيادة فضيلة هؤلاء أنهم يتقدمون الأمة ، وجاء فى وصفهم
أنهم يدخلون الجنة : " متماسكين أخذ بعضهم ببعض ، لا يدخل أولهم
حتى يدخل آخرهم ، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر " (٢)

وفى حديث آخر أنهم يدخلون زمرة واحدة . (٢)

وفى رواية فى الصحيحين " سبعون ألفا ، أو سبعمائة ألف "
شك من الراوى . (٢)

ووقع فى أحاديث أخرى فى غير الصحيحين أن مع السبعين ألفا
زيادة عليهم . (٣)

* والصنف الثانى : لا يناقشون الحساب ، وإنما تعرض أعمالهم ثم
يتجاوز لهم عنها ، ففى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " من
نوقش الحساب عذب " فقالت عائشة : " أو ليس يقول الله تعالى — ((فسوف
يحاسب حسابا يسيرا)) — فقال : " إنما ذلك العرض ولكن من نوقش
الحساب يهلك " (٤)

(١) أخرجه البخارى ، الصحيح مع الفتح (٤٠٦/١١) .

(٢) البخارى مع الفتح (٤٠٦/١١) ومسلم (١٩٨/١ — ١٩٩) .

(٣) انظر فتح البارى (٤١٠/١١ — ٤١١) .

(٤) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٤٠٥/١١) ومسلم

(١٩٢/١) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول في بعض صلواته : " اللهم حاسبني حسابا يسيرا " فلما انصرف قلت : يا نبي الله ما الحساب اليسير ؟ قال : " أن ينظر في كتابه فيتجاوز عنه - (وفي رواية قال : الرجل تعرض عليه ذنوبه ثم يتجاوز له عنها) - أن من نوقش الحساب يومئذ يا عائشة هلك " .^(١)

❖ والصنف الثالث : يناقشون الحساب ويسألون فيه عن أعمالهم ، يحاسبون محاسبة من توزن حسنة وسيئة^(٢) ومن أمثلة هذا الصنف الذي يناقش الحساب وتوزن حسنة وسيئة حديث البطاقة الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم : " أن الله سيخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مد البصر ، ثم يقول له : أتتكر من هذا شيئا ؟ أظلمتك كتبتي الحافظون ؟ قال : لا يارب ، فيقول : ألك عذر أو حسنة ؟ فبهت الرجل فيقول : لا يارب ، فيقول : بلى ان لك عندنا حسنة واحدة ، لا ظلم اليوم عليك ، فتخرج له بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فيقول : أحضروه ، فيقول يارب ، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال انك لا تظلم ، قال : فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة ، قال : فطاشت السجلات

(١) رواه أحمد (٤٨/٦ ، ١٨٥) والحاكم (٥٧/١ و ٢٥٥ و ٤٠٠/٤)

(٢٤٩) وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، وانظر الدر المنثور (٣٢٩/٦) .

(٢) انظر : الفتاوى (١٤٦/٣) .

وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شىء . (١)

فهذه دلائل على تفاضل المؤمنين فى الحساب .

وفى هذا الباب تظهر فضيلة خص الله بها أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهى اختصاصها بشهادتها للأنبياء على أممهم وبشهادة رسولهم محمد صلى الله عليه وسلم عليها ، قال تعالى : ((وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)) (البقرة - ١٤٣) وقال عز وجل : ((هو سميع العليم من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم ولتكونوا شهداء على الناس)) (الحج - ٧٨) وتكون شهادة هذه الأمة على نحو ما قال صلى الله عليه وسلم : " يجى نوح وأمتي ، فيقول الله تعالى : هل بلغت ؟ فيقول : نعم أى رب ، فيقول من لأمتي : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا ، ما جاءنا من نبي ، فيقول لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد - صلى الله عليه وسلم - وأمتي ، فنشهد أنه قد بلغ وهو قوله جل ذكره ((وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس)) والوسط : العدل . (٢)

(١) أخرجه أحمد (٢١٣/٢ و ٢٢٢) والترمذى (٢٥/٥) وحسنه وابن ماجه (١٤٣٧/٢) والحاكم (٦/١) وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، وصحح الحديث الألبانى انظر هامش شرح الطحاوية (ص ٤١٣) .

(٢) أخرجه البخارى ، الصحيح مع الفتح (٣٧١/٦ ، ١٧١/٨) .

المبحث الرابع

التفاضل في المرور على الصراط وورود الحوض

الصراط جسر معدود على متن جهنم يجوز الخلق عليه بعد تفرقهم من المحشر^(١) وعليه كلاليب مثل شوك شجر السعدان الا أنه لا يعلم قدر عظمها الا الله تغطف الناس من فوق الصراط وهو دحى مزلّة كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .^(٢)

والمؤمنون يتفاضلون في المرور على الصراط ، وهم في ذلك ثلاثة أصناف كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم : " فنج مسلم وناج مخدوش ، ومكدوس في نار جهنم " ^(٣) فهم في الجملة صنفان :

- ١ — ناجون سالمون من السقوط في جهنم يجوزون الصراط .
- ٢ — مطروحون ساقطون في جهنم لا يتمون المرور على الصراط ، فاذا عوقبوا على معاصيهم أخرجوا من النار الى الجنة ، وقد ورد اجمالهم في هذين الصنفين

عن النبي صلى الله عليه وسلم في رواية اذ قال : " فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من يخردل ثم ينجو " .^(٣)

ثم الناجون في الجملة صنفان : سالمون من خدش الكلاليب التي على الصراط ومخدوشون قد نالت منهم الكلاليب شيئا بحسب اعمالهم .

(١) انظر صحيح البخارى مع الفتح (١٩٢/٢) وصحيح مسلم (١٦٤/١)

(٢) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٤٤٥/١١) ومسلم (١٦٩/١) .

(٣) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (١٩٢/٢) ومسلم (١٦٤/١) .

ثم التاجون متفاضلون في صفة مرورهم على الصراط فمنهم من يمر عليه كالطرف ، ومنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كأجاويد الخيل حتى يمر آخرهم يسحب سحباً ، أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم . (١)

وأفضل المارين على الصراط وأكملهم مروراً الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم " . (٢)

وأفضل اتباع الأنبياء مروراً أمة محمد صلى الله عليه وسلم فهم أول من يجوز الصراط من الأمم ، قال صلى الله عليه وسلم : " فأكون أول من يجوز من الرسل بأمتي " . (٣)

وقد سئل صلى الله عليه وسلم : " من أول الناس اجازة ؟ قال : فقراء المهاجرين " . (٤) وهذه فضيلة لفقراء المهاجرين .

وأما الحوض :

فان لكل نبي حوض كما في الحديث : " ان لكل نبي حوضاً ، وانهم يتباهون أيهم أكثر وارداً ، واني لأرجو أن أكون أكثرهم وارداً " . (٥)

-
- | | |
|-------|---|
| (١) | متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٤٤٥ / ١١) ومسلم (١٦٩ / ١) . |
| (٢) | متفق عليه ، البخارى مع الفتح (١٩٢ / ٢) ومسلم (١٦٤ / ١) . |
| (٣) | متفق عليه ، البخارى مع الفتح (١٩٢ / ٢) ومسلم (١٦٤ / ١) . |
| (٤) | اخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٢ / ١) . |
| (٥) | اخرجه الترمذى (٥٤٢ / ٤) والطبرانى كما قال الهيثمى في المجمع (٣٦٣ / ١٠) وابن حجر في الفتح (٤٦٧ / ١١) وكذا ابن أبي الدنيا |

===

وأحواض الأنبياء متفاضلة ، وأفضلها حوض النبي صلى الله عليه وسلم فهو أكثرها وارداً ، وقد جاء في صفته أنه مسيرة شهر وأن زواياه سواء وأن ماءه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء من شرب منه لم يظما أبداً ^(١) وما حوض نبينا صلى الله عليه وسلم يشخب فيه ميزابان من الجنة ^(٢) كما قال صلى الله عليه وسلم .

وقد خص صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء بالكوثر كما قال تعالى : ((انا اعطيناك الكوثر)) والكوثر نهر في الجنة ، قال صلى الله عليه وسلم " بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافظه قباب الدر المجوف ، قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فإذا طيبه — أوطينه — مسك أذفر " ^(٣) شك من الراوى . وهذا من فضائله صلى الله عليه وسلم .

والمؤمنون يتفاضلون في ورود الحوض فمنهم من يردّه ومنهم من يثاد عنه

== كما قال ابن حجر في الفتح (٤٦٧/١١)

وقد صححه السيوطي في الجامع (٩٧/١) وكذا الالباني في صحيح الجامع (٢٢٩/٢) وفي تخریج الطحاوية ، هامش صفحة (١٩٢) وفصل ذلك في الصحيحة (١٥٨٩) .

(١) ورد هذا في الحديث المتفق عليه ، البخارى مع الفتح (٤٦٣/١١) ومسلم (١٢٩٣/٤) .

(٢) صحيح مسلم (٧٩٩/٤) .

(٣) أخرجه البخارى ، الصحيح مع الفتح (٧٣١/٨) .

قال صلى الله عليه وسلم : " انى على الحوض حتى أنظر من يرد على منكم وسيؤخذ ناس دونى فأقول : يا رب منى ومن أمتى ، فيقال : هل شعرت ما عملوا بعدك والله ما برحوا يرجعون على أعقابهم " .^(١)

وقال صلى الله عليه وسلم : " انى لبعقر حوضى أذود الناس لأهل اليمن أضرب بعصاى حتى يرفض عليهم " .^(٢)

وهذه فضيلة لأهل اليمن وكرامة أن يدفع النبی صلى الله عليه وسلم الناس عن حوضه حتى يشربوا هم ويتقدموا فى الشرب .^(٣)

-
- (١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٤٦٦/١١) ومسلم (١٧٩٤/٤) .
- (٢) أخرجه مسلم (١٧٩٩/٤) .
- (٣) انظر شرح النووى لمسلم (٦٢/١٥) .

المبحث الخامس التفاضل فى درجات الجنة

الجنة اسم لدار النعيم فى الآخرة شامل لكل ما حوته ، وهى جنات كثيرة جدا ودرجات متفاوتة ، ولقد ذكر سبحانه وتعالى انها جنات نحو ثمان وخمسين مرة فى كتابه ، كقوله سبحانه ((وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جناب تجرى من تحتها الأنهار)) (البقرة - ٢٥) وقوله : ((والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات)) (الشورى - ٢٢) وقوله : ((ان المتقين فى جنات وعيون)) (الحجر - ٤٥) وذكر سبحانه أنها درجات فى أكثر من آية فى كتابه نحو قوله سبحانه : ((أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم)) (الأنفال - ٤) وقوله : ((أفمن أتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله وما واه جهنم ومثس المصير ، هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون)) (آل عمران - ١٦٣)

وكذا أخبر صلى الله عليه وسلم أنها جنات ، ففى الحديث أن أم حارثة بن سراقه أتت النبى صلى الله عليه وسلم تسأله عن ابنها وقد استشهد فى بدر : أفى الجنة هو ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : " أوجنة واحدة هى ؟ انها جنات فى الجنة وان ابنك أصاب الفردوس الأعلى " . (١)

وأخبر انها درجات فى مثل قوله صلى الله عليه وسلم : " ان فى الجنة مائة درجة أعداها الله للمجاهدين " . (٢)

(١) أخرجه البخارى ، الصحيح مع الفتح (١١/٤١٥ و ٤١٨) .

(٢) أخرجه البخارى ، الصحيح مع الفتح (٦/١١ و ١٣/٤٠٤) .

وهذه الجنات متفاضلة ، ففيها جنات عليا كما قال سبحانه :

((فأولئك لهم الدرجات العلى)) (طه - ٢٥) وفيها درجات دون التي فوقها كما قال سبحانه : ((ولمن خاف مقام ربه جنتان)) الى أن قال : ((ومن دونهما جنتان)) (الرحمن - ٤٦ - ٦٢) ، والجنات بعضها فسوق بعض كما دل عليه قوله صلى الله عليه وسلم : " ان أهل الجنة يترايون أهل الغرف من فوقهم كما يترايون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم " . (١)

فقوله : " من فوقهم " يدل على ما ذكر ، وهذه الجنات متباعدات كما دل عليه قوله صلى الله عليه وسلم : " ان في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والارض فإذا سألت الله فأسأله الفردوس فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة " . (٢)

فهذا تباعد ما بين درجات هذه المائة التي أعدت للمجاهدين ، ودرجات الجنة كثيرة لم يرد حصرها في عدد فهذه مائة أعدت للمجاهدين وقال صلى الله عليه وسلم : " يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فان منزلك عند آخر آية تقرؤها " (٣) وهذا يدل على أن درجات الجنة لا حصر لها .

(١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٣٢٠ / ٦) ومسلم (٢١٧٧ / ٤) .

(٢) البخارى مع الفتح (١١ / ٦) .

(٣) أخرجه أحمد (١٩٢ / ٢) والترمذى (١٦٣ / ٥) وقال حسن

صحيح ، وأبو داود (٢٣ / ٢) وابن حبان - الاحسان (٢١ / ٢)

والحاكم (٥٥٣ / ١) وقال الذهبي : صحيح ، وحسنه الالبانى فى

تخريج المشكاة (٦٥٨ / ٢) .

وقال الخطابي : جاء في الأثر : " أن عدد آي القرآن على قدر درج الجنة " ^(١) والله أعلم بصحته .

والجنات على كثرتها وعدم احصائها الا أنها ترجع الى نوعين :
جنتان ذهبيتان بكل ما اشتملتا عليه وهما المخصوصتان بالمقربين ، وجنتان فضيتان بكل ما اشتملتا عليهما وهما لأصحاب اليمين ^(٢) قال تعالى : ((ولمن خاف مقام ربه جنتان)) الى أن قال : ((ومن دونهما جنتان)) الآيات (الرحمن - ٤٦ - ٦٢) .

قال صلى الله عليه وسلم : " جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما " ^(٣) .
والمؤمنون متفاضلون بتفاضل درجاتها ، وأعلامهم وأكملهم درجة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، كما في الحديث المذكور قريبا ، قال صلى الله عليه وسلم : " أن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم . قال : " بلى والذي نفسي بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين " ^(٤) .

-
- (١) معالم السنن - بهامش المختصر (١٣٦/٢) .
(٢) انظر لادى الارواح (ص ٧٧) وشرح النونية للسهراس (٣٥٦/٢) - (٣٥٨) .
(٣) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٦٢٤/٨) ومسلم (١٦٣/١) .
(٤) متفق عليه البخارى مع الفتح (٣٢٠/٦) ومسلم (٢١٧٧/٤) .

أى : نعم هى منازل الأنبياء بايجاب الله تعالى لهم ذلك ولكن قد يتفضل الله تعالى على غيرهم بالوصول الى تلك الدرجة . (١)

وأفضل الأنبياء درجة محمد صلى الله عليه وسلم فقد قال صلى الله عليه وسلم : " اذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا على فأنه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا الله لى الوسيلة ، فأنها منزلة فى الجنة لا تنفى الا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو " (٢)

فهذه منزلة فى الجنة خاصة به صلى الله عليه وسلم ، وهو صلى الله عليه وسلم أول من يقرع باب الجنة فقد قال : " أنا أول من يقرع باب الجنة " (٣) فيكون أول من يفتح له ، قال صلى الله عليه وسلم : " آتى باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ، فيقول : بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك " . (٤)

ثم يتفاضل المؤمنون بعد الأنبياء فى الجنات ، قال صلى الله عليه وسلم : " ان أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء اضاءة " (٥) ولعل المراد بأول زمرة السبعون ألفا الذين يدخلون الجنة بلا حساب من أمة محمد صلى الله عليه وسلم

(١) انظر فتح البارى (٣٢٨/٦) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٨/١ - ٢٨٩) .

(٣) أخرجه مسلم (١٨٨/١) .

(٤) مسلم (١٨٨/١) .

(٥) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٣١٩/٦) ومسلم (٢١٧٨/٤) .

كما تقدم فى الأحاديث المذكورة فيهم أنهم يتقدمون الأمة وأن من صفاتهم أنهم زمرة واحدة على صورة القمر. وأقل أهل الجنة منزلة المخرجون من النار بعد العقوبة ، قال صلى الله عليه وسلم : " يخرج قوم من النار بعد ما مسهم منها سفح فيدخلون الجنة ، فيسميهم أهل الجنة : الجهنميون ". (١) وهؤلاء يتفاضلون فى خروجهم من النار، يخرج بعضهم قبل بعض على منازلهم فى الإيمان كما فى حديث الرؤية الطويل الذى فيه أن المجاوزين الصراط إذا رأوا أنهم قد نجوا وبقي أخوانهم يقولون : ربنا أخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون معنا ويعملون معنا ، فيقول الله تعالى : اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه ، ويحرم الله صورهم على النار ، فيأتونهم وبعضهم قد غاب فى النار إلى قدميه وإلى أنصاف ساقيه ، فيخرجون من عرفوا ثم يعودون ، فيقول : اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه ، فيخرجون من عرفوا ثم يعودون ، فيقول : اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه فيخرجون من عرفوا ". (٢) وآخر أهل النار خروجاً منها ما جاء فيه : " انى لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها ، وآخر أهل الجنة دخولا ، رجل يخرج من النار حبوا فيقول الله : اذهب فادخل الجنة فيأتها فيخيل إليه أنها ملأى ، فيرجع فيقول : يا رب وجدتها ملأى ، فيقول : اذهب فادخل الجنة فيرجع فيقول : يا رب وجدتها ملأى ، فيقول : اذهب فادخل الجنة فيأتها فيخل إليه أنها ملأى ، فيقول : اذهب فادخل الجنة ، فان لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها ". وجاء فى آخر الرواية : " فكان يقسم :

(١) البخارى مع الفتح (١١/٤١٦) .

(٢) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (١٣/٤٢١) (١/١٦٩-١٧٠) و

مسلم (١/١٦٩-١٧٠)

ذلك أدنى أهل الجنة منزلة " . (١)

وهذا هو أدنى أهل الجنة منزلة كما في حديث : " سأل موسى ربه : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يجي بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له : أدخل الجنة . فيقول : أى رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت ، رب ، فيقول : لك ذلك ومثله ومثله ومثله . فقال فى الخامسة : رضيت ، رب ، فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله . ولك ما اشتيت نفسك ولذت عينك . فيقول : رضيت ، رب ، قال : رب فأعلاهم منزلة ، قال : أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها . فلم ترعين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر " قال ومصادقه فى كتاب الله عز وجل : فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين " (٢) (السجدة - ١٧) .

وحظ الرجال من الجنة أعظم من حظ النساء فى الحديث : " أريت النار فلم أر منظرا كالיום قط أفظع ورأيت أكثر أهلها النساء " (٣) وقال صلى الله عليه وسلم للنساء : " تصدقن فان أكثركن حطاب جهنم " . (٤)

-
- (١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٤١٨ / ١١ - ٤١٩) ومسلم (١٧٣ / ١)
(٢) صحيح مسلم (١٧٦ / ١) .
(٣) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٥٤٠ / ٢) ومسلم (٦٢٦ / ١) .
(٤) مسلم (٦٠٣ / ١) .

وأمة محمد صلى الله عليه وسلم أفضل أهل الجنة فهم أول من
يدخل الجنة ، قال صلى الله عليه وسلم : " نحن الآخرون الأولون يوم
القيامة ، ونحن أول من يدخل الجنة " .^(١) وهم أكثر أهل الجنة إذ هم نصف
أهل الجنة ففي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه :
" أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة ؟ قالوا : نعم ، قال : " أترضون
أن تكونوا ثلث أهل الجنة ؟ قالوا : نعم ، فقال : " والذي نفسى
بيده انى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة ، وذاك أن الجنة لا يدخلها
الا نفس مسلمة وما أنتم من أهل الشرك الا كالشعرة البيضاء فى جلد الثور
الأسود أو كالشعرة السوداء فى جلد الثور الأحمر " .^(٢)

(١) مسلم (٥٨٦/٢) .

(٢) صحيح مسلم (٢٠٠/١ - ٤٠١) .

المبحث السادس تفاوت أهل النار فيها

دل الكتاب والسنة أن جهنم دركات

قال الله عز وجل : ((ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار))

(النساء - ٤٥) .

وقال صلى الله عليه وسلم في عمه أبي طالب : " هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار " .^(١)

قال أبو عبيدة :^(١) " جهنم أدراك أى منازل وأطباق "^(٢)

ويقال للمنازل اذا كان بعضها فوق بعض درج ، ولذا سميت منازل الجنة درجات ، واذا كان بعضها أسفل بعضها يقال لها درك .^(٣)

ويشهد له قول الله ورسوله " في الدرك الأسفل " يعنى

(١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (١٩٣/٢) ومسلم (١٩٥/١) .

(٢) مجاز القرآن (١٤٢/١) .

(٣) انظر زاد المسير (٢٣٤/٢) والنهاية في غريب الحديث (١١٤/٢)

(١) هو معمر بن المثنى ، من أئمة اللغة ، وكان مع هذا شعوبيا يبغيض

العرب وصنف في مثالبهم ، وكان خارجيا أباضيا ،

ت ٢٠٩ هـ

انظر : تهذيب التهذيب (٢٤٦/١٠) وميزان الاعتدال

(١٥٥/٤) .

أن النار درجات بعضها أسفل بعض . وقال سبحانه وتعالى : ((ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب)) (غافر - ٤٦) وقال في بني إسرائيل : ((ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب)) (البقرة - ٨٥) .

فعذاب جهنم متفاوت بعضها أشد من بعض ، وعلى هذا فننازل أهل النار متفاوتة بتفاوت درجاتها ، وقد أخبر سبحانه أن المنافقين أسفل أهل النار إذ هم في الدرك الأسفل منها .

وأخبر صلى الله عليه وسلم عن أهون أهل النار عذابا فقال : " أن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرة يغلى منها دماغه " .^(١) وصرح صلى الله عليه وسلم أنه أبو طالب فقال : " أهون أهل النار عذابا أبو طالب ، وهو منتعل بنعلين يغلى منهما دماغه " .^(٢)

ولا شك أن عصاة المؤمنين الذين يدخلون النار فيعذبون فيها على قدر أعمالهم ثم يخرجون منها — كما تقدم بيانه — لا شك أنهم أهون أهل النار عذابا لأن عذابهم فيها مؤقت ، أما بقية أهل النار من الكفار والمنافقين فكما قال الله عز وجل فيهم : ((لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها)) (فاطر - ٣٦) .

(١) متفق عليه ، البخارى مع الفتح (٤١٧/١١) ومسلم (١٩٦/١)

(٢) أخرجه مسلم (١٩٦/١) .

ومقصود النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : " أهون أهل النار عذابا " في هذا الحديث أهلها المقيمون فيها الذين لا يخرجون منها كما قال صلى الله عليه وسلم : " أما أهل النار الذين هم أهلها فانهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم (أو قال بخطاياهم) فأماتهم امانة حتى اذا كانوا فحما أذن بالشفاعة فجس بهم ضباير ضباير ، فبثوا على أنهار الجنة ، ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم ، فينبتون نبات الجنة تكون في حصيل السيل " (١).

أجارنا الله من عذاب جهنم وختم لنا بخير ، آمين .

(١) أخرجه مسلم (١/١٧٢ - ١٧٣) .

العامة

الحمد لله ، اللهم ربنا لك الحمد ، حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ،
ملاً السموات والأرض وملاً ما بينهما ، وملاً ما شئت من شيء بعد ، أهل
الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد ، لا نحصى ثناء عليك
أنت كما أثنت على نفسك ، لك الحمد في الأولى والآخرة ، الحمد لله
من قبل ومن بعد . أما بعد :

فمن خلال عرض أدلة الكتاب والسنة ، وإيراد دلالاتها من منطوقها
وفهم العلماء ، تقررت في بابي البحث وفصوله أمور في مباحث المفاضلة ،
فقد بينت فيه فضل الخالق على خلقه نقضاً لمذهب أهل وحدة الوجود
والجهمية والمعتزلة الذين يستحيل على مذاهبهم إثبات فضل الله على
خلقهم .

ثم بينت تفاضل أسماء الله وصفاته ، ودلالة هذا التفاضل على تعدد
الأسماء والصفات وتعدد معانيها نقضاً لمذهب المعتزلة الذين جعلوا
أسماء الله أعلاماً محضة مترادفة لا معنى لها وعطلوا صفات الله فاستحال
على مذاهبهم تفاضل الأسماء والصفات .

وكذا بينت أن التفاضل يقع في الصفة الواحدة من صفات الله
كتفاضل صفة الكلام نقضاً لمذهب الأشاعرة والكلابية ومن نحى نحوهم من
المتكلمين في نفهم تفاضل صفات الله وصفة الكلام خاصة .

وبينت أن تفاضل أسماء الله وصفاته هو تفاضل بين صفات كمال

وتناول البحث مباحث متفرقة من المفاضلة ، فتقرر جواز امامة المفضل
وأن الملافة متفاضلون ، وأن الصحيح هو تفضيل الأنبياء وصالح المؤمنين على
الملافة .

وتقرر كذلك تفاضل المؤمنين في الآخرة في أحوال البعث من الحشر والحساب والمرور على الصراط ودرجات الجنة .

وقد تقرر من خلال البحث عدد من القواعد العامة في المفاضلة
أهمها :

- ١ - أن التفاضل لا يكون إلا مع التعدد ، فهو انما يقع بين شيئين فصاعدا ولا يعقل في الواحد من كل وجه .
- ٢ - أن المفاضلة لا تستلزم نقص المفضل بل تقع في الأشياء الفاضلة .
- ٣ - أنه قد تثبت للمفضل خصيصة فاضلة لا يشاركه فيها الفاضل .
- ٤ - أن ثبوت فضيلة يختص بها الشيء لا تستلزم تفضيله مطلقا .
- ٥ - أن تفاضل الأزمنة والأمكنة لا لشيء في ذاتها بل لما تعلق بها من أعمال صالحة متفاضلة .
- ٦ - أن مدار المفاضلة بين الخلق على العبودية لله فكل من كان حظّه من العبودية أتم وأكمل كان أفضل .
- ٧ - أن المؤمن ينبغي أن ترقى همته الى الأمور الفاضلة فلا يقنع بالمفضل منها تقاسما عن الأفضل ، يتمثل بذلك هـدى

فهرس الموضوعات

بسم الله الرحمن الرحيم
جدول تصويب الأخطاء المطبعية في الرسالة

الخطأ	الصواب	السطر	الصفحة
الفرض	الفرض	الأخير	٢١
في الأعراض	في الأعراف	هامش ٤	٢٥
أشبه	أشبهه	٧	٤١
نفخ الطيب	نفخ الطيب	١٣ في الهامش	٥١
الى قال	الى أن قال	١٠-١١	٦٩
المقدسه	المقدسة	١٥	٧٢
الحياه	الحياة	١٦	٧٢
وثقة	وثقة	٤ في الهامش	٧٩
للطاوى	للطحاوى	هامش رقم ٤	٨٢
داخل الجنة	داخل الجنة	١٠	٨٢
١٠/١٢	٢١٠/١٢	هامش ٤	٩٨
الرسة	الرسالة	١٠	١٠٣
من وجهة	من جهة	١٤	١١٨
مخير	مخيراً	٣	١٢٥
أحدهما	أحدها	٧	١٣٢
أحدهما	أحدها	٦	١٣٦
الرسة	الرسالة	١٠	١٣٦
بالنحوب	بالنحو	٦ في الهامش	١٣٧
تقع	يقع	٣	١٤٦
بالأنبياء من الله	بالأنبياء من الله	١٣	١٤٧
لم نقص عليكم	لم نقص عليكم	٩	١٥٠
عليه السلا	عليه السلام	١	١٥٤
أما الأولى	أما الأول	١	١٧٣
عليه السلا	عليه السلام	٦	١٧٣
الرسة	الرسالة	٩	١٧٥
ما يستطيعه	ما يستطيعه	٢	١٩٥
حيثما	حيث	٢	٢٠١
تكليم	تكليم	٨	٢٠١
أتاني	أتاني	٦	٢٠٣
فضلنا	فضلنا	٨	٢٠٦
فتحصل	فتحصل	٦	٢٠٩
وقع وقع	وقد وقع	١	٢١٥
بالعفة	بالعننة	٥ في الهامش	٢٢١
هو (٥٤)	هود (٥٤)	٤	٢٣٢

الصفحة	السطر	الصواب	الخطأ
٢٥٥	٨-٩	رحمه الله	رحمة الله الله
٢٥٥	١٢	سيرة معاوية	سير معاوية
٢٥٩	٢	مع أن فيهم	مع من أن فيهم
الصفحة رقم ٢٦٣ هي في الصواب رقم ٢٦٤ والصفحة رقم ٢٦٤ هي في الصواب رقم ٢٦٣			
٢٦٨	٤	تقع عليه عينك	تقع عليك عنك
٢٨١	٨	بولاية	بولاية
٢٨٩	٥	أولم يرو	أولم ير
٢٨٩	٦-٧	كما يقول ابن حجر	كما يقول حجر
٣٠٨	هاش ٢	يضاف: "انظر: البخاري مع الفتح (٢٥٨/٥) ومسلم (١٩٦٤/٤)	
٣١٠	هاش ١	يضاف: "وصحيح مسلم (١٩٦٣/٤)"	
٣١٥	٤	لا يعتقدون	لا يتعقدون
٣١٧	٩ في الهاش	يضاف: ، ومسلم في صحيحه (٢٢١٤/٤)	
٣١٩	١٢	ما تعملون	ما تعلمون
٣٢٥	الأخير في الهاش	ذكر ذلك	ذلك ذلك
٣٢٩	٧	من وجوه التفاضل	من وجود التفاضل
٣٥٨	٨	ثم صرفكم عنهم ليبتليكم	ثم صرفهم عنكم ليبتليكم
٣٥٧	٣	يفضلها	يفضلها
٣٨٢	١٥	لا نسبة اليه	لا نسبة اليه
٣٩٤	٥	يعملونها	يعملونها
٣٩٦	٩	ينزع نزع	ينزع نوع
٤٠١	١٣	الملة	الملة
٤٣٣	٣	تبلغه	تبلغه
٤٥٩	٩	على كثير من	على كثير من
٤٦٢	٩	ملا بعينه	ملا بعينه
٤٦٦	١٠	وهذا التفصيل	وهذا التفصيل
٤٦٨	١٠	ولو استزددته لزدني	ولو استزددته لزدته
٤٨٤	١٢	من أراد	من أرد
٥١٨	١٤	فان لكل نبي حوضا	فان لكل نبي حوض
٥٢٥	١٨	فيعمل	فيحل
٥٢٩	١	أن النار دركات	أن النار درجات